الكتابُ الثاني

عِلْمُ البيَان

تأليف

د. عيسى علي العاكوب

البيانُ لغةً واصطلاحًا:

البيانُ ـ لغةً ـ الكشفُ والإيضاحُ والظهور، قال سبحانه في وصْف القرآن الكريم: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

ويُسمّى العِلْمُ الذي يعالج مسائلَ البيان بوساطة الألفاظ «عِلْمَ البيان»، ويُعرَّف في الاصطلاح البلاغي بأنّه: «عِلْمٌ يُعْرَف به إيرادُ المعنى الواحدِ في طرقٍ وتراكيبَ مختلفة في وضوح الدّلالة عليه».

وجليّ أنّ التراكيب ليست على درجة واحدة في وضوح دلالتها على المعنى الواحد المراد التعبيرُ عنه؛ إذ إنّ بعضها أوضحُ من بعض، وممّا يمثَّل به لهذا التّفاوت في وضوح دِلالة التّراكيب ما يُقال إنه «اجتمع جريرٌ والفرزدقُ والأخطلُ في مجلس عبد الملك، فأحضر بين يديه كِيسًا فيه خمسُمِائة دينار، وقال لهم: لِيَقُلْ كلٌّ منكم بيتًا في «مَدْح نفسه»، فأيُّكم غلَبَ فله الكيسُ. فبدَرَ الفرزدقُ فقال:

أنا القَطِرانُ، والشُّعراءُ جَرْبىٰ ... وفي القَطِرانِ لِلْجَرْبى شِفاءُ

فقال الأخطلُ:

فإنْ تكُ زِقَّ زاملةٍ فإنّي ... أنا الطّاعونُ، ليس له دواءُ

فقال جرير:

أنا الموتُ الّذي آتيَ عليكُمْ ... فليسَ لِهاربٍ منّي نَجاءُ

فقال: خُذِ الكيسَ، فلَعَمْري إنّ الموتَ يأتي على كلّ شيء».

فقد سُئل كلٌّ من الثلاثة أن يعبِّر عن معنًى واحد هو «مدْحُ النّفس». وقد مدح كلٌّ منهم نفسَه بطريقة تختلف عن طريقة الآخر في درجة وضوح دلالتها على المعنى المراد. إذ شبّه الفرزدقُ نفسَه بالقَطِران، وجعل من الشعراء إبِلاً جربى، وبيّن أنه دواءٌ لهم، لا غنى لهم عنه، كما لا تستغني الإبلُ الجربى عن القطران. ثم تناول المعنى نفسَه الأخطلُ، فشبّه نفسَه بالطاعون، ذلك المرض الذي يفتك بالمُصابين فلا يُبقي ولا يذَرُ، ثم أُحيل المعنى إلى جرير فشبّه نفسَه بالموت الذي لا ينجو منه أحدٌ. وهكذا فقد أورد كلٌّ منهم المعنى نفسَه، ولكن بطريقةٍ تختلف عن طريقة الآخر في وضوحِ دِلالتها على المعنى المُراد. ورغم أنهم جميعًا استخدموا صيغةَ التشبيه في أداء المعنى المراد، لكنّ الأشياءَ التي شبّهوا أنفسَهم بها متفاوتةٌ في وضوح دِلالتها على التغنّي بالذّات ومَدْحِها من خلال إحراز قدْرٍ من القدرة على الفتْك متفاوتٍ في حجمه: القَطِران، الطّاعون، الموت.

وقد يشاءُ المتكلِّمُ التعبيرَ عن معنى «كرم محمّدٍ»، فيستخدم لذلك طرائقَ مختلفةً في دِلالتها على هذا المعنى. فقد يعْمِد إلى استخدام صيغة التّشبيه، التي تنطوي على أساليبَ مختلفة في دِلالتها، فيقول: «محمّدٌ كالبَحْر في العطاء»، و«محمّدٌ كالبَحْرِ» و«محمّدٌ بحرٌ». فنحن هنا إزاء ثلاثةِ تراكيبَ تُورد معنًى واحدًا هو «كرمُ محمد» بثلاث مراتب من وضوح الدّلالة:

محمّدٌ بحرٌ ـ التركيبُ الأوضحُ دِلالةً على كرم محمد.

محمّدٌ كالبحرِ ـ التركيب الأقلّ وضوحًا من السابق.

محمّدٌ كالبحرِ في العطاءِ ـ التركيب الأقلّ وضوحًا من سابقَيْه.

وهكذا نخلصُ إلى القول إنّ كلّ معنى من المعاني يمكن إيرادُه

بطرائق مختلفة في وضوح الدّلالة عليه. والعِلْمُ الذي يُعرَفُ به إيرادُ المعنى الواحد في طرقٍ وتراكيبَ مختلفة في وضوح الدّلالة عليه يُعْرَف بـ «علم البيان».

هذا ويضمّ «علمُ البيان» ـ عند جمهرة البلاغيين ـ ثلاثةَ مباحث أساسية، هي:

١ ـ مبحث التشبيه.

٢ ـ مبحث المجاز.

٣ ـ مبحث الكِناية.

وسيأتيكَ حديثُها مفصَّلاً فيما يأتي من الصفحات، والله المستعان.

المبحث الأوّل

التشبيه

ويتضمّن:

- تعريف التّشبيه لغةً واصطلاحًا.
- أركان التّشبيه الأربعة.
- أنواع المشبه به.
- تقسيم طرفي التشبيه:

أولًا: تقسيم الطرفين من حيثُ الحِسّيةُ والعقلية (حسّيان ـ عقليّان ـ المشبّه عقليّ والمشبّه به حسّي ـ المشبّه حسّي والمشبّه به عقليّ).

- الحسيّ الخياليُّ، والعقليّ الوَهْميّ والوجدانيّ.

ثانيًا: تقسيم الطرفين من حيث إفرادُهما وتركيبهما (مفردان ـ مركّبان ـ المشبّه مفرد والمشبّه به مركّب ـ المشبّه مركّب والمشبّه به مفرد).

ثالثًا: تقسيم الطرفين من حيث تعدّدُهما أو تعدّد أحدهما (التّشبيه الملفوف ـ التشبيه المفروق ـ تشبيه التسوية ـ تشبيه الجَمْع).

وجه الشّبه:

- تعريف وجه الشبه.
- تقسيمات وجه الشبه:

أولاً: التحقيقيّ والتخييليّ.

ثانيًا: المفرد والمركّب والمتعدّد.

ثالثًا: الحسّي والعقليّ والمختلف.

- اعتداد المركّب من حسّي وعقليّ عقليًا - طرفا الحسّيّ التامّ والجزئيّ حسّيان - طرفا العقليّ عقليان أوْ حسّيان أو مختلفان. جمالية الوجه المركّب الحسّي.

- أقسامُ التّشبيه تبعًا لوجه الشّبه (تشبيه تمثيل - تشبيه غير تمثيل - تشبيه مفصَّل - تشبيه مجمل - تشبيه قريب مبتذل - تشبيه بعيد غريب).

- تشبيه التمثيل (تعريفه - تقسيمه من حيث الأداة - أوضاعه في الكلام - تأثير التمثيل في إدراك المعاني).

أدوات التشبيه:

(الكاف وكأنّ - الأفعال - الأسماء) - تقسيم التشبيه تبعًا للأداة: مُرْسَل - مؤكَّد.

أغراض التشبيه:

- الأغراض الراجعة إلى المشبّه.

- الأغراض الراجعة إلى المشبه به.

- تقسيم التشبيه تبعًا للغرض (المقبول - المردود).

درجات التشبيه في قوة المبالغة ووضوح الدّلالة.

التشّبيه الضِّمنيّ.

التّشبيه المقلوب.

جماليّات التشبيه

التّشبيه

التّشبيهُ لغةً واصطلاحًا:

التّشبيه - لغةً - التّمثيلُ، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. وتقول العربُ: شبَّهَهُ إيّاهُ، وشبّهه به، تشبيهًا: مثَّلَهُ.

والتّشبيهُ - اصطلاحًا - **الدّلالةُ على مُشاركةِ أمرٍ لأمرٍ في معنًى بإحدى أدوات التشبيه لفظًا أو تقديرًا؛ لغرضٍ يقصِدُه المتكلّم.**

فعندما تقول في وصْف فتاةٍ: «خدُّها كالوَرْد في الحُمْرة»، تكون قد دلَلْتَ على مشاركة «خدّها» للورْد في معنًى هو «الحُمْرة»، وقد تأتّى لك ذلك بوساطة أداةٍ موضوعةٍ لذلك هي «الكاف»، وقد فعلْتَ ذلك لبيانِ حال خدّها من حيث اتصافُه بالحمرة.

وعندما يقول الشاعر:

أنتَ مِثْلُ الغُصْنِ لِينًا وشَبِيهُ البَدْرِ حُسْنَا

يكون قد دلّ على مشاركة مخاطَبهِ لِلْغصن في اللّين والتثنّي (في صدْر البيت) وعلى مشاركته للبدْرِ في الحُسْن (في عجز البيت)، بوَساطة الأداة «مثل» في الأول، والأداة «شبيه» في الثّاني.

أركان التشبيه الأربعة:

لعلّكَ لاحظْتَ أنّ صِيغة التّشبيه في الأمثلة المتقدّمة تقوم على أربعة أركان هي:

١ ـ المشبَّهُ، وهو الأمرُ الأوّلُ الذي يُراد إلحاقُه بغيره.

٢ ـ المشبَّه به، وهو الأمرُ الثاني الذي يُلْحَق به المشبّه.

ويسمّى هذانِ طرفَي التّشبيه.

٣ ـ وجْهُ الشَّبَهِ، وهو المعنى المشترك بين الطرفين، ويكون في المشبّه به أقوى منه في المشبّه؛ وقد يُذْكَر في الكلام، وقد يُحْذَف.

٤ ـ أداةُ التّشبيه: وهي اللّفظ الذي يدلّ على التشبيه، ويتمّ به الرّبطُ بين المشبّه والمشبّه به؛ وقد تُذْكَر الأداةُ، وقد تُحذف.

ـ أنواع المشبَّه به:

يجوزُ حذْفُ الوجْه وبقاءُ الأداة، أو العَكْسُ بحذفِ الأداة وبقاء الوجه، كما يجوَزُ حذفُ الوجْهِ والأداةِ معًا. ومع حذْفِهما يأخذُ المشبّه به أحدَ الأنواع الآتية:

١ ـ أن يقع خبرًا للمشبّه كقولِكَ: «خالد بنُ الوليد سيفٌ امتشقَه الإسلامُ على أعدائه»، حيث تدّعي الاتحادَ بينَه وبين السّيف مبالغةً في تشبيهه بالسّيف في المضاء. وفي هذه الحالِ قد يُحْذَفُ المشبّه لِقرينةٍ تدلّ عليه، كقول الشاعر:

أسَدٌ عَلَيَّ، وفي الحُروبِ نَعَامةٌ فَتْخاءُ تنْفِرُ مِنْ صَفيرِ الصَّافِرِ

أي: هو أسدٌ. ومنه قوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: هم صمّ...

٢ ـ أن يقع خبرًا لِما دخل على المشبّه من النّواسخ، كقولِكَ: «إنّ أولادَنا أكبادُنا تمشي على الأرض»، وكقول البحتريّ:

بِنْتَ بالفضْلِ والعُلُوِّ فأصْبحْـ ـتَ سَماءً وأصْبحَ النّاسُ أرْضَا

فكلّ مِنْ (سماء وأرضا) هو المشبه به، ووقع كلّ منهما خبرًا لأصبح.

٣ ـ أن يقع حالاً من المشبّه، أو صفةً له، ـ والأولُ كقول الشاعر:

بدَتْ قَمَرًا، ومَالَتْ خُوطَ بانٍ وفاحَتْ عَنْبَرًا، ورَنَتْ غَزَالا

والثاني كقولك: «مررْتُ برجلٍ بَحْرٍ» و«فلانٌ رجلٌ أسدٌ».

٤ ـ أن يقع مضافًا للمشبّه، كما في قول الشاعر:

والرّيحُ تَعْبَثُ بالغُصونِ وقد جرى ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

فأصل التّعبير: «الماء المشبّه باللُّجَيْن»، حيث قُدِّمَ المشبّه به، ثم أضيف إلى المشبّه.

٥ ـ أن يقع مصْدرًا مبيّنًا لِنَوْع المشبّه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: مَرًّا كمرِّ السَّحاب في السّرعة. فالمشبّه هو المصدر المحذوف الذي كشف عنه المصدر المذكور، الذي هو المشبه به. وقال المعرّيّ:

هَرَبَ النّومُ عَنْ جفونِيَ فِيها هربَ الأمْنِ عن فؤادِ الجَبَانِ

أي: هرب هربًا كهَرَبِ الأمن.

٦ ـ أن يكون مُبيِّنًا بالمشبّه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: حتى يتبيّن لكم الفجْرُ كالخيطِ الأبيض؛ فالفجرُ مشبّهٌ بالخيْطِ الأبيض، وقد جاء بعد المشبّهْ مُبيّنًا له.

ومنه قول الشاعر:

فما زِلْتُ في لَيْلينِ: شَعْرٍ وظُلْمةٍ وشَمْسَيْنِ: مِنْ خَمْرٍ ووجْهِ حَبيبِ

شبّه الشاعرُ «الشَّعرَ» بـ «اللّيل» في السوّاد، لكنّه قدّم المشبّه به «اللّيل» على المشبّه «المشّعر» الذي أتى به بيانًا للمشبّه

شروط التشبيه:

يجعل البلاغيون شرْطًا للتشبيه الاصطلاحيّ وجوبَ ذِكْر الطرّفين: المشبّه والمشبّه به على وجْهٍ ينبىء عن التّشبيه، على نحوٍ لا يستقيم فيه المعنى إلّا بالحَمْل على التّشبيه، كما يشترطون لذلك أداةَ التّشبيه ملفوظةً أو مقدَّرةً.

ـ تقسيم طرفَي التشبيه:

يقسّم البلاغيون طرفي التّشبيه ثلاثةَ تقسيمات تبعًا لثلاثة جوانب يلحظونها في الطّرفين:

١ ـ مِنْ حيثُ حِسّيّةُ الطّرفين وعقليّتُهما.

٢ ـ مِنْ حيثُ إفرادُ الطّرفين وتركيبُهما.

٣ ـ مِنْ حيث تعدّدُ الطرفين أو تعدّد أحدِهما.

وإليك تفصيلَ القول في هذه التقسيمات:

أولّا: تقسيمُ الطرفين من حيث الحِسّيةُ والعقْلية:

ينقسم الطرفانِ تبعًا للحِسّية والعقلية على أربعة أقسام:

١ ـ أن يكونا حسّيّين أي مُدْرَكَيْن بإحدى الحواسّ الخَمْس الظاهرة، وهي: البصَرُ، والسّمْعُ، والشمّ، والذّوق، واللّمس. ويعني هذا أنّ الطّرفين يكونانِ من المُبْصَراتِ، أو المَسْموعاتِ، أو المشموماتِ، أو المَذُوقاتِ، أو الملموساتِ.

ـ فمن تشبيه مبصَرٍ بمبصرٍ قولُ الشاعر:

أنتَ مِثْلُ الغُصْنِ لِينًا وشَبِيهُ البَدْرِ حُسْنا

ـ ومن تشبيه مَسْموعٍ بمسموع قولُ ابنِ سَناء المُلْكِ في وصْف ساقية:

وسَاقِيَةٍ نَزَلْتُ بِهَا وإلْفي   أودِّعُهُ كتوديعِ المَروعِ
فصَوْتُ أنينِها يَحْكي أنيني   وفيضُ مِياهِهَا يحْكي دموعي

- ومن تشبيه مشمومٍ بمشمومٍ قولُك: «رائحتُه كرائحةِ العَنْبرِ وأَرِيجُهُ كأريجِ المِسْك».

- ومن تشبيه مَذُوقٍ بمذوق قولُكَ: «طَعْمُه كطَعْم التفّاح، ومذاقُه كمَذاقِ العسَل».

- ومن تشبيه ملموسٍ بملموس قولُ الشاعر:

لها بَشَرٌ مِثْلُ الحَرير ومَنْطِقٌ   رخيمُ الحَواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

وقول الشاعر:

أنْتِ كالوَرْدةِ لَمْسًا وشَذًا   جادَها الغيْثُ على غُصْنٍ نَضِرْ

٢ - أن يكونا عقْليّين، أي مدْرَكَيْن بالعقل، كقولِكَ: «العِلْمُ كالحَياةِ»، و«الجَهْلُ كالموتِ»، و «الضّلال كالعمى». فالطّرفان في كلّ من هذه الأمثلة إنما يُدْرَكانِ بوساطة العقْل؛ ووجهُ الشّبه في الأول «الأثرُ الجليل»، وفي الثّاني «فقدانُ النّفع»، وفي الثّالث «عدَمُ الاهتداء».

٣ - أن يكون المشبَّهُ عقليّا والمشبّه به حسيًّا، كقولهم: «العِلْمُ كالنُّور»، و«الجَهْلُ كالدَّيْجُورِ» [الظلمة]، و«الظُّلْمُ كالظُّلْمة»، و«خُلُقٌ كشذا المِسْك».

٤ - أن يكون المشبّه حسّيًّا والمشبّه به عقْليّا - كما في قول الشاعر:

وأرضٍ كأخْلاقِ الكريمِ قطَعْتُها   وقد كحّلَ اللّيلُ السِّماكَ فأبصَرَا

شبّه الشاعرُ الأرضَ - وهي حسيّة - بالخُلِق الكريم - وهو عقليّ - في الرّحابة والسَّعة. ويقول البلاغيون إنّ تشبيهَ المحسوس بالمعقول

إنما يقوم على أساس تقدير المعقول محسوسًا، وجعْلِهِ كالأصْل لذلك المحسوس على طريق المبالغة.

ومن هذا الضرب قولُ الشاعر:

وفتكْتَ بالمَالِ الجزيلِ وبالعِدا، فتْكَ الصَّبابةِ بالمُحِبِّ المُغْرَمِ

فقد شبّه الفتْكَ بالمال الجزيل وبالعِدا، وهو أمرٌ حسّي، بفتك العِشْق بالعاشق، وهو أمر عقليّ.

الحِسّيُّ الخياليّ، والعقليّ الوَهْميّ والوِجْدانيّ:

لاحظ البلاغيون أنّ من المشبّه والمشبّه به ما لا يُدْرَكُ بالحسّ ولا بالقوة العاقلة، كالخياليّات والوهميّات والوجدانيّات، ومن ثم توسّعوا في تفسير الحسّيّ والعقليّ بحيث يشملانها. فأدخلوا في الحسّي «الخياليَّ» وهو الشيءُ المعدوم الذي ركّبَتْهُ المخيّلةُ من أمورٍ مُدْرَكةٍ بالحسّ كما في قول الصَّنَوْبَرِيّ:

وكأنّ مُخمرَّ الشقيـ ـقِ إذا تصوّبَ أو تصعّدْ
أعْلامُ ياقوتٍ نُشِرْ نَ على رِماحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

فالشّاعر هنا يشبّه هذا الزهرَ الأحمر حالَ تثنّيه سُفْلًا وعُلْوًا بهيئة أعلامٍ من ياقوتٍ منشورةٍ على رماحٍ من زبرجد. وجليٌّ أنّ كلًّا من العَلَمَ والياقوت والرّمح والزبرجد محسوسٌ لكنّ المركّبَ الذي تشكّلهُ هذه الأمور مجتمعةً ليس محسوسًا؛ لأنّه ليس بموجود، والحِسّ لا يدرِكُ إلّا ما هو موجودٌ في المادّة حاضِرٌ عند المُدْرِك على هيئةٍ مخصوصة.

فالحسيُّ إذًا ما يُدْرَك بذاتِه أو بمادّته بإحدى الحواسّ الخمْس، وبذلك يشمَل الخياليّ. كما أدخلوا في العقليّ «الوَهْميَّ»؛ وهو ما لا يُدْرَك هو ولا مادّته بإحدى الحواسّ الظاهرة لِعَدمِ وجوده خارجًا،

ولكنّه لو وُجد لم يُدْرَكْ إلّا بها. ويخترعه الوَهْمُ من عند نفسِه من غير أن يكون له، ولا لمادّته، وجودٌ في الخارج. ومنه قولُ امرىء القيس:

أيَقتُلني والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعي ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ

ومنه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه في شجرة الزّقّوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. وواضِحٌ أن أنيابَ الأغوالِ ورؤوسَ الشياطين لم توجدْ هي ولا مادّتها، بل هي من اختراعات الوَهْمِ وافتراضاته كما يقول البلاغيون، والله أعلمُ بمُراده.

وأدخل البلاغيون في العقْليّ أيضًا «الوِجْدانيَّ»، وهو ما يُدْرَكُ بالقوى الباطنة، كاللّذة والألم، والفرح والغضب، والعطش والجوع، والرِّي والشِّبَع، وما شاكل ذلك من الحالات التي لا يُدرِكها الحسُّ الظاهريّ، ولا العقلُ الصِّرْفُ الذي لا يستند إلى حسّ باطنيّ، وإنما تُدْرَكُ بإحساسٍ باطنيّ؛ كأنْ يشبّه الجائعُ ما يُحِسُّه من ألَمِ الجوع بالموت، أو أن يشبّه الظّامىءُ ما يجده من وهج العطش بالنّار.

ثانيًا: تقسيمُ الطرفين من حيث إفرادُهما وتركيبهما:

وينقسم الطرفان تبعًا للإفراد والتركيب على أربعة أقسام:

١ ـ أن يكونا مفردَيْن، وهذانِ إمّا أن يكونا مطْلَقين عن التّقييد بنحْوِ وصْفٍ، أو إضافة، أو حالٍ، أو مفعول، أو ظرْفٍ، أو غير ذلك، أو يكونا مقيّدَيْن بشيء من ذلك، أو يكون أحدهما مقيّدًا، والآخر مطلَقًا. فالمفردان المطلقان كقولك: ضوءُه كالشّمسِ، وخدُّهُ كالورْدِ، وثغرُهُ كالدُّرّ.

والمفردان المقيّدانِ كقول الشاعر:

إنّي وتزْييني بِمَدْحِيَ مَعْشَرًا كمُعلِّقٍ دُرًّا على خِنْزيرِ

شبّه الشاعرُ نفسَه مقيَّدًا بعملٍ خاصّ هو مدْحُه مَنْ ليسوا أهلًا

للمدح، بمعلَّقٍ مقيَّدٍ بعمل خاصّ، وهو تعليقه دُرًا على خنزير، أي تعليق شيءٍ نفيسٍ بعُنقِ مخلوق خسيسٍ غير قابل للزينة. وواضح هنا أن المشبَّه مقيّدٌ بحالٍ والمشبّهَ به مقيّدٌ بمفعولٍ وجارّ ومجرور، والمعنى المشترك بينَ الطرفين (وجه الشبه) هيئةُ مَنْ يضع الشيء في غير محلّه.

والمشبّهُ المطلَقُ والمشبّه به المقيّدُ كقول الشاعر:

والشّمسُ كالمِرْآةِ في كفّ الأشَلْ لـمّـا رأيـتُـهـا بَـدَتْ فـوقَ الـجـبـلْ

شبّه الشاعر «الشّمسَ» بالمرآةِ في يدِ شلّاء، والمشبّهُ (الشّمس) مطلقٌ عن التّقييد بشيءٍ، أمّا المشبّه به (المرآة) فمقيّدٌ بكون المرآة في يدِ شلّاءَ.

والمشبّهُ المقيّدُ والمشبّه به المطلق كقولِكَ: «صَمْتُ الأحْمق بلاغةٌ ونَوْمُ العالِم عِبادةٌ». فقد شبّهتَ «الصّمتَ» مقيّدًا بإضافته إلى الأحمق بالبلاغةِ مطلقةً، وشبّهتَ «النّومَ» المقيّد بإضافته إلى العالِم بالعِبادة مطلقةً.

٢ ـ أن يكونا مركّبين ـ وذلك بأن يُقْصَدَ إلى عدّة أشياء مختلفة في كلّ من الطَّرفين، ثم تُنتزع منها هيئتان تُجعَل إحداهما مشبّهًا والأخرى مشبّهًا به في هيئة تعمّهما، وذلك كقول بَشّار:

كـأنّ مُـثـارَ الـنَّـقْـعِ فـوقَ رؤوسِـنـا وأَسْـيـافَـنَـا لَـيْـلٌ تـهـاوىٰ كـواكِـبُـهْ

شبّه بشّارُ الهيئةَ المنتزعةَ من صُورة السّيوف التي يتطاير منها الشّررُ وتتألّقُ في حرَكةٍ سريعةٍ مختلفة الاتجاهات وتأخذ أشكالاً متناسبة، وهي تمْخَرُ غُبارَ الحرْب الذي انعقد فوق رؤوس المقاتلين، بالهيئة المنتزعةِ من النُّجوم المتساقطة إلى جهات مختلفة في جِنْح اللّيل المظلم. وهكذا فالمشبّه مركّبٌ من النّقْعِ المُثار فوق الرؤوس، ومن السّيوف اللّامعة المتضاربة في أثنائه؛ والمشبّه به مركّبٌ من اللّيل

المظلم، ومن الكواكب المتهاوية فيه. وهذا من التشبيهات التي أعْلَتْ منزلةَ بشّار، وجعلته من المجوّدين في هذا الفن.

ومنه قولُ الشاعر:

كأنّ سُهَيلاً والنّجومُ وراءَه ـ صُفوفُ صَلاةٍ قامَ فيها إمامُها

شبّه الشاعرُ هيئةَ سُهَيلٍ وقد تقدّم النّجومَ واصطفّتْ هي وراءه بهيئة صفوفٍ من المصلّين يتقدّمهم إمامُهم، فالمشبّه مركّب من سُهَيلٍ ومن النجومِ وراءه؛ والمشبّهُ به مركّبٌ من صفوف المصلِّين ومن الإمام الذي قام فيها.

وهذا الضّرْبُ نوعانِ: نوعٌ يصِحّ فيه تشبيهُ كلّ جزء من أجزاء أحدِ طرفَيْه بما يقابلُه من أجزاء الطّرف الآخر، وذلك حين يكون ثمة تناظرٌ بين الأجزاء المكوِّنة لكلّ من الطّرفين. ونوع لا يصحّ فيه تشبيهُ كلِّ جزءٍ من أجزاء طرفَيْه بما يقابلُه من أجزاء الطرف الآخر؛ لغياب التّناظر بين الأجزاء المكوِّنة لكلّ من الطرفين.

فمِمّا يصِحّ فيه تشبيهُ أجزاء الطّرف الأوّل بما يقابلها من أجزاء الطّرف الثاني تشبيهُ بشّار في البيت السّابق، حيث يشبّهُ النّقعُ باللّيل، وتشبَّه السّيوفُ بالكواكب. لكنّ غرض الشّاعر لم يتعلّق بالتّشبيه على هذه الصّورة، بل قصَدَ إلى تشبيه الهيئة بالهيئة؛ ممّا نشأ عنه هذه الروعةُ في التّصوير والقوةُ في التّمثيل.

وممّا لا يصِحّ فيه تشبيهُ كلّ جزء من أجزاء الطّرف الأول بما يقابله من أجزاء الطرف الثاني قول الشاعر:

كأنّما المِرّيخُ والمُشْتَري قُدّامَهُ في شامخِ الرِّفْعَهْ
مُنْصَرِفٌ باللّيلِ عن دَعْوةٍ قدْ أُسرِجتْ قُدّامَهُ شمْعَهْ

فالشّاعرُ هنا يشبّه الهيئةَ المنتزعة من المرّيخ والمشتري أمامه يتألّق

بهيئةِ شخص منصرفٍ ليلاً عن دعوةٍ وتتألّق أمامه شمعةٌ مضيئة. وواضحٌ أنّ كلاّ من الطرفين مركّبٌ من أشياءَ مختلفة، ولكنّنا لا نستطيع أن نقابل بين أحد أجزاء الطّرف الأول بما يقابله من أجزاء الطّرف الثّاني، فلا نستطيع مثلاً أن نقول: المرّيخ كمنصرفٍ باللّيل عن دعوةٍ، فذلك ضربٌ من السّخف لا نُحسَد عليه.

٣ ـ أن يكون المشبّهُ مفردًا والمشبه به مركّبًا، ومثلهُ قولُ الصّنوبريّ المتقدّم:

وكأنّ محمرَّ الشّقيق ـ إذا تصوّبَ أوْ تصعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْ نَ على رِماحٍ مِنْ زبرجَدْ

جاء المشبّهُ «محمرّ الشقيق» مفردًا مقيّدًا بحالٍ، وجاء المشبّه به مركّبًا من أعلام الياقوت ورِماح الزّبرجد، أي هيئة أجْرامٍ حُمْرٍ مبسوطةٍ على رؤوس عِيدانٍ خُضْرٍ مستطيلة.

ومن هذا القبيل قولُ الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وإنّ صَخْرًا لَتَأْتمُّ الهُداةُ به كأنّه عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

جاء المشبّه «صخرًا» مفردًا، وجاء المشبّهُ به مركّبًا من العَلَم (الجبل) ومن النّار في رأسه.

٤ ـ أن يكون المشبّهُ مركّبًا والمشبّهُ به مفردًا، ومِثْلهُ قولُ الشاعر:

لا تعْجَبُوا مِن خالِهِ في خَدِّهِ كلُّ الشَّقيقِ بنُقْطةٍ سَوداءِ

جاء المشبّهُ مركّبًا من الخَال والخدّ، وجاء المشبّه به مفردًا، وهو «الشقيق». ومن هذا القبيل قولُ أبي تمّام:

يا صاحِبَيَّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تَرَيَا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصَوَّرُ
تَرَيَا نَهارًا مُشْمِسًا قد شابَهُ زهْرُ الرّبا، فكأنّما هُوَ مُقْمِرُ

شبّه أبو تمام هيئةَ النهار المشرق الذي خالطه زهرُ الرّبا فقلّل من

إشراقه، بليلٍ أضاءه نورُ القمر. وواضحٌ أنّ المشبّهَ هيئةٌ مركّبة من النّهار وضِياءِ الشمْس والزّهْر النّابت في الرّبا، أمّا المشّبه به فقد جاء مفردًا مقيدًا بصفة (ليل مقمر).

تحديدانِ مهمّان:

١ ـ يُراد بالقَيْد الذي يقيَّد به أحدُ الطرفين أو كِلاهما ما يكونِ له دخلٌ في وجه الشّبَه، حيث لا يتمّ التشبيهُ من دونه ـ فتشبيه الشّمس بالمرآة في كفّ الأشلّ ينطوي على مشبّه مفردٍ هو «الشّمس» ومشبّه به مقيّد هو «المرآة في كفّ الأشلّ»، وقيدُ «كون المرآة في يد شلّاء» له دخلٌ في وجه الشّبه؛ لأنّ وجْهَ الشّبه هو الهيئةُ الحاصلةُ من الاستدارة، والحركةِ السّريعة المتّصلة، والإشراقِ المتموِّج. وهذا المعنى لا يتأتّى، ولا يستقيم دون ملاحظة هذا القيد. وكذا الحالُ في تشبيه السّاعي المخفِق بِمَنْ يرْقُمُ على الماء؛ حيث تجب ملاحظةُ القيد في كلٍ من المشبّه والمشبّه به: السّاعي المقيّد بالإخفاق كالرّاقم المقيّد بكَوْنِ رَقْمِه (كتابته) على الماء. لأنهما يؤثّران في وجه الشبه الّذي هوَ المساواةُ بين الفعلِ وترْكِهِ في كون النتيجة سَلْبًا. وعلى هذا فالمرادُ بالقيد ما كان له تعلّقٌ بوجه الشّبه أو تأثيرٌ في تكوينه.

٢ ـ الفرْقُ بين الطّرف المفردِ المقيّدِ بقَيْد والطَرفِ المركّب أنه في المركّب تكون الأجزاءُ كلُّها مقصودةً بذاتها في التّشبيه، أمّا في الطّرفِ المفردِ المقيّدِ فإنّ المقصودَ بذاته في التّشبيه هو أحدُ أجزاء الطّرف، وما عداه تَبَعٌ له ولاحق.

ثالثًا: تقسيم الطّرفين من حيث تعدّدُهما أو تعدّدُ أحدِهما:

ينقسم طرفا التّشبيه تبعًا لتعدّدهما، أو تعدّد أحدهما على أربعة أقسام، على نحو يصِحّ معه تقسيمُ التّشبيه من هذه الوجهة على هذه الأقسام الأربعة:

١ ـ التّشبيهُ الملفوفُ ـ واللّفُّ هنا الضَّمُّ، ومعناه أن يتعدّد الطرفانِ، ويُجْمع كلّ طرفٍ مع مثله: المشبّه مع المشبّه، والمشبّه به مع المشبّه به ـ حيث يُؤتى بالمشبَّهات أولاً بطريقِ العَطْفِ أو غيره، ثم بالمشبهات بها كذلك ـ وقد يُعْكس الأمرُ بأن يُؤتى بالمشبّهات بها أولاً بطريق العَطْف أو غيره، ثم بالمشبّهات على هذا النحو.

ومن تعدّد الطرفين ومجيئهما معطوفَيْن قولُ امرىء القيس يصِفُ عُقابًا بكثرة اصْطياد الطّيور:

كأنّ قلوب الطّير رطْبًا ويابسًا لدى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

شبّه الشّاعرُ قلوبَ الطّيرِ الرّطْبةَ بالعُنّاب في الشكل والمقدار واللون، وشبّه قلوب الطير اليابسةَ بالحَشَفِ البالي في هذه الأمور الثّلاثة. وقد جاء المشبّهُ متعدّدًا: قلوبُ الطّيْر الرَّطْبةُ + قلوبُ الطّير اليابسة. وجاء المشبّهُ به متعدّدًا أيضًا: العُنّاب + الحَشَفُ البالي. وقد جمع المشبّهين في صدْرِ البيت على طريقِ العَطْف، كما جمَعَ المشبّهين بهما في عَجُزِ البيت.

ومن تعدّد الطرفين غير معطوفين قولُكَ: «والِدَاكَ القَمَرانِ»، و«ضَيْفَاكَ الأسَدانِ»، و«أخوَاكَ البَحْرانِ»؛ حيث تعدّد المشبّهُ والمشبّهُ به دون عطْف.

ومن عطْفِ أحدهما دون الآخر قولُك: «أبُوكَ وأمُّكَ القَمَرانِ»، و«والِداكَ الشمسُ والقمرُ». في المثال الأول جاء المشبّهُ معطوفًا «أبوك وأمّك»، وجاء المشبّهُ به غيرَ معطوف. وفي المثال الثاني جاء المشبّهُ غيرَ معطوفٍ «والداكَ» وجاء المشبه به معطوفًا «الشمس والقمر».

وقد يُؤتى بالمشبَّهات بها أولاً بطريق العَطْف أو غيره، ثمّ بالمشبَهات على هذا الطريقِ أيضًا. تقول: «كاللّيلِ والبَدْرِ والغُصْنِ شَعرُ سُعادٍ ووَجْهُها وقَدُّها». جاءت المشبّهاتُ معطوفة «شعرُ سعادٍ ووجُهها

وقدِّها»، وكذا جاءت المشبهات بها «اللّيل والبدر والغصن»، لكنه قدّم المشبّهات بها. ومن عطف أحدهما دون الآخر قولك: «كالقمرَيْنِ ليلى وسُعاد» و«كالأسد والبحر صَدِيقاكَ». ففي المثال الأول جاء المشبه معطوفًا «ليلى وسعاد» وجاء المشبّه به غير معطوف «القمرين» وقدّم المشبه به. وفي المثال الثاني جاء المشبّهُ غيرَ معطوفٍ «صديقاك» وجاء المشبه به معطوفًا «الأسد والبحر» وقدّم المشبه به.

٢ ـ التّشبيهُ المفروق ـ وهو أن يُجمع كلُّ مشبّهٍ مع ما شُبِّه به في عدد من التّشبيهات يتعدّد فيها الطّرفان، ولكن يفرَّق فيها بين المتماثلات: المشبّهات أو المشبّهات بها ـ عكس السّابق. ومنه قول ابن سُكَّرة:

الـخـدُّ وَرْدٌ والـصُّـدْغُ غـالـيـةٌ   والـرِّيـقُ خـمـرٌ والـثّـغـرُ كـالـدّرَرِ

الصُّدغ: الشّعَر المنسدل على الخدّ. والغالية: أخلاطٌ من الطِّيب.

وقال الشاعر:

إنّـمـا الـنـفسُ كـالـزّجـاجـةِ والـعِلْـ   ـمُ سِـرَاجٌ، وحِـكـمـةُ الله زَيْـتُ
فـإذا أشـرقـتْ فـإنّـكَ حـيٌّ   وإذا أظـلَـمَـتْ فـإنّـكَ مَـيْـتُ

٣ ـ تشبيهُ التسوية ـ وهو أن يسوَّى بين المشبّهات في إلحاقها بشيء واحد، وذلك بأن يتعدّد المشبّه دون المشبّه به. ومنه قولُ الشاعر:

صُـدْغُ الـحـبـيـبِ وحـالـي   كِـلاهُـمَـا كـالـلّـيـالـي
وثـغْـرُهُ فـي صـفـاءٍ   وأدمـعـي كـالـلآلـي

ففي البيت الأوّل شبّه الشّاعرُ صدْغَ حبيبه وحالَه باللّيالي في السّواد، وفي البيت الثّاني شبّه ثغْرَ حبيبه وأدمعَه باللآلىء في الصّفاء

والتألّق. وهكذا يكون قد سوّى بين المشبّهين بأن ألحقهما بشيءٍ واحد وشبّههما به.

٤ ـ تشبيهُ الجَمْع ـ وهو أن يُجمع بين شيئين أو أكثر في مشابهةِ شيءٍ واحدٍ، وذلك بأن يتعدّد المشبّه به دون المشبّه. ومنه قولُ البحتريّ:

باتَ نديمًا لِيَ حتّى الصَّباحْ أغيدُ مَجدولُ مكانِ الوِشَاحْ
كأنّما يَبْسِمُ عَنْ لُؤلُؤٍ مُنضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاحْ

شبّه الشاعرُ في البيت الثّاني ثغْرَ محبوبه بثلاثة أشياء: اللؤلؤ المنضّد، والبَرَد، والأُقحوان، وهو نَوْرٌ طيّبُ الرائحة، وأوراقُه تشبه الأسنان. وبيّنٌ أنّ المشبّهَ شيءٌ واحد «الثّغر» والمشبّه به متعدّد.

ومثلُه قولُ الشاعر:

ذاتُ حُسْنٍ لَوِ استزَادَتْ مِنَ الحُسْـ ـنِ إليهِ لَمَا أصابَتْ مَزِيدا
فَهِيَ الشّمسُ بَهْجةً والقضيبُ الـ ـلدْنُ قَدًّا والرِّيمُ طَرْفًا وجِيدا

فقد شبّه الشّاعرُ، في البيت الثّاني، هذه المرأةَ بثلاثة أشياء: الشّمس والقضيب والريم ـ ومن ثَمّ فالمشبّه شيءٌ واحد والمشبَه به متعدّد.

وجهُ الشّبه:

ـ تعريف وجه الشّبه:

وجْهُ الشّبهِ هو المعنى الذي اشترك الطرفانِ فيه، كالكَرَم في قولِكَ: «محمّدٌ كحاتِم»، والشّجاعةِ في قولِكَ: «زيدٌ كالأسَدِ»، والرّزانةِ في قولِكَ «حِلْمُه كالجَبَل». وعندما عنّ لامرىء القيس أن يصوّر اندفاع فرسه قال:

مِكَرٍّ مِفَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كجُلمودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

أي إنّ هذا الفرسَ يَشْرَكُ جُلمودَ الصّخر الذي قذَف به السّيلُ من علٍ في معنًى خاصٍّ هو الاندفاعُ و«سرعة الهُوُيّ».

ويجعل علماءُ البلاغة شرْطًا أساسيًّا لوجه الشّبه أن يكون له مزيدُ اختصاصٍ بالطّرفين في قصْد المتكلّم، ليفيد التّشبيه فائدته المرجوّة.

ـ تقسيماتُ وجْهِ الشبه:

أولًا : التّحقيقيّ والتخييليّ: وإليك تفصيلَ القول في كلّ منهما:

١ ـ وجْهُ الشبّه التحقيقيّ:

وهو ما يكون قائمًا بالطّرفين حقيقةً؛ أي إنّه وصْفٌ موجودٌ فيهما وجودًا حقيقيًا. تقول: «وجهُ ليلى كالبَدْرِ، وشعرُها كاللّيل، وقَدُّها كالغُصْن». وواضحٌ أنّ وجه الشبه بين الطّرفين هو «الإشراق» في الأوّل، و«السّواد» في الثّاني، و«الاعتدال» في الثّالث. وهذه المعاني الثّلاثة قائمةٌ بالطّرفين على سبيل الحقيقة.

٢ ـ وجْهُ الشبه التخييلي:

وهو ما لا يكون قائمًا بالطّرفين، أو بأحدهما، إلا تخيُّلًا؛ بمعنى أنّ الخيالَ يفترضه من عنده بِجَعْله غيرَ المحقَّق محقَّقًا. وممّا جاء فيه الوجه متخيَّلًا في المشبّه ومحقَّقًا في المشبّه به قولُك: «سِيرَةُ محمّدٍ كالمِسْكِ»، و«أخلاقُه كنَفْح الطِّيبِ». ووَجْهُ الشّبه في المِثالين هو «الرائحة الطّيبة»، وهي قائمةٌ في المشبّه به تحقيقًا وفي المشبّه تخييلًا؛ فإنّه قد شاعَ عند النّاس وصْفُ كلٍّ من «السِّيرة» و«الأخلاق» بالطّيب مبالغةً، حتى خُيِّل أنهما من ذواتِ الرائحة الطيّبة. ومختصرُ القول أنّ وجْهَ الشّبه «الرائحة الطيّبة» متخيَّلٌ في المشبَّه تَخَيُّلًا في المِثالَيْن.

ومثالُ ما جاءَ فيه الوجهُ متخيَّلاً في المشبّه به ومحقّقًا في المشبه قولُ الشاعر:

يـا مَـنْ لَـهُ شَـعَـرٌ كـحَـظـيَّ أَسْـودُ   جِـسْـمي نـحِـيلٌ مِنْ فِراقِك أصْفَرُ

فإنّ وجْهَ الشبه بين الشعر والحظّ هو «السّواد». وهو قائمٌ في المشبّه تحقيقًا وفي المشبّه به تخييلاً؛ فقد شاع وصْفُ الحظّ العاثر بالسّواد مبالغةً، حتى تُخيِّل أنّه من ذوات اللّون الأسود. ومهما يكن، فإنّ وجه الشبه «السّواد» متخيَّلٌ في المشبّه به تخيّلاً.

قال الشيخ عبدُ القاهِر الجُرجانيّ: «ومِمّا هو حسَنٌ جميلٌ من هذا الباب قولُ الصّاحب كتبَ به إلى القاضي أبي الحسَن: رُوِي عن القاضي أنه قال: «انصرفْتُ عن دارِ الصّاحب قُبيلَ العيدِ فجاءني رسولُه بعِطْرِ الفِطْر ومعَه رُقْعةٌ فيها هذانِ البيتان:

يـا أيُّـهـا الـقَـاضـي الّـذي نَـفْـسي لـه   مـعَ قُـرْبِ عَـهْـدِ لِـقـائِـه مُـشْـتـاقَـهْ
أهْدَيْتُ عِطْرَ مِثْلَ طِيبِ ثَنائِه   فـكـأنّـمـا أهْـدي لَـهُ أخْـلاقَـهْ

وكونُ هذا التّشبيه مِمّا نحن فيه من أوضح ما يكون؛ فليس بخافٍ أنّ العادة أن يشبّه الثناءُ بالعِطْر ونَحْوِه ويُشْتَقّ منه، وقد عكَس، كما ترى، وذلك على ادّعاء أنّ ثناءه أحَقُّ بصِفةِ العِطْر وطيبه من العِطْر وأخصُّ به وأنّه قد صار أصْلاً حتّى إذا قِيسَ نوعٌ من العِطْر عليه فقد بُولغ في صفته بالطّيبِ، وجُعِل له في الشّرف والفَضْل على جِنْسه أوفرُ نصيب».

ومن هذا القَبيلِ قولُ القاضي التّنُوخِيّ:

رُبَّ لَـيْـلٍ قَـطَـعْـتُـهُ بِـصُـدودٍ   وفِـراقٍ مـا كـانَ فـيـهِ وَداعُ
مُوحِشٍ كـالـثّـقـيـلِ تَـقْذى به العيْـ   ـنُ وتـأبـى حـديـثَـهُ الأسْـمـاعُ
وكـأنّ الـنُّـجـوم بَـيْـنَ دُجَـاهُ   سُـنَـنٌ لاحَ بـيـنَـهُـنَّ ابـتِـداعُ

والشاهدُ هنا ما جاء في البيت الأخير من تشبيه النّجوم بين ظُلْمة اللّيل بالسّنن التي لاح بينها ابتداع. ووجْهُ الشّبه في هذا التّشبيه هو الهيئةُ الحادثةُ من حصول أشياءَ بيضٍ مشْرقةٍ في جوانب شيءٍ مظلم أسود، وهذه الهيئةُ موجودةٌ في المشبّه تحقيقًا وغيرُ موجودة في المشبه به إلّا على طريق التخييل؛ ضرورةَ أنّ «الإشراق» ـ لِكَوْنه حِسّيًا ـ لا تتصف به السُّنّة لأنها أمرٌ عقليٌّ، وأنّ «الإظلام» ـ لكونه حسيًا أيضًا ـ لا تتصف به البِدْعة لأنّها أمرٌ عقليّ كذلك؛ وهكذا فوجْهُ الشبّه غيرُ موجودٍ في المشبّه به إلّا على طريق التخيّل والتوهّم بافتراض غير الحاصل حاصلاً.

أمّا كيف حدث هذا التخيّلُ والتوهّم فيقول علماء البلاغة إنه لمّا كانت البِدْعةُ، وكلُّ ما هو ضَلالٌ، مِمّا يجعل صاحبَه كمن يمشي في الظّلام، فلا يهتدي إلى طريق النّجاة، شُبِّهت البِدْعةُ بالظّلمة وشاع وصفُها بها، وكان من أثر هذا الشيوع أن تُخُيِّل أنّ البدعةَ من الأجْرام ذوات اللّون الأسود ـ كما تُخُيِّل الكفرُ من الأجرام التي لها سوادٌ في قولهم: «شاهدتُ سوادَ الكُفْرِ في جبينِ فلان» ـ ولَزِم بطريق العكس أن تُشبَّه السُّنّةُ، وكلُّ ما هو هدى، بالنور، وشاع وصْفُها به حتى تُخُيِّل أنّ السّنّةَ من الأجرام ذوات اللّون الأبيض المُشْرق ـ كما تُخيّلت الشريعةُ الغرّاءُ من الأجرام التي لها بياضٌ في قوله ﷺ: «أتيتُكم بالحَنِيفيّة البيضاءِ ليْلُها كنهارِها» ـ فبسببِ هذا التخيُّل، واعتدادِ ما ليس بمتلوّنٍ متلوّنًا صحَّ تشبيهُ النّجوم بين الدّجى بالسّنن بين الابتداع ـ وصار واضحًا جليًا.

الأساسُ في تشبيه المحسوس بالمعقول:

واضحٌ أنّ الأمثلة الثلاثة الأخيرة من قبيلِ تشبيه المحسوس بالمعقول، ويقرّر علماءُ البلاغة أنّ تشبيه المحسوس بالمعقول لا يجوز إلّا إذا تخيّلنا المعقولَ محسوسًا، وافترضناه أصْلاً في وجه الشّبه يُقاس به المشبّهُ مبالغةً. ومن ثمّ فإنّه في بيت التّنوخي كان علينا أن نتخيّل غيرَ المتلوّنِ (السّنن ـ الابتداع) أصْلاً للمتلوّن الحقيقيّ؛ فنتخيّلَ «السّنن»

في هذا المثال أصْلاً في البياضِ نقيس عليه، و«البِدَع» أصْلاً في السّواد نقيس عليه كذلك.

طبيعةُ وجودِ وجْه الشّبه في الطّرفين:

ينبّه عُلماءُ البلاغة في هذا الشأن على أمرين:

الأوّل: وجوب وجود وجه الشّبه في الطّرفين تحقيقًا أو تخييلاً:

فإذا لم يوجد في الطّرفين على واحدةٍ من هاتين الصّفتين لم يصِحّ جعْلُه وجهَ شبهٍ. ويمثّل علماءُ البلاغة لذلك بقولهم: «النّحْوُ في الكلامِ كالمِلْح في الطّعام». وجليّ أنّ هذا تشبيهٌ طرفاه النحوُ مقيّدًا بكونه في الكلام والمِلْحُ مقيّدًا بكونه في الطعام. وقد ذهب بعضُهم إلى أنّ وجه الشبه في هذا التشبيه هو «كونُ القليلِ مُصْلِحًا والكثيرِ مُفْسِدًا»، لكنّنا حين نلتمس وجودَ وجه الشبه هذا في الطّرفين نلحظُ أنّه غيرُ موجودٍ في المشبّه لا تحقيقًا ولا تخييلاً وإن كان موجودًا في المشبّه به. فالنّحْوُ في الكلام لا يحتمل قِلّةً ولا كثرةً، بل هو عبارةٌ عن مراعاةِ قواعدَ وأحكام تحقُّقُها يُصْلِح الكلامَ والإخلالُ بها يُفسِده. أمّا المِلْحُ فيحتمل القلّة والكثرة؛ إذ القليلُ منه مُصْلِحٌ والكثير مفِسد. ولأنّ «كونَ القليل مصْلِحًا والكثير مفسدًا» غيرُ متحقّق في كلا الطرفين لا تحقيقًا ولا تخييلاً لم يصحّ جعلُه وجهَ شبه في هذا التشبيه. وإنّ وجه الشبه الصحيح في هذا التشبيه هو «الصّلاحُ إذا استُعملا والفسادُ إذا أُهمِلا»؛ ذلك أنّه المعنى الذي يشترك فيه الطّرفان حقيقةً.

الثاني: جوازُ كونِ وجْهِ الشّبه في أحد الطرفين ادّعائيًا وفي الآخر حقيقيًا:

من تصرّفاتِ العرب في كلامهم أن يقولوا للجَبان الرِّعديد: **«هو أسَدٌ»** وللبخيل الشَّحيح: **«هُوَ حاتِمٌ»**. وغيرُ خافٍ أنّ وجه الشبه بين الطّرفين هو «الشجاعةُ» في المثال الأول، و«الجُودُ» في المثال الثاني. ويقول علماءُ البلاغة إنّ الشّجاعة في الجَبان، والجودَ في البخيل أمرانِ

ادّعائيان لا محالة. ولكن كيف تمّ ذلك فتجرّأ المتكلّمون على قَوْلِ ما يُخيِّل للمرء أوّلَ وهلة أنه متناقض؟

يقول علماءُ البلاغة إنّ أساس ذلك أنْ يُنزَّل التضادُ بين الطرفين المتضادّين منزلةَ التناسب بينهما، وأن يُبْرَز الخسيسُ في صورة الشّريف، وبذلك يُجعل «الجُبْنُ» مثلاً بمنزلة «الشجاعة» و«البُخْلِ» بمنزلة «الجُود»، ويُعَدّ الجبانُ شجاعًا، والبخيلُ جوادًا. وبناء على هذا التأويل صار صحيحًا أن يكون وجْهُ الشبه في المثال الأول «الشّجاعة» وفي الثاني «الجود»، وغدا واضحًا اشتراكُ الطّرفين في الوجه. ويسمّي البلاغيون هذا الضرب من التّشبيه «تشبيه التضادّ».

لكنّ تنزيلَ التضادّ منزلةَ التناسب ليس أمرًا اعتباطيًا بل لا بدّ له من داعٍ يدعو إليه في مقاصد المتكلّم. وعلى الجملة فإنّ البلاغيين يجعلونَ لتنزيلِ التّضادّ منزلةَ التّناسب واحدًا من غرضين:

١ ـ التهكّم والسّخرية، إذ قد يقول المتكلّم لجبانٍ مُولّي الدُّبُرِ في المعركة «إنّكَ نظيرُ الأسَدِ»، وهو يفعل ذلك متهكّمًا ساخرًا.

٢ ـ التظرّف والتّمليح، كأنْ يقولَ الصّديقُ عن صديقه البخيل: «حاتِمُ الطّائي»، أي أنتَ كحاتم.

أمّا كيف يُفرَّق بين الغرضين فمرجِعُ ذلك إلى المَقامِ الذي يُقال فيه الكلام وقصْدِ المتكلّم من كلامه.

ثانيًا: وجْهُ الشّبه المفرد، أو المركّب، أو المتعدّد وإليكَ تفصيل القول في كلّ منهما.

١ ـ وجه الشّبه الواحد:

وهو ما لا تركُّبَ فيه ولا تعدّد، كالحُمْرة في قولكَ: «خدُّهُ كالوَرْدِ»، والسّوادِ في قولكَ: «شعَرُ هِند كاللّيلِ»، والحلاوة في قولِكَ: «مذاقُهُ كالعَسَلِ».

٢ ـ وجه الشّبه المركَّب المنزّل منزلةَ الواحد:

وهو ما كان هيئةً انتزعها العقلُ من عدّة أمور؛ ويكون ذلك بأنْ يعَمِد المتكلّمُ إلى مجموعة أوصافٍ لشيئين، فينتزع منها هيئةً يشترك فيها طرفا التّشبيه، ولا يصلح واحدٌ من أجزائها على انفراده وجهَ شبَهٍ، وعلى نحْوٍ يُخِلّ فيه سقوطُ واحدٍ من أجزائها بالتّشبيه.

ومثالُ التشبيه ذي الوجه المركَّب المنزّل منزلةَ الواحد قولُ بشّار:

كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا وأسْيَافَنَا ليلٌ تهاوى كواكِبُهْ

فوجهُ الشبّه هنا هو مجموعُ الهيئةِ المنتزعة من تساقط أجْرام مشرقةٍ مستطيلةِ الأشكال، متناثرةٍ في جوانب شيء مظْلم. ولا يأذنُ العُرفُ البلاغي بأن يُجْعَل واحدٌ من أجزاء هذه الصورة وجهَ شبهٍ، لأن الشاعر قصد جعْلَ الطرفين مشتركين في هذه الهيئة الملتئمة، وكذا لا يصحّ استبعادُ واحدٍ من أجزاء هذه الصورة؛ لأنّه لا يُنظر إليها إلّا بوصفها هيئةً متضامّةَ الأجزاءِ.

ومثلُه قول الشاعر:

والبَدْرُ في كَبِدِ السَّماءِ كَدِرْهَمٍ مُلْقَى على دِيباجةٍ زَرْقاءِ

حيث جاء وجهُ الشّبه هيئةً منتزعةً من طُلوع صورةٍ بيضاء مشرقة مستديرة في رُقْعةٍ زرقاءَ مبسوطة.

ومبْعَثُ تنزيل هذا النوع من وجه الشبه منزلةَ الواحد كونُه هيئةً مركَّبةً من أجزاءٍ تضامّتْ وتلاصقتْ حتى صارت كالشيء الواحد الذي لا يقبل التجزئةَ، ولم يجعلْه البلاغيون واحدًا حقيقيًا، لتركُّبِهِ من جملةِ أمورٍ، ولا تركُّبَ في الواحد.

٣ ـ الوجه المتعدِّد:

وهو ما كان عدّةَ أمورٍ عمَدَ المتكلّمُ إلى جعْلِ كلٍّ منها وجهَ شبهٍ

قائمًا بذاته. تقول: «هِنْدُ كأُخْتِها طولاً وقَدًّا وذكاءً وتهذيبًا». و«هذه الفاكهةُ كالّتي أكلْناها أمسِ في الطّعمِ واللّونِ والرّائحة». وجليٌّ أنّ وجه الشبه في كلٍّ من هذين المثالين أمورٌ متعدّدة يصْلُح كلٌّ منها أن يكون وجهَ شبهٍ على انفراده. والمتكلّمُ إنما يقْصِد الدلالةَ على اشتراك الطّرفين في كلّ واحدٍ من هذه الأمور، وليس الدّلالةَ على اشتراك الطرفين في هيئة مركبة منها.

ومختصرُ القول أنّ وجه الشّبه حين يُنظرُ فيه إلى شيءٍ واحدٍ لا تركُّبَ فيه ولا تعدّد يسمّى «واحدًا»، وحين يُنظر فيه إلى هيئةٍ مركّبة من مجموعة أشياء تشكّل وحدةً لا تتجزّأ ويُخِلَ بالتشبيه حذْفُ أحدِ مكوّناتها يسمّى «مركّبًا»، وحين يُنظَر فيه إلى أمور متعدّدةٍ يُراد جعْلُ كلّ منها وجهَ شَبَهٍ قائمًا بذاته، ولا يُخِلّ بالتّشبيه حذْفُ أحدِها أو تقديمه أو تقديره، يسمّى «متعدّدًا».

بقيَ أن نشير إلى أن قيامَ وجه الشّبه بالطّرفين وانتزاعَه منهما معًا يوجِبُ ألاّ يأتي وجهُ الشّبه المركّب إلّا مع طرفين مركّبين، أو مقيّدين، أو أحدهما مركّب والآخر مقيّد، ولو تقديرًا.

ثالثًا: وجْه الشبّه الحسّيّ والعقليّ والمختلف. وهاكَ تفصيلَ القول في كلّ من هذه الثلاثة:

١ ـ وجه الشّبه الحِسّي:

يكون وجهُ الشبه حِسيًّا أي مُدْرَكًا بالحِسّ الظاهر، وهذا الضّرْبُ قد يكون مفردًا أو مركّبًا أو متعدِّدًا.

ـ والمفردُ الحسّيّ كالحُمرةِ في قولِكَ «خدُّهُ كالوَرْدِ»، وخفاءِ الصّوتِ في قولكَ: «صوتُ غِناءِ هذا المغنّي كالهَمْسِ»، وطيبِ الرائحة في قولك: «نكهتُهُ كالعَنْبرِ»، ولذّةِ الطّعْم في قولكَ: «رُضابُ الحبيبِ كالخمْرِ»، ولينِ الملْمسِ في قولكَ: «له بَشَرٌ كالحَريرِ».

ـ والمركَّبُ الحسّي يكون طرفاه مركَّبين، أو مفردين مقيَّدين، أو مختلفين. ومِثالُ المركّبِ الحِسّي ذي الطّرفين المركَّبين قولُ بشّار:

كأنّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا لَيْلٌ تهاوى كواكِبُهْ

وقد تقدّم أنّ وجه الشبه هنا هو الهيئةُ الحاصلة من تساقط أجزاء مشرقةٍ مستطيلةٍ متناسبة المقادير، متناثرةٍ في أثناء شيء مظْلم. وواضحٌ أنّ هذه الهيئة حسيّة تُدرَك أجزاؤها بحاسّة البصر. وبيِّنٌ أيضًا أنّ طرَفي التشبيه مركّبان.

أما المركّبُ الحسّي ذو الطّرفين المقيّدين فكقول قَيْسِ بن الخَطيم:

وقدْ لاحَ في الصُّبحِ الثُّريا كما ترىٰ كعُنقودِ مُلاّحِيَّةٍ حين نَوّرا

ووجهُ الشّبه في هذا التشبيه هيئةُ اجتماع صُوَرٍ بيضٍ مستديرةٍ صغارِ المقادير في رأي العين، على وضعٍ خاصٍّ (لا هي متضامّةٌ ولا متباعدةٌ كثيرًا». وهذه الهيئة حسّيةٌ تُدرَك أجزاؤها بحاسّة البصر. وطرفا التشبيه (الثُّريّا، العنقود) مفردان قُيّد كلّ منهما بقيدٍ خاصّ؛ ظهورُ الثُّريا مقيّدٌ بكونه وقعَ في وقتِ الصّبح، وعنقودُ المُلاّحية في حال إخراج النَّوْر.

وأمّا المركّب الحِسّيّ فيما طَرفاه مختلفانِ أحدُهما مفردٌ والآخر مركّب فمِثالُه قولُ الصَّنَوْبَرِيّ:

وكأنّ مُحْمَرّ الشّقِيقِ ـ إذا تَصَوّبَ أوْ تَصَعَّدْ

أعْلامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ على رِماحٍ مِنْ زَبَرجَدْ

فإنّ وجهَ الشّبه فيه هيئةٌ حاصِلةٌ من نَشْر أجْرام حُمْرٍ مبسوطةٍ على رؤوس أجرام خُضْرٍ مستطيلة. وهذه الهيئة حسّيةٌ تدرَك بحاسّة البصر. والمشبّه مفردٌ لأنّه اسمٌ لمُسمّى واحدٍ هو «الشقيق»، لكنّه روعي فيه

قيودُه من الاحمرار والتصوّب والتصعّد. والمشبّه به مركّب؛ لأنّ الشاعر قصَدَ فيه إلى هيئةٍ قوامُها أعلامٌ من الياقوت منشورةٌ على رماحٍ من زبرجد.

وعكْسُ هذا التّشبيه تشبيهُ نهارٍ مُشْمِسٍ قد شابه (خالطه) زهرُ الرُّبا، بليل مقْمرٍ ـ وهو ما جاء في قول أبي تمّام:

يا صَاحِبَيَّ تقصَّيا نظَرَيْكُما تَرَيَا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصوَّرُ
تَرَيَا نهارًا مُشْمِسًا قد شابَهُ زهرُ الرُّبا فكأنّما هو مُقْمِرُ

ووجهُ الشّبهِ ها هنا هيئةُ اختلاطِ شيءٍ أسودَ بشيءٍ أبيضَ وضّاء. وهو مِمّا يُدْرَك بحاسّة البصر. وقد جاء المشبّه مركّبًا، لأنه قُصِدَ فيه إلى هيئةِ النّهارِ المشمِس، وقد خالطَه زهرُ الرّبا، ممّا أنقصَ من ضيائه وجعله شبيهًا باللّيل المُقْمر. أمّا المشبهُ به وهو «اللّيل» فمفردٌ مقيّد بوصْفِ الإقمار.

ومثالُ المتعدِّد الحسّي قولُ الشاعر:

مُهَفْهَفٌ وجَنَتَاهُ كالخَمْرِ لَوْنًا وطَعْمَا

فإنّ وجهَ الشّبه فيه كُلٌّ من الحُمْرةِ والحَلاوة، وهمَا حسّيان، يدْرَك الأوّلُ منهما بحاسّة البصر، والثاني بحاسّة الذوق.

٢ ـ وجه الشّبه العقليّ:

يكون وجهُ الشّبه عقليًا، أو مدرَكًا بالقوة العاقلة، ويأتي واحدًا، أو مركّبًا أو متعدّدًا.

والوَجْهُ الواحِدُ العقليّ طرفاه عقليّانِ، أو حسّيّان، أو مختلفان، وإليك الأمثلةَ:

ـ فالواحدُ العقليّ ذو الطرفين العقليين كالنّفع في قولكَ: «العِلْمُ كالحياةِ»، وكعدم النّفع في قولِكَ: «الجَهْلُ كالموتِ».

والواحدُ العقليّ ذو الطّرفين الحسّيّين كالهداية في قول المصطفى ﷺ: «أصْحابي كالنّجومِ بأيِّهِمْ اقتديتُم اهتديتُم»، وكالوفاء في تشبيه الشاعر القديم أميرَه بالكَلْب في قوله: «أنت كالكَلْبِ في الوفاء».

والواحدُ العقليّ ذو الطّرفين المختلفين حِسًّا وعقلاً كالهداية في قولكَ: «العِلْمُ كالنُّور»؛ إذ العِلْمُ يوصِلُ إلى المطلوب ويفرّق بين الحقّ والباطل كما أنه بالنّور يدرَكُ المطلوبُ ويفْصَل بين الأشياء. والمشبّه عقليّ والمشبّه به حسّي. وكاستطابةِ النّفس في قولكَ: «عِطْرٌ كالخُلُقِ الكريم». فالمشبّه حسّي والمشبه به عقليّ، ووجه الشبه مِمّا يدرك بالعقل:

ـ والوجهُ المركّبُ العقليّ كحِرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمّل المعاناة في استصحابه في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾. فقد شبّهتْ حالُ اليهود المنتزعةُ من حَمْلِهم للتوراة، بمعنى تكليفهم العملَ بها، وكونِ المحمول مستودعَ العِلْم النافع لهم، وعدمِ حمْلهم لها بمعنى عدم العمل بمقتضاها والانتفاع بما فيها، مع تحمّلهم ما طُلب إليهم ممّا يثقل عليهم ويشقّ على نفوسهم ـ نقول شبّهتْ هذه الحالُ بِحالِ الحمار المنتزعة من حَمْلِهِ أوعيةَ العلوم، ومستودَع ثمارِ العقول، وعدَم انتفاعه بما يحمل، مع معاناته مشاقّ الحَمْل. ووجه الشبه بين الحالين كما أسلفنا:

هيئةُ الحِرْمان من الانتفاع بأبلغِ نافع، مع معاناة الكدّ في استصحابه. وجليّ أن هذه الهيئة أمرٌ عقليّ حُصِّل من عدّة أمور.

ومن هذا القبيل أيضًا قولُ الشاعر:

والمستجيرُ بِعَمْرٍو عندَ كُرْبتِهِ كالمُسْتجيرِ مِنَ الرّمضاء بِالنارِ

فإنّ وجهَ الشّبه فيه هو الهيئةُ الحاصلة من الالتجاء من الضارّ **إلى** ما هو أضرُّ منه طمَعًا في الانتفاع به. وبيّنٌ أنّه مركّبٌ من هذه الأمور المتعدّدة، وأنه أمرٌ عقليّ، فالوجهُ المركّبُ العقليّ هو هيئة منتزعة من عدّة أمور عقلية.

ـ والوجه المتعدّد العقليّ كالنّفع والضرر في قول الشاعر:

طَلْقٌ شديدُ البَأسِ، راحتُه كالبحرِ فيهِ النّفعُ والضّرَرُ

وكلٌ من النّفع والضّرر أمرٌ عقليّ.

٣ ـ وجه الشّبه المختلف:

يكون وجهُ الشّبه مختلفًا، بعضُه حسّيٌّ وبعضُه عقِليّ على غرار ما هي الحال في وجه الشّبه المتعدّد. ومثالُه الرَّونقُ والمَضاءُ في قول الشاعر:

هذا أبُو الهَيْجاءِ في الهيجاءِ كالسّيفِ في الرَّونقِ والمَضاءِ

والرونقُ حسّي والمضاءُ عقليّ. وأبو الهيجاء لقبُ عبدِ الله بن حَمْدان العَدَويّ، والهيجاءُ اسمٌ من أسماء الحرب.

اعتدادُ المركَّب من حسّيّ وعقليّ عقليًا:

قد يوجدُ الوجهُ المختلف حِسًا وعقلاً في المركّب المنزّل منزلةَ الواحد تبعًا لاختلاف الأجزاء المركّب منها؛ إذ إنّ بعضها حسّيّ وبعضها الآخر عقليّ؛ كما هي الحال في تشبيه الحَسْناء الوضيعة الأصْلِ بِخَضْراء الدّمن. فإنّ وجه الشّبه في هذا هو «حُسْنُ المنظرِ مَعَ سُوءِ المَخْبَر». وهذا الوجهُ مجموعُ أمرين أحدُهما حسّيّ والآخر عقليّ.

مثلُ هذا الوجه يعدّه علماءُ البيان من قبيل العقليّ، **مغلّبين بذلك**

العقلَ على الحِسّ؛ بسبب اتّساع القدرة الإدراكية للعقل بحيث تشمل المحسوساتِ والمعقولات، خِلافًا للحواسّ التي تقتصر قدرتُها الإدراكية على المحسوسات. وهكذا فإنّ المركّب إمّا حسّيٌّ فحسبُ، وإمّا عقليّ فحسْبُ متضمّنًا العقليَّ الصِّرْفَ والمختلِفَ حِسًّا وعقلاً. أما المتعدّد فقد يكون حسّيًا أو عقليًّا أو مختلفًا.

طرَفا الحِسّي التّام والجزئيّ حِسّيانِ لا محالةَ:

إنّ وجه الشّبه الحِسّي، سواء أكان مفردًا أو مركّبًا أو متعدّدًا، لا يكون طرفاه إلّا حِسّيّين؛ أي إنّه لا يجوز أن يكون كلاهما أو أحدُهما عقليًا لامتناع أن يُدْرَك بالحِسّ من غيرِ الحِسّي شيء، وذلك لأنّ وجه الشّبه أمرٌ مأخوذٌ من الطّرفين موجودٌ فيهما، فإذا أُدرك بالحِسّ فإن طرفيه حسيّان حتْمًا؛ إذ المُدْرَك بالحسّ لا يكون إلّا جِسْمًا أو قائمًا بالجِسْم.

وكذا الحالُ في وجه الشّبه الذي بعضُه حسّي كما في المتعدّد المختلف، أو المركّب المختلف، فإنّ طرفيه يجب أن يكونا حسّيّين؛ ومبعثُ ذلك أنّ كلّ واحدٍ من المتعدّد، أو كلّ جزءٍ من المركّب، يجب أن يقوم بالطّرفين أو يدرَك فيهما، ويمتنع بداهةً قيامُ الحسّي بالعقليّ أو إدراكُه فيه، فلا بدّ من أن يكون الطرفان حِسّيين.

طرفا العقليّ عقليّانِ أو حِسّيانِ أو مختلفان:

يصِحّ مجيءُ طرفي العقليّ عقليين أو حِسيّين أو مختلفين. **فالعقليّانِ كقولكَ: «غيابُ فلانٍ كَحُضوره» في «عدم النفع مثلاً»، والحِسّيان كقولكَ: «عنترةُ كالطُّودِ» في «الثبات»، والمختلفان كقولكَ: «حِلْمُ فلانٍ كالجبَلِ» في «الرّزانة»، أو «أرضٌ كأخلاق الكريم» في «الاتّساع». فقد تباين الطّرفان في هذه الأمثلة ما بين حسّيين وعقليّين ومختلفين، ووجهُ الشّبه فيها جميعًا عقليّ.**

وجملةُ الأمرِ أنّه يجوز في طرفي وجه الشّبه العقليّ أن يكونا عقليين أو حسّيين أو مختلفَيْن؛ وينشأ عن هذا أنَّ وجه الشّبه العقليّ أعمُّ من الحسّيّ؛ لأنّ المعقول قد يقوم بالمحسوس، كقيام معنى الإقدام بعَمْرِو بن مَعْدِي كَرِب، والسّماحةِ بحاتم الطّائيّ، والحِلْم بالأحْنَفِ بن قَيْس، ولأنّ العقل قد يدرك أمرًا معقولاً في شيء محسوس، كإدراك معنى «الشّجاعة» في خالد بن الوليد، وإدراك معنى «السّماحة» في حاتم.

جماليّة الوجه المركّب الحسّيّ:

لاحظ الشيخُ عبدُ القاهر أنّ للوجه المركّب الحسّي صورًا بديعة رائعة، ذلك أنه قد يُنتزع من هيئة حركة الجسم أو من هيئة سكونه. وما يُنتزع من هيئة حركة الجسم نوعان:

ـ **الأوّل**: أن يُراعى مع الحركة شيءٌ من أوصاف الجسم كالشَّكْل واللّون، وعلى هذا يكون الوجه منتزعًا من مجموع الأمرين، حركةِ الجِسْم، وشيءٍ من أوصافه، ومِثْلُه قولُ الرّاجز:

ـ والشّمسُ كالمِرآةِ في كفّ الأشَلّ ـ.

فإنّ وجه الشّبه فيه هو الهيئةُ المنتزعة من الحركة السّريعة المتّصلة مع الاستدارة والإشراق المتموّج ـ وجليّ أن القائل قد لحِظ مع حركةِ الجسم استدارَتَه، وأنّه ذو شعاعٍ برّاق متموّج حتى أحدث هذا المنظرَ الرائق. واسمعْ ما يقول الشيخُ فإنّ لِلْعربية على لسانه عذوبةً خاصّة: **«أرادَ أن يُريَكَ مع الاستدارةِ والإشراقِ الحركةَ التي تراها للشمس إذا أنعمتَ التأمّلَ، ثمّ ما يحصُل في نورها من أجل تلك الحركة؛ وذلك أنّ للشّمس حركةً متّصلة دائمة، ولنورها بسبب ذلك تموّجٌ واضطراب، ولا يتحصّل هذا الشّبهُ إلّا بأن تكون المرآةُ في يد**

الأشلّ؛ لأنّ حركته تدوم وتتّصل ويكون منها سرعة، وبدوام الحركة يتموّج نورُ المرآة، وتلك حالُ الشمس فإنّك تَرى شُعاعَها كأنه يهمُّ بأن ينبسطَ حتّى يفيضَ مِنْ جوانبها، ثمّ يبدو له فيرجع من الانبساط الذي تراه إلى انقباضٍ كأنه يجمعُه من جوانب الدّائرة إلى الوسطِ».

ومثلُ التّشبيه السّابق قولُ الوزير المهلّبيّ:

والشمسُ مِنْ مشرِقِها قدْ بَدَتْ مُشْرِقةً ليسَ لَهَا حاجِبُ
كأنّها بَوْتَقةٌ قَدْ أُحمِيَتْ يجولُ فيها ذَهَبٌ ذائِبُ

يقول الشّيخ: «وذلك أنّ الذّهبَ إذا ذاب تشكّلَ بشكل البوتقة في الاستدارة، وأخذ يتحرّك فيها بجملته تلكَ الحركةَ العجيبة كأنه يهمّ بأن ينبسطَ حتى يفيضَ من جوانبها لِمَا في طبْعهِ من النّعومة، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض لِما بين أجزائه من شدّة الاتصال والتلاحم».

وواضحٌ ههنا أيضًا أنه لُحِظ مع حركة الجسم المذكورة وصْفانِ من أوصافه هما: الاستدارة والإشراق؛ وقد انتزاع الوجهُ من مجموع الأمرين.

الثّاني: ألاّ يراعى مع الحركة شيءٌ من أوصاف الجسم، بل يكون الوجهُ منتزعًا من حركة الجسم المجرّدة عن غيرها. وابتغاءَ تحقّقِ معنى التركيب في الوجه لا بدّ من وجود حركاتٍ كثيرة إلى جهات مختلفة. ومن ذلك قولُ ابن المعتزّ:

وكأنّ البَرْقَ مُصْحَفُ قارٍ فانطِباقًا مرّةً وانفِتاحًا

فإنّ وجه الشّبه هو هيئةُ الحركاتِ المختلفة باختلاف الجهات. وواضحٌ أنّ هذه الهيئةَ تحقيقيةٌ في المُصْحف، تخييليّة في البرق؛ حيث لا انفتاح ولا انطباق حقيقةً، وإنّما هو ظهورٌ يعقبُه خفاءٌ والعكس، وهو مشابِهٌ بعضَ الشّبه هيئةَ المُصْحف يفتحه القارىء مرّة ويُطْبقه

أخرى. والشّاعر في وجه الشّبه هذا راعى تلك الحركاتِ المختلفة النواحي عند انفتاح المُصْحَف وانطباقه، وعند ظهور البرق واختفائه. هذا وقد بدا لبعض النّقاد أنَّ تشبيه البرق بالمصحف من التّشبيهات غير الموفّقة؛ لأنّ الحالَ النّفسيةَ التي تدرِكُ الإنسانَ إزاءَ صورة البرق وهو يلتمِعُ وينقضي سريعًا، غيرُ الحال النّفسية التي تدركه إزاءَ صورة المصحف وهو يُفتَح ويطبق على نحو متتابع. ونحسبُ أنّ في هذا شيئًا من الحقيقة؛ إذ يحسُنُ تقاربُ ما يمكن أن يولّده كلٌّ من طرفي التّشبيه من انفعال.

ومِنْ جيّد هذا الضَّرْب قولُ الشاعر يصِفُ روضةً:

حُفَّتْ بِسَرْوٍ كالقِيانِ تلحّفتْ خُضْرَ الحريرِ على قوامٍ معتَدِلْ
فكأنّها والرّيحُ تخطِرُ بينَها تبغي التّعانقَ ثمّ يمنعُها الخَجَلْ

فإنّ وجه الشّبه في هذا البيت منتزعٌ من هيئة حركة التهيّؤ للدنوّ من أجل العِناق وحركة التّراجع السّريع إلى أصل الافتراق، وتكرّرها مرةً إثر أخرى. والملحوظُ في انتزاعِ الوجه ههنا هو الحركاتُ التي لم تقترن بشيء آخر من أوصاف الجسم.

وما يُنتزَع من هيئةِ سكون الجسم نوعانِ أيضًا:

الأول: أن يراعى مع هيئة السّكون شيء من أوصاف الجسم، ويُنتزَع الوجهُ من مجموع الأمرين: سكون الجِسْم وشيءٌ من أوصافه. ومن لطيف هذا الجنس قولُ الشاعر في صفة المصلوب:

كأنّه عاشِقٌ قدْ مَدّ صَفْحَتَهُ يومَ الوداعِ إلى توديعِ مرتحِلِ
أو قائمٌ مِنْ نُعاسٍ فيهِ لُوثَتُهُ مواصِلٌ لتمطّيهِ مِنَ الكَسَلِ

وجهُ الشّبه في البيت الأوّل منتزعٌ من هيئة سُكون عنق المَصْلوب وصفحته، ويدَيْهِ حالَ امتدادهما، مع اصفرار الوجه - فالمراعى في

انتزاع الوجه هو أمران: هيئة السكون، مع اصفرار اللّون الملحوظ في البيت.

أمّا في البيت الثّاني فإنّ الوجه منتزعٌ من هيئة سكون العنق والصّفحة واليدين مع اصفرار اللون أيضًا وتراخي الجسم - فالمراعى في انتزاع الوجه أمرانِ أيضًا هيئة السّكون مع الإصفرار والتّراخي.

الثاني - ألاّ يراعى مع هيئة السّكون شيءٌ من أوصاف الجسم، فيُنتزَع الوجهُ من هيئة السّكون الصّرف - وابتغاءَ تحقُّق معنى التّركيب في الوجه لا بدّ من تعدّد أفراد هيئة السكون؛ يصوِّرُ هذا قولُ المتنبّي يصِف كلْبَ الصّيد حالَ جلوسه:

يُقْعِي جلوسَ البدويِّ المُصْطَلي   بـأربـعٍ مَـجْـدولـةٍ لـم تُـجْـدلِ[1]

فإنّ وجه الشّبه هنا منتزَعٌ من هيئة مواقع الأعضاء في إقعاء الكَلْب وفي جلوس البدويّ المصطلي؛ وذلك أنّ الأعضاء في الإقعاء والجلوس تحتلّ مواقعَ خاصة، يُحْدِثُ مجموعُها هيئةً خاصة، فيها ضرْبٌ من التّناظر. وقد رُوعي في انتزاع الوجه أن يكون من هيئة السّكون وحْدَها لا يقترن بها شيء من أوصاف الجسم.

(١) يُقعي: يجلس على أليته. والاصطلاء: الاستدفاء بالنار. والمجدولة: المفتولة خِلقةً.

أقسام التشبيه تبعا لوجه الشبه

ينقسم التشبيهُ بمقتضى وجه الشّبه ستّة أقسام:

١ ـ تشبيهُ تمثيلٍ ـ وهو ما كان وجهُ الشبه فيه هيئةً منتزعة من متعدّد، حِسّيًا كان ذلك الوجهُ أو غيرَ حسّي.

* فتشبيهُ التّمثيل الحسّي كتشبيه مُثار النّقع مع الأسْياف بليلٍ تهاوى كواكبه، وتشبيهِ الثّريا بعنقود المُلاّحية حين يُزْهِر، وتشبيه الشمس بالمرآة في كفّ الأشلّ. وهي التشبيهات التي عرَضْنا لها قبلُ.

* وتشبيه التمثيل غير الحسّي كتشبيه حال اليهود بحال الحِمار؛ فإنّ وجه الشبه فيه هيئةٌ منتزعة من عدة أمور عقلية هي «الحِرْمانُ من الانتفاعِ بأبلغ نافعٍ مع الكدّ والتّعب في استصحابه»، وكتشبيه المستجير بعَمْرو عند كُرْبته بالمستجير من الرمضاء بالنّار؛ إذ إن وجه الشّبه فيه هيئةٌ منتزعة من أمرين عقليين هما: الالتجاء من الضارّ إلى الأشدّ ضررًا، والطّمع في الاحتماء به.

٢ ـ تشبيهُ غيرِ تمثيلٍ ـ وهو ما لم يكن وجهُ الشبه فيه هيئةً منتزعة من متعدّد، بل كان أمرًا واحدًا أو متعدّدًا.

* فتشبيه غير التمثيل مِمّا يكون الوجهُ فيه أمرًا واحدًا، كقولكَ: «صوتُه كتغريدِ البُلبُل»، حيث الوجهُ «جمال الصّوت»، وكقولكَ: «وجهُهُ كالبَدْر»، حيث الوجهُ «الضّياء»، وكقولكَ: «رائحتُه كأريج المِسْك» في «الطّيب». ووجه الشبه في كلّ هذه الأمثلة أمرٌ واحد لا تركيبَ فيه ولا تعدّد.

* وتشبيهُ غير التمثيل مِمّا يكون الوجهُ فيه متعدّدًا، كقولكَ: «هذه الفاكهةُ مِثْلُ هذه طَعْمًا ولَوْنًا وشكْلًا»؛ فإنّ وجه الشبه كلٌّ من الطَّعْم واللّونِ والشّكْل.

٣ ـ تشبيهٌ مُفصَّل ـ وهو ما صُرِّح فيه بذِكْر وجه الشبه على طريقته؛ أي أن يأتي وجهُ الشبه مجرورًا بفي أو منصوبًا على التمييز على معنى «في» كقولِكَ: «طبْعُ فَريدٍ كالنّسيم في الرّقة أو رقةً، ويدُه كالبَحْرِ في الجُود أو جُودًا، وألفاظُه كالعَسَلِ في الحلاوة أو حلاوةً». فهذه النماذجُ جميعًا من التّشبيه المفصّل؛ لأنه صُرِّح فيها بذكر الوجه على طريقته.

٤ ـ تشبيهٌ مُجْمَل ـ وهو ما لم يصرَّح فيه بذِكْر وجه الشّبه على طريقته، كقولهم: «النّحوُ في الكلامِ كالمِلْحِ في الطعام»، إذ لم يصرّح بذِكْر الوجه، وهو هنا «الإصلاح» في كلٍّ. والتّشبيهُ المجمل، تبعًا لوجه الشبه فيه، قِسْمان:

أ ـ ما يكون الوجهُ فيه ظاهرًا يُدْركهُ العامّةُ والخاصّة كقولكَ: «شَعَرُ الحبيبِ كاللّيلِ، وقدُّه كالغُصْنِ، ووجْهُه كالبَدْر». فوجه الشبه في كلّ من هذه الأمثلة واضحٌ لا يَحتاج إلى إعمالِ الفِكْر.

ب ـ ما يكون الوجهُ فيه خفيًّا لا يُدْركُه إلّا الخاصّة؛ لاقتضائه التفكّرَ والتأمّل. قال الشيخُ عبدُ القاهر: «وأمّا ما يَدِقُّ ويغمُضُ حتّى يحتاج في استخراجه إلى فضْلِ رويّةٍ ولُطْفِ فكرةٍ، فنحْوُ قول كَعْب الأشقريّ وقد أوفدَه الحجّاجُ على المهلّب فوصَف له بنيهِ وذكر مكانَهم من الفضل والبأس، فسأله في آخر القصّة، قال: فكيفَ كان بنو المهلّب فيهم [أي جملة المحاربين] قال: كانوا حُماةَ السَّرْحِ نهارًا فإذا أُلْيِلُوا ففرسانَ البَياتِ، قال: فأيُّهُمْ كان أنْجَد، قال: كانوا كالحَلْقةِ المفرَغة لا يُدرىٰ أين طرفها، فهذا كما ترى ظاهرُ الأمر في فقره إلى

فَضْلِ الرِّفْق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حقَّ فهمه إلّا مَنْ له ذهنٌ ونظر يرتفع به عن طبقة العامة».

وحين قال كعبُ الأشقَريّ: «كانوا كالحَلْقة المفرغة لا يُدرىٰ أين طرفاها» إنما أراد أنّهم - في تناسُبهم في الشّرفِ والشجاعةِ وعدم تفاوتهم فيهما بحيث يمتنع تفضيلُ أحدهم على الآخر - كالحلْقةِ المتّصلةِ الجوانب؛ فإنّ أجزاءها متناسبة في الصّورة، ويمتنع تعيينُ بعضِها طرفًا وبعضها وسطًا. ووجهُ الشبه بين الطرفين هو «التّناسبُ الكلّي الخالي من التفاوت»، وقد دلّ عليه قولُه: «لا يُدرىٰ أين طرفاها». وهذا التناسبُ الكلّي هو تناسبٌ في الشّرَف في جانب المشبّه، وتناسبٌ في صورة الأجزاء من المشبه به. ومثلُ هذا الوجه خفيٌّ دقيق، يصعُبُ على العامّة إدراكُه.

والتّشبيهُ المجملُ من حيث وصْفُ طرفيه بوصفٍ مشعِرٍ بوجه الشبه على أقسامٍ:

أ - ما لم يُذْكَر فيه وصْفُ أحد الطّرفين، كقولك: «زيدٌ كالأسَدِ». لم يُوصف أيٌّ من الطرفين بوصْفٍ يشعِرُ بوجه الشّبه الذي هو «الشجاعة».

ب - ما ذُكِر فيه وصْفٌ للمشبّه دون المشبه به، كما في قول المصطفى ﷺ: «أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتُم». وجه الشّبه في الحديث هو «الهِداية» في كلٍّ، وقد أشْعَر به قولُه: «بأيّهم اقتديتم اهتديتم». وهو وصْفٌ خاصّ بالمشبه.

ج - ما ذُكِر فيه وصفٌ للمشبَّه به دون المشبّه، كقول زيادٍ الأَعْجمِ:

فأنّا ومَا تُلْقي لنا إنْ هَجَوْتَنا لكالبَحْرِ «مهما تُلقِ في البحرِ يغرقِ»

يشبّه الشاعرُ حالَ قومه إذ يزميهم المخاطَبُ بالنّقائص فلا يتأثّرون بذلك لِما لهم من شأنٍ عظيم، بحالِ البحر العظيم لا يتأثّر أيًا كان مقدارُ ما يُلقىٰ فيه. ووجهُ الشبه «الأمرُ الخطيرُ لا يتأثّر بالشّيء الحقير». وقد جاء قولُه «مَهْما تُلقِ في البحرِ يغرق» وصفًا خاصًا بالمشبّه به مشْعِرًا بوجه الشبه المذكور.

د ـ ما ذُكِر فيه وصفٌ للمشبّه وللمشبّه به، كقول أبي تمّام:

صَدَفْتُ عنهُ ولم تصْدِفْ مَواهِبُه عنّي وعاوده ظنّي فلَمْ يَخِبِ
كالغَيْثِ إنْ جئتَه وافاكَ ريِّقُهُ وإنْ ترحَّلْتَ عنهُ لجّ في الطَّلَبِ[1]

وصفَ الشاعرُ «الممدوح» بأنّ عطاياه فائضةٌ عليه، أعرضَ عنه أو لم يُعرض، ثم وصَف «الغيث» بأنه يصيبك جئتَه أو ترحلتَ عنه؛ أي إنه وصفَ المشّبه والمشبّه به؛ ووجهُ الشبه «الإفاضةُ في حالَي الطّلب وعدمه وحالَي الإقبال عليه والإعراض عنه». والوصفان المذكوران مُشْعِران بهذا الوصف.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ التّشبيهَ المجمل لا يُخرجه عن إجماله أن يُذكَرَ لأحد الطرفين وصْفٌ مشْعِرٌ بوجه الشبه.

٥ ـ تشبيهٌ قريبٌ مبتذَل ـ وهو ما ينتقل فيه الذّهنُ من المشبّه إلى المشبه به من غير إمعانٍ في النظر والتأمّل بسبب وضوح الشبه فيهما ـ كتشبيه الشجاعِ بالأسد في «الإقدام»، والكريمِ بحاتم في «السّماحة»، والخَدِّ بالوَرْدِ في الحُمْرة، والوجهِ بالبدر في «الإشراق». فكلٌّ من هذه التّشبيهات قريبٌ متداول بين الناس لسهولة انتقال الذّهن فيه من المشبّه إلى المشبه به بسبب وضوح الشّبه بين الطّرفين.

وقد ذكر البلاغيون لوضوح وجه الشبه ثلاثةَ أسباب:

(١) صدفت: أعرضتُ. وافاك: أتاك. رَيِّقه: أوّلهُ. وريِّق كلّ شيء أفضلُه.

أ ـ أن يكون الوجهُ أمرًا جُمْليًا لا تفصيلَ فيه؛ فإنّ الجملةَ أسبقُ إلى النّفوس من التّفصيل وبالنّظر الأوّل يدْرِك المرءُ الوصفَ على الجملة، ومن ثم فإدراكُ «مطْلَق السّواد» في تشبيه اللّيل بموج البحر في بيت امرىء القيس المشهور، أيسرُ كثيرًا من إدراك «السّواد الحالك»، في تشبيه سواد النُّوقِ بسَواد خافية الغُراب في قول عنترة:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبةً سُودًا كخافيةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

ب ـ أن يكون وجهُ الشّبه قليلَ التّفصيل مع غلبةِ حضور المشبّه به في الذهن عند حضور المشبّه لِقُرْب المناسبة بين المشّبه والمشبّه به؛ إذ لا اختلافَ في أنّ الشيء مع ما يناسبه أسهلُ حضورًا منه مع ما لا يناسبه، كأنْ تُشَبَّه الجرّةُ الصغيرةُ بالكُوز في المِقْدار والشّكْل، فإنه قد لُوحظ في وجه الشبه تفصيلٌ ما حيث تناول المقْدارَ والشّكل، لكن غلبةَ حضور الكُوز في الذهن عند حضور الجرّة أضعفتْ تأثيرَ التفصيل في وجه الشبه، وهيّأت لسُرعةِ انتقال الذّهن إلى المشبه به، ووضوح وجه الشبه.

ج ـ أن يكون وجهُ الشّبه قليلَ التفصيل مع غلبة حضور المشبه به في الذّهن مطلقًا لتكرّر المشبه به على الحسّ؛ فإنّ المتكرِّر على الحسّ، كصورة القمر غيرَ مُنْخَسِفٍ، أسهلُ حضورًا ممّا لا يتكرّر على الحسّ، كصورة القمر منخسفًا؛ وذلك كتشبيه الشّمس بالمرآة المجلوّة في الاستدارة والاستنارة، فإن في وجه الشبه شيئًا من التّفصيل، لكنّ غلبةَ حضور المشبّه به «المرآة» في الذّهن مطْلقًا أضعفت تأثيرَ التّفصيل، وهيّأت لِسُرعةِ انتقالِ الذّهن إلى المشبّه به ووضوح وجه الشبه، ومن هنا كان التشبيه قريبًا مبتذلاً.

٦ ـ التّشبيه البعيدُ الغريبُ ـ وهو ما لا ينتقلُ فيه الذّهنُ من المشبّه إلى المشبّه به إلّا بعد إعمالِ فِكْرٍ وطولِ تأمّل بسبب خفاء وجه

الشبه فيهما، كتشبيه هيئة الخال على الخدّ بالشَّقِيق في قول الشاعر:

لا تَعْجَبُوا مِنْ خالِه في خَدِّهِ   كلُّ الشَّقيقِ بِنُقْطَةٍ سوداءِ

فإنّ وجه الشبه هو الهيئةُ الحاصلة من وجود نقطةٍ مستديرة سوداء وسْطَ رُقعةٍ مبسوطةٍ حَمْراء، وواضحٌ أنّ الذهن لا ينتقل من المشبّه (الخال في الخدّ) إلى المشبه به (الشقيق بنقطته السوداء) إلّا بعد معاودة النظر وإنعام التأمل.

وقد استبانَ البلاغيون لخفاءِ وجْهِ الشّبه ثلاثةَ أسباب:

١ ـ أن يكون الوجهُ أمرًا كثيرَ التفصيل يحتاج إلى كثرة الملاحظات والاعتبارات، كقول الشاعر:

ـ والشَّمْسُ كالمِرآةِ في كفّ الأشَلّ ـ

فإنّ وجه الشّبه فيه كثيرُ التفصيل على نحو ما قدّمنا؛ ومن ثَمّ لا يقع في نفس الرّائي للمرآة الدائمة الاضطراب إلّا بعد إعادة التأمّل. ومثلهُ تشبيهُ مُثارِ النَّقْع يتخلّله بريقُ السّيوف المتلاحمة بليلٍ تتهاوى كواكبه، وتشبيهُ هيئةِ إقعاء الكَلْب بهيئة جلوس البدويّ المُصْطَلي.

٢ ـ أن ينْدُرَ حضورُ صورة المشبّه به في الذهن عند استحضار صورة المشبّه لِبُعْدِ التناسب بين الصّورتين وعدمِ التجانس بينهما ـ كقول الشاعر يصف أزهارَ البنفسج على سِيقانها:

ولازَوَرْدِيّةٍ تَزْهُو بِزُرْقَتِها   بين الرِّياض على حُمْرِ اليواقيتِ
كأنّها فوقَ هاماتٍ ضَعُفْنَ بها   أوائلُ النّارِ في أطْرافِ كِبْريتِ

فإنّ الذّهنَ لا ينتقل من المَشبّه (البنفسجة اللازوردية) إلى المشبه به (أوائل النار في أطراف الكبريت) إلّا بعد إعمالِ فكرٍ وطول تأمل؛ لأنّ صورة النّار في أطراف الكبريت يندر حضورُها في الذّهن عند استحضارِه صورةَ البنفسج على سِيقانه لِمَا بينهما من عدمِ التجانس

وبُعْدِ المواطن؛ فهذا زهرٌ نَدِيٌّ لطيفٌ وهذا لَهَبٌ حارّ عنيف، وهذا يسكنُ الخمائل وذاك يستوطن المنازلَ. وجليّ هنا أنّ ثمّة تباعدًا بين الحال النّفسية التي يولّدها كلٌّ من طرفي التشبيه: الورد والنار. وقد ينال هذا من قيمة هذا التشبيه.

٣ ـ أن يندر حضورُ صورةِ المشبه به في الذهن مطلقًا، حضرتْ فيه صورةُ المشبه أو لم تحضر. ويحدّد علماء البلاغة لندرة حضور المشبه به في الذهن أحدَ أمورٍ أربعة: ١ ـ لكونِ المشبَّه به أمرًا وهْمِيًّا، اختلقه الوهْمُ من عنده، كأنياب الأغوال. ٢ ـ لكونه مركَّبًا خياليًا. كأعْلامِ ياقوتٍ نُشِرْن على رماح من زبرجد. ٣ ـ لكونه مركَّبًا عقليًّا، كمَثَل الحِمار يحْمِل أسفارًا. ٤ ـ لقلّة تكرّره على الحسّ، كالمرآة في الكفّ الأشلّ.

وتكون نَدْرةُ حضورِ المشبه به سببًا لخفاء وجه الشبه؛ لأنّ هذا الوجه فرعٌ للطّرفين ومستخْلَصٌ منهما، ولا يتأتّى الوصولُ إليه إلّا بعد حضور الطّرفين، فإذا ندر حضورُهما ندرَ التفاتُ الذّهن إلى ما يجمعهما ويصلُحُ سببًا للتشبيه بينهما.

معنى التفصيل في وجه الشبه:

يُراد بالتفصيل في وجه الشّبه ما فيه من كثْرةِ الاعتبارات والملاحظات؛ وذلك بأن يُنظَر في أكثر من وصْفٍ واحد لشيء واحد أو أكثر، سواء أكان ذلك الوجهُ متعدّدًا أو مركّبًا اعتباريًا. على أنّ حاجة المركّب إلى إعْمال الفِكْر ودقة النّظر أكثرُ من حاجة المتعدّد، ذلك أنه يراعي في المركّب الهيئةُ التركيبية التي تنشأ عن تضامّ الأجزاء وارتباط بعضها ببعض.

ومثالُ تعدّد الأوصافِ لشيءٍ واحد ما تلحظه في تشبيه المفرد

المقيّد بِمِثْلِه كالذي جاء في «تشبيه الثريّا بعنقود المُلّاحية»، حيث روعي في الوجه عدّةُ أوصافٍ لشيء واحد. فقد تضمّن الوجهُ تحديدًا لشكلِ الأجرام ولونِها ومقدارِها وهيئة أوضاعها، وهذه في مجموعها أوصافٌ لشيءٍ واحدٍ هو «الثّريا» مشبه بِمِثْلِهِ وهو «عنقود الملاحية».

ومثالُ تعدّد الأوصاف لأكثرَ من شيء واحد ما تلحظه في تشبيه المركّب بالمركّب، كما في تشبيه بشّار «مُثار النّقْع مع الأسْياف اللامعة بالليل مع الكواكب المتهاوية»، حيث رُوعي في الوجه عدّة أوصافٍ لأكثرَ من شيء واحد: اللّون القاتِم، بريق الأجْرام في أثنائه، وحركاتها، وتناسب أشكالها، وتباين مواقعها ـ وهذه في مجموعها وصْفٌ لمركّبٍ مشبّهٍ بمثله.

أوجه التفصيل:

للتفصيل في وجه الشّبه وجوهٌ كثيرة، أكثرُها قبولاً عند البلاغيين صورتان:

الأولى. أن تأخذَ بعضًا من الأوصاف وتدَعَ بعضًا، كما في قول امرىء القَيْس:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كأنّ سِنانَه سنَا لَهَبٍ لمْ يتّصِلْ بِدُخان(١)

المشبّهُ هو سِنانُ الرُّمح، والمشبّه به هو اللّهب ذو السنا أي الضياء. وقد أخذ الشاعرُ بعضَ الأوصاف من كلٍّ منهما وترك بعضًا، فقد لَحظ في كلّ منهما الشّكلَ المخروطيّ الدقيق الطّرَف، والزُّرْقةَ الصّافية، واللّمعان. وفي جانب المشبه به جعل اللّهبَ دون دخان، وبذلك حقّق التّشبيه. ولو أنه جعل اللّهب متّصلاً بالدخان ما تحقّق له

(١) الرّديني: رمحٌ منسوب إلى رُدَينةَ.

التّشبيه، إذ ليس في رأس السّنان ما يشبه الدخانَ. ومثلُه قول الشّاعر:

كأنّ عُيونَ الوَحْشِ حولَ خِبائِنَا وأرحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

يتحدّث الشاعر عن كثرةِ اصطيادِهم للوحوش، وأنهم كانوا يأكلونها ويُلقون عيونَها حولَ أخبيتهم. ويشبّه عيونَ الوحوش بالجَزْع غير المثقوب. وبيّنٌ أنه أخذ في المشبّه والمشبه به بعضَ الأوصاف المشتركة: الشّكل، اللّون، لكنّه جعل الجَزْعَ غيرَ مثقّب تحقيقًا للتشبيه وبيانًا لتساوي الطّرفين في وجه الشّبه، ولو أنه أبقى صفة التثقيب للجَزْع لخالفَ العيونَ في الشّكل، فهي غير مثقّبة. والجَزْع: الخَرَزُ اليمانيّ الصّينيّ، فيه سوادُ وبياضٌ تشبَّه بين الأعينُ.

الثانية: أن تأخذ جميع الأوصاف، بأن تلحظَ وجودَها جميعها في وجه الشّبه، وذلك كما في قول الشاعر:

وقدْ لاحَ في الصُّبْحِ الثُّريّا كما ترى كعُنقودِ مُلاّحيَّةٍ حِينَ نَوّرا

فقد راعى في المشبّه والمشبّه به الشَّكْلَ والمِقْدارَ واللّونَ والوضْعَ المتميز. وكذا الحالُ في كلّ تشبيهات الهيئات.

التّشبيه البليغ:

يرى البلاغيّون أنّ التشبيهَ البليغ حقّا هو ما كان من البعيدِ الغريب دون القريبِ المبتذَل، كما في تشبيه الهيئات المنتزعة من أمورٍ متعدّدة، سواءٌ أكان وجهُ الشبه مركّبًا أم غيرَ مركب، وسواء أذُكِرتْ أداة التّشبيه أمْ لم تذكر؛ لِمَا هو مركوزٌ في الطِّباعِ من أنّ الشيءَ إذا نِيل بعد الاحتيال له ومعاناةِ التوسّل إليه كان نَيْلُهُ أحلىٰ وموقعُه في النفس ألذَّ وأشهى. ومن ثَمّ قالوا في المثَل: «كلُّ ممنوعٍ مرغوبٌ»، وقال الشاعر:

وزادهُ كَلَفًا في الحُبِّ أنْ منَعَتْ وحُبَّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

جعلُ القريبِ المبتذل غريبًا بعيدًا:

لاحظ البلاغيّون أنّ التّشبيهَ القريبَ المتداول قد يتصرّف فيه الماهرُ في صَنْعة الكلام على نحوٍ يغدو فيه غريبًا ممتنِعًا، لا ترتقي إليه مداركُ العامّة. قال المتنبّي من قصيدةٍ يمدح بها هارونَ بنَ عبدِ العزيز:

لم تلقَ هذا الوجهَ شمْسُ نَهارِنا ... إلّا بِوَجْهٍ ليسَ فيه حَياءُ

قصد أبو الطيّب إلى تشبيه وجه الممدوح بالشمّس في الإشراق، وهذا تشبيهٌ مبتذلٌ تلوكه ألْسِنَةُ العامّة. لكنّ الشّاعرَ أعْملَ ريشتَه الصَّناعَ فعمَد إلى بثّ الحياة في الشمس وتشخيصِها، حين جعل منها مخلوقًا يلقى الناسَ ويتجرّأ على لقاء مَنْ هم أظهرُ منه في الإشراق. فالشمسُ مشْرِقةٌ ووجهُ الممدوح مشرِقٌ، بل أكثرُ إشراقًا منها. ومن ثَمّ فعليها ألاّ تلقاه البتّةَ أو تلْقاه مُطْرِقةً خجَلاً. وإذْ أصرّتْ على لقائه فإنها لم تلقَه إلّا بوَجْهٍ ليس فيه حياء. وقد أفاد ذلك بطريق دقيقٍ خَفِيٍّ عِظَمَ حظّ الممدوح من وضاءة الوجه وإشراقه، وأنه أعظمُ إشراقًا من الشمس. وبهذا الصّنيع أخرجَ الشاعرُ التشبيهَ عن الابتذال، وكساه صورةً رائعة تستميل النظرَ وتثير الإعجابَ، وعلى الجُملة فإنّ تشبيه المتنبّي تشبيهٌ ضمنيّ؛ لأنّ وجهَ الممدوح إذا كان أتمّ من الشّمس في الإشراق استلزمَ ذلك اشتراكَهما في أصْلِ الإشراق.

وشبيهٌ به قولُ الشاعر:

إنَّ السّحابَ لَتَسْتَحْيي إذا نَظَرَتْ ... إلى نَدَاكَ فقَاسَتْهُ بِمَا فيها

فقد قصدَ تشبيهَ الممدوح بالسّحاب في الفَيْضِ، وهو تشبيه مبتذَلٌ متداول، لكنه شخّص السّحابَ وجعله مِمّن ينظرُ ويقيس ويدرِك الفروقَ ويعرف حدَّه فيقف عنده، وبهذا ينهض بتشبيهه إلى مستوى رفيع.

على أنّ ثمّةَ أنواعًا للتّشبيه الذي ارتُقي به ونُقِل من الابتذال إلى

الغَرابة. ومن ذلك ضَرْبٌ يُسَمّى «التشبيهَ المشروط». أي المقيّد بِشَرْطٍ، كأنْ تقول: «هذا الشيءُ كهذا الشيءِ لو كان بصفةِ كذا، أو لولا أنه على صفة كذا». والتقييدُ بالشَّرْط قد يكون في المشبّه به، وقد يكون في المشبّه، وقد يكون في كِلَيْهما. فتقييدُ المشبّه به كقولِ رشيد الدّين الوَطْوَاط:

عَـزَمـاتُـهُ مِـثْـلُ الـنّـجـومِ ثَـواقِـبًـا   لَـوْ لَـمْ يـكُـنْ لِـلـثّـاقـبـاتِ أُفـولُ

فقد شبّه العَزمَ بالنّجم في الثّقوب أي النفوذ والمَضاء، وهو تشبيهٌ مبتذل قريب؛ لِوضوحِ وجه الشبه فيه، لكنّ حصولَ الأُفول للثاقبات دون العَزماتِ دلّ على أنّ المشبّه أتمُّ من المشبّه به في وجه الشبه، وبذلك أبرز الشاعرُ التّشبيهَ في صورة الغريب البعيد.

وتقييد المشبّه كما في قول بَدِيع الزّمان:

يَكادُ يحْكِيكَ صَوْبُ الغَيْثِ مُنْسَكِبا   لو كَان طَلْقَ المُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا
والبدْرُ لَوْ لَمْ يغِبْ والشمسُ لو نطقَتْ   واللّيثُ لو لَمْ يُصَدْ والبحرُ لو عَذُبا

فقد شبّه كُلاًّ من الغَيْثِ والبَدْر والشّمس واللّيث والبَحْر بالممدوح، وقيّد كُلاًّ منها بقَيْدٍ يزيد من تفوّق المشبّه به على المشبّه في وجه الشبه.

وتقييدُ الطّرفين كقولكَ: «زيدٌ إذا غضِبَ كعَمْرٍو إذا حَلُمَ».

ومن هذا النوع من التّشبيه ضرْبٌ آخر يُسمّى «تشبيهَ التفضيل». وطريقته أن يشّبه المتكلّمُ شيئًا بِشَيء ثم يعود فيرجّح المشبّهَ على المشبه به، ومنه قول الشاعر:

حَـسِـبْـتُ جَـمـالَـه بـدْرًا مُـنِـيـرًا   وأيـنَ الـبَـدْرُ مـن ذاكَ الـجَـمـالِ؟

وقول الآخر:

مَـنْ قـاسَ جَـدْواكَ بـالـغَـمـامِ فَـمَـا   أَنْـصَـفَ فـي الـحُـكْـمِ بـيـنَ شـيـئَـيْـنِ

أنـــتَ إذا جُـــدْتَ ضـــاحِـــكٌ أبَـــدًا   وذاكَ إنْ جـــادَ دامِـــعُ الـــعَـــيْـــنِ

ومنه ضربٌ ثالث يُسمّى «تشبيهَ التشكيك» مبالغةً في الإيلام، كقول الشاعر:

ومـــا أدري، وسَـــوفَ إخـــالُ أدري   أَقَـــوْمٌ آلُ حِـــصْـــنٍ أمْ نِـــســـاءُ؟

أي: أهم كالقومِ (الرّجال) أم كالنساء.

وقد يكون التّشكيكُ للمبالغة في الإعجاب، كقول الشاعر:

باللّهِ يا ظَبَياتِ القَاعِ قُلْنَ لنا: لَيلايَ مِنْكنَّ أمْ ليلى مِنَ البَشَرِ؟

تشبيه التّمثيل

تشبيهُ التّمثيلِ أو التمثيلُ هو ـ كما قدّمنا ـ التشبيهُ الذي وجهُه وصْفٌ منتزَعٌ من متَعدّد، أي أمرَيْنِ أو أمور؛ وذلك كتشبيهِ الثّريا بعُنقود المُلاّحيّة، وتشبيهِ مُثار النّقع مع الأسْياف باللّيل الذي تتهاوى كواكبُه، وتشبيهِ الشّمسِ بالمرآة في كفّ الأَشَلّ.

وشرَطَهُ السّكاكيُّ بأنْ يكون غيرَ حقيقيّ، حيث جاء قولُه: «التّشبيهُ متى كان وجهُهُ وصْفًا غيرَ حقيقيّ وكانَ منتزَعًا من عدّة أمور خُصّ باسم التمثيل؛ كما في تشبيه مَثَلِ اليهود بَمَثلِ الحِمارِ؛ فإنّ وجه الشّبهِ هو حِرمانُ الانتفاعِ بأبلغِ نافعٍ مع الكدّ والتّعبِ في استِصْحابه، فهو وصْفٌ مركّبٌ من متعدّد، وليس بحقيقيّ، بل هو عائدٌ إلى التوهّم».

ويحتاج التّمثيلُ في كثيرٍ من الأحيان إلى كدّ الذّهن في فهْمه، ذلك أنّ استخراجَ الصورة المنتزعة من أمورٍ متعدّدة لتكونَ وجهَ الشّبه ليس بالأمر الهيّن. ومن التمثيل قولُ الشاعر:

ولاحَتِ الشّمسُ تحْكي عندَ مطلَعِها مِرآة تِبْرٍ بَدَتْ في كفّ مُرْتَعِشِ

فقد شبّه الشّمسَ عند طلوعها حمراءَ لامعةً مضطربةً بمرآةٍ من ذهَبٍ تضطرب في كفّ ترتعش. ووجهُ الشبه هيئةٌ منتزعة من الاستدارةِ والحُمْرةِ واللّمعان والاضطراب.

ـ تشبيه التمثيل من حيث الأداةُ:

لتشبيهِ التمثيل نوعانِ من حيث ظهورُ الأداةِ وخفاؤها:

١ ـ ما ذُكِرتْ فيه الأداةُ، كقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾. فقد شبّه اليهودَ الذين حُمّلوا التوراةَ ولم يعقِلوا ما بها بالحمار الذي يحْمِلُ الكتبَ النافعة ويعانِي في حَمْلِها ولا يستفيد منها شيئًا، وأداة التّشبيه الكافُ، ووجْهُ الشّبه هو «حِرْمانُ الانتفاعِ بأبلغِ نافعٍ مع معاناة الكدّ في استصحابه».

وكقول البحتريّ:

دانٍ على أيدي العُفاةِ وشاسِعٌ عَنْ كلّ نِدٍّ في النّدى وضَرِيبِ
كالبَدْرِ أفْرَطَ في العلُوّ وضَوْءُهُ لِلْعُصْبةِ السّارِينَ جِدُّ قريبِ

فقد شبّه الممدوحَ في قربه من ذوي الحاجات وإغداقه عليهم مع بُعْدِه عن أن يكون له نظيرٌ أو مثيل في السّخاء ـ بالبدْرِ في قرْب ضوئه من السّارين ليلاً مع إفراط عُلوّه وبُعْدِه في السّماء. وأداةُ التشبيه الكافُ. ووجهُ الشبه هيئةُ «قُرْبِ الفَضْل مع بُعْدِ المنزلة».

٢ ـ ما لم تُذْكَر فيه الأداةُ، كقولكَ لِمَنْ يتردّد في الشيء ويتراوح بين أن يفعلَه وألا يفعلَه: «أراكَ تُقدِّمُ رِجْلاً وتؤخّر أخرى». وأصْل التعبير: «أراكَ في ترددّكَ وتقلُّبِ رأيكِ كمَنْ يقدّم رِجْلاً مرةً، ثم يؤخّرها مرةً أخرى». فالأداة هنًا محذوفةٌ، ووجهُ الشبه هيئةُ الإقدام والإحجام مع الشكّ.

ـ أوضاع تشبيه التمثيل في الكلام:

لاحظ البلاغيّون أنّ تشبيه التمثيل يحتلّ أحدَ موقعين من الكلام:

١ ـ أن يجيءَ في مطْلَع الكلام، حيث تُعْرَضُ الفكرةُ ممثّلاً لها منذ البدء. وفي هذا الأسلوب تُقدَّم صورة المشبّه بشيء من التفصيل، ثم يأتي التمثيل ليكون تصويرًا محسوسًا لفكرة المشبه. ويأْنَسُ المتلقّي

في هذا الضّرب من عَرْض الفِكَر قدرةً عاليةً على الإفصاح والإبانة والوضوح التامّ: ويكثُرُ مجيءُ ذلك في الذّكْر الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾. وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

٢ ـ أنْ يجيءَ بعد تمام المعنى، قصْدًا إلى تقريره وتثبيته في النفس، وهو هنا بمثابة البُرهان المدلَّل به على صِحّة الادّعاء. وذلك كقول الشاعر:

إذا أخُو الحُسْنِ أضحى فِعْلُه سَمِجًا رأيتَ صورَتَه مِنْ أقْبحِ الصُّورِ
وهَبْكَ كالشّمسِ في حُسْنٍ ألَمْ ترَنا نفِرُّ مِنْها إذا مالَتْ إلى الضّرَرِ

شبّهَ صاحبَ المرأىٰ الحسَنِ والفِعْلِ القبيح بالشّمس نفرُّ منها حين نأنسُ ضررَها بجامع النّفور من كلّ. وقد جاء التمثيل بعد عَرْضِ المعنى فكان دليلاً على إمكانه وصحّته.

ـ تأثيرُ التّمثيل في إدراك المعنى:

أدرك علماءُ البلاغة فعاليةَ التّمثيل في إيصال المعاني وتبيّنوا ما يفعلُه في النّفس حين تُقدَّم لها الفِكَرُ في قوالبَ منه. يقول الشّيخ عبدُ القاهر: «واعْلَمْ أنّ مِمّا اتفقَ العقلاءُ عليه أنّ «التّمثيلَ» إذا جاءَ في أعقابِ المعاني أو أُبرِزتْ هي باختصارٍ في مَعْرضِهِ، ونُقِلَتْ عن صُوَرِها الأصليّة إلى صورته، كساها أُبّهةً، وكسَبَهَا مَنْقَبةً، ورفعَ من أقدارِها، وشبَّ من نارِها، وضاعفَ قُواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوبَ إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صَبَابَةً وكلَفًا، وقَسَر الطِّباعَ على أن تعطيَها محبّة وشَغَفا». ويمكِنُ تلخيصُ عمل التّمثيل في إدراك المعاني على هذا النّحْ:.

١ ـ حين يجيء التّمثيلُ بعد المعنى الغريبِ يُفيد إقامةَ الحجّة على صحّة وجود هذا المعنى في نفسِه وزيادةَ التثبّت والتقرير ونفْيَ الرّيب والشكّ. فعَمَلُ التمثيلِ في مثل هذا السِّياق كعمل كَشْف الحِجاب عن الموصوف المخبَر عنه حتى يُرى ويُبصَر؛ فقد يسمع الإنسانُ بشيء وتُذْكَر له بعضُ أوصافه ولكنّه يظلّ منكِرًا له مخالفًا فيه، حتى إذا شاهده ورآه تحقّق من وجوده ولم يبقَ لديه أدنى شكّ فيه، ولذلك يقولون: «ليس الخبَرُ كالمُعاينَةِ»، و«ليسَ مَنْ رأى كمَنْ سَمِعَ».

ومثالُ مجيء التّمثيلِ بعد المعنى الغريب وإفادتهِ إقامةَ الحجّة على صحّة وجود هذا المعنى قولُ المتنبي:

فَإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ مِنْهُمْ ... فإنّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغزالِ

أراد الشّاعرُ أن يقول إنّ ممدوحَه فاق النّاسَ وتجاوزهم إلى درجة أنه لم يَعُدْ بينه وبينهم مقاربةٌ، بل صار كأنّه جِنسٌ قائمٌ بنفسه. وهذا أمرٌ غريب، يصعبُ على العقل قبولُهُ والتصديقُ به. وهكذا يكون على الشاعر تأييدُ ادّعائه في إمكانِ وجودِ هذا الأمر أصْلاً، ثم وجوده في ممدوحه. حتى إذا قال في عَجْزِ البيت:

ـ فإنَّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغزال ـ

فقد احتجّ لِدَعْواه، وأوضح أنّ ما ادّعاه له أساسٌ في الوجود؛ إذ من المعروف عند النّاس أنّ المِسْكَ ـ وهو من الدّم أصْلاً ـ خرج عن صِفةِ الدّمِ وحقيقته، حتّى لا يُعَدّ في جنسه، إذ لا يوجد في الدّم شيءٌ من الأوصافِ الشّريفة الخاصّة بالمِسْك لا ما قلّ ولا ما كثر، ولا في المِسْك شيءٌ من الأوصاف التي جعلتِ الدّمَ دمًا.

ومثلُه قول المتنبي أيضًا:

وما أنا مِنْهُمُ بالعَيْشِ فيهِمْ ... ولكنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ

٢ - وحين يجيءُ بعد المعنى العاديّ الذي لا يُحتاج في ادّعاء كونه موجودًا إلى بيّنة وحُجّة وإثباتٍ يفيد بيانَ المقدار فيه ووضْعَ قياسٍ من غيره يكشِف عن حدّه ومَبْلَغِه في القوّة والضّعف والزّيادة والنقصان. وذلك كما في قول الشاعر:

فأصْبَحْتُ مِنْ ليلىٰ الغداةَ كقابضٍ   على الماءِ خانتْهُ فُروجُ الأصابعِ

فقد أراد الشاعرُ أن يعبِّر عن معنًى بسيط هو خيبةُ ظنّه في التّمتّع بليلىٰ والسعادة بوَصْلها. وخيبةُ ظنّ الإنسان بشيءٍ من الأشياء ليس أمرًا منكَرًا ولا عجيبًا ولا ممتنعَ الوجود. وقد مثّل الشّاعر لمعناه قاصِدًا إلى بيانِ مقدارِ خيبةِ الظنّ هذه، والإشارةِ إلى أنّه لم يحصُلْ من ظنّه على أيّ شيء مِثْلَما أنّ القابضَ على الماء بكفّه لا يحصُل على شيء. فالشاعرُ لمّا قال:

. . . . كقابضٍ   على الماء خانته فروجُ الأصابعِ

أراكَ رؤيةً لا تشكّ معها ولا ترتابُ أنه بلَغ في خيبة ظنّه وبَوارِ سَعْيه إلى أقصى المبالغ وانتهى فيه إلى الغاياتِ حتّى لم يحظَ لا بما قلّ ولا ما كثُرَ.

ويبدو لنا أنّ قُدْرَةَ التّمثيلِ على توصيلِ المعاني ومضاعفةِ قدرة الإنسان على إدراكها راجعةٌ إلى تفاوت استجابة الإنسان لِمُعْطَيات حواسّه؛ إذ إن ما يأتيه من العَيْن أكثرُ قبولاً لديه مِمّا يأتيه من الحواسّ الأُخَر. والتمثيلُ في جوهره ضَرْبٌ من الانتقال في عَرْض المعنى من الصّفة والخبَر إلى العِيانِ ورؤية البصَر؛ إنّه ضرْبٌ من المشاهدة، والمشاهدةُ تؤثّر في النّفس حتى مع عِلْم الإنسان بصِدْق الخبر المنقول إليه، كما أخبر الله سبحانه عن إبراهيمَ عليه الصّلاةُ والسّلام في قوله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. وما يقول عبدُ القاهر في هذا الشأن يجيءُ بَرْدًا على الأكْباد: «إنّ أُنْسَ النفوسِ موقوفٌ على أن تُخْرِجَها من

خفيّ إلى جَلِيّ، وتأتيَها بِصَريحٍ بعدَ مَكْنِيّ، وأن تردَّها في الشيء تعلُّمُها إيّاه إلى شيء آخرَ هي بشأنه أعلمُ، وثقتُها به في المعرفة أحْكَمُ، نحو أن تنقُلها عن العقلِ إلى الإحساس، وعمّا يُعلَمُ بالفكرِ إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع؛ لأنّ العِلْم المستفادَ من طرق الحواسّ أو المركوزَ فيها من جهة الطّبْع وعلى حدّ الضرورة يفضُلُ المستفادَ من جهةِ النّظَر والفكر في القوة والاستحكام... وضرْبٌ آخر من الأُنس، وهو ما يوجبه تقدُّمُ الإلفِ كما قيل:

ـ ما الـحُـبُّ إلّا لـلـحـبـيـب الأول ـ

.... وإذْ نقلتَها (النّفس) في الشيء بمَثَلِه عن المدرَكِ بالعقل المحض وبالفكرة في القلب إلى ما يُدرَكُ بالحَواسّ أو يُعْلَم بالطّبع وعلى حدّ الضرورة فأنتَ كمَنْ يتوسّل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصُّحبةِ بالحبيبِ القديم، فأنتَ إذَن مع الشّاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسِك غيرَ ممثَّلٍ ثمّ مثَّله كمَنْ يُخبِرُ عن شيءٍ من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجابَ، ويقول: ها هو ذا فأبصِرْ تجدْه على ما وصفتُ».

أسئلة وإجاباتها حول التّشبيه التمثيلي:

- حدّد التشبيهَ مع بيان نوعه فيما يأتي:

١ - نشَرَتْ إليّ غَدائرًا من شَعْرِها حذرَ الكواشِحِ والعدوّ الموبِقِ
فكأنّني وكأنّها وكأنّهُ صُبْحانِ باتا تحتَ لَيْلٍ مُطْبِقِ

٢ - أُقْحُوانٌ مُعانِقٌ لِشَقيقِ كثُغورٍ تعضُّ وَرْدَ الخُدودِ

٣ - لا تَحْسَبوا أنّ رقْصي بينَكم طرَبًا فالطّيْرُ يرقصُ مَذْبوحًا منَ الألَمِ

٤ - مَنْ يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليه ما لِجُرحٍ بِمَيّتٍ إيلامُ

٥ - اصْبِرْ على حسَدِ الحسو دِ فإنَّ صبْرَكَ قاتِلُهْ
فالنّارُ تأكُلُ نفْسَها إنْ لَمْ تَجِدْ ما تأكُلُهْ

- **الإجابات:**

١ - شبّه هيئةَ اجتماعِه بها يلفُّهما شعرُها الأسودُ بهيئة صُبْحين باتا ليلتَهما تحتَ ليلٍ مظلم، ووجهُ الشّبه هو هيئةُ شيء أسودَ ينضوي تحته شيئانِ يخالفانه في اللّون؛ وهذا التّشبيه تشبيهُ تمثيلٍ لجريانه في الهيئات، وهو تشبيهٌ مجمَلٌ لِعَدم ذكر وجه الشبه، وغريبٌ لخفاء الوجه، بسبب الدّقة التركيبية التي ينطوي عليها.

٢ - شبّه هيئةَ معانقة الأُقْحُوان ذي اللّون الأبيض للشّقيق ذي اللّون الأحمر بهيئة الثّغور وهي تعضُّ الخدودَ الحُمْر؛ ووجهُ الشبه فيه هيئةُ شيء ذي بياض يخالِطُ شيئًا مائلاً إلى الحمرة. والتشبيه هنا تشبيهُ تمثيل؛ لجريانه في الهيئات، ومجمل؛ لِعَدم ذِكْر الوجه، وغريبٌ؛ لخفاء الوجه. كما أنّ قوله «وزد الخدود» ينطوي على تشبيه مؤكّد؛ لإضافة المشبّه به إلى المشبه.

٣ ـ شبّه هيئةَ اضطراب المتألِّم وانتفاضِه من شدّة الألم بهيئة الطّائر المذبوح الذي ينتفض، لشدّة ما يعانيه بسبب مفارقة الرّوحِ الجسدَ، وهو تشبيهُ تمثيل؛ لجَرَيانه في الهيئات، ومجُمَلٌ؛ لعدم ذكر الوجه، وغريبٌ لخفاء الوجه، وهو تشبيهٌ ضمنيّ.

٤ ـ شبّه هيئة الإنسان يستسهل الذلَّ ويستمرئه، ولا يتألّم له، بهيئة ميِّتٍ يُجرَح فلا يُبدي حراكًا ولا يكون منه تألُّمٌ أو تأذٍّ. ووجه الشبه الهيئة المنتزعة من عدم التأثّر بما ينبغي التأثّرُ منه. وهو تشبيه تمثيل؛ لجريانه في الهيئات، ومجمل؛ لعدم ذكر الوجه، وغريبٌ؛ لدقّته. وهو أيضًا تشبيه ضمنّي أدركناه من الدّلالة العامّة للكلام.

٥ ـ شبّه هيئة الحسودِ يُتْرَك دون أن يُعبأ به فيأكلُ الحسدُ قلبَه بهيئةِ النّار لا تزوَّد بالوقود، فتعود إلى نفسِها، ويأكلُ بعضُها بعضًا؛ تشبيهُ تمثيلٍ، مجملٌ، غريبٌ.

أدواتُ التّشبيه

أدواتُ التّشبيه هي ألفاظٌ تدلّ على معنى المُماثلة والمشاركة، كالكاف في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾.

ومثلُ الكاف كلُّ ما يدلّ على المماثلة والمشاركة. وعلى الجملة فأدواتُ التشبيه حَرْفانِ وأفعالٌ وأسماءٌ تفيد جميعًا معنى المماثلة والمشاركة. وإليك تفصيلَ القول فيها:

١ ـ الحَرْفان، وهما: الكاف و«كأنّ»:

ـ أمّا «الكافُ» فهي أصلٌ في الدّلالة على معنى المماثلة والمشاركة. والأصلُ فيها أن يليها المشبّهُ به إمّا لفظًا كما في قول الشاعر:

أنا كالماءِ ـ إنْ رَضِيتُ ـ صفاءً وإذا ما سخِطْتُ كنتُ لَهِيبا

وإمّا تقديرًا كما في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾، بعد قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا . . .﴾ الآية. إذ الأصلُ: «كَمَثَلِ ذوي صيِّب». ويقول البلاغيون إنّ تقدير المشبّه به المحذوف بـ «ذوي» مرجعه إلى أنّ الضمائر الثّلاثة في ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ هي للمنافقين، وهؤلاء غيرُ مذكورين في الآية، وهكذا قُدِّر المشبّهُ به بـ «ذوي» لتعود عليه هذه الضمائر التي لا بدّ لها من مرجع، وقد قُدّر لفظُ «مَثَل» ليشاكل المعطوفَ عليه السّابق وهو قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

وليأخذ نسقُ الكلام هذه الصورة: «مثَلُهم كَمَثَلِ الّذي استوقد نارًا... أو كَمَثَل ذوي صيِّبٍ....».

وقد يلي «الكافَ» غيرُ المشبّه به؛ وذلك إذا كان المشّبه به مركّبًا أي هيئة منتزعة من أمورٍ لم يعبّر عنها بمفردٍ يدلّ عليها كلفظ «مثل أو حال»، وذُكِر بعد الكاف بعضُ ما تنتزع منه تلك الهيئة، كقوله سبحانه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾، فليس المرادُ هنا تشبيهَ حال الدّنيا بالماء، بل المرادُ تشبيهُ حال الدنيا في إقبالها على الإنسان في زِيّ حسناءَ فاتنةٍ، واغترارِه بابتسامتها الخادعة وطِلائها الكاذب، وما يعقبُ ذلك من زوال نعيمها وامّحاء بهجتها وذهاب نضارتها، بحال النبات يغذّيه الماءُ فيخضَرّ، وينضُر، ويزداد إشراقًا، ثم لا تلبث أن تذهب هذه الخُضرةُ وتتلاشى هذه النَّضرةُ ويتوارى هذا الإشراقُ، ويتحوّل النباتُ الأخضر النّضِر المشرق إلى هشيم تذروه الرّياح، وكأنه لم يكن. ووجْهُ الشبه هو الهيئةُ الحاصلة في كلٍّ من حُسْنٍ وبهجةٍ وهناءةٍ يتْلوها تلَفٌ وشَقاءٌ وفناء. وظاهرٌ هنا أنّ المشبه به لم يلِ الكاف؛ لأنه هيئة لم تُدَلّ عليها بمفردٍ كلفظ «مثل»، ولا استلزم الحالُ تقديرَه لأن الملحوظَ هنا هو الهيئةُ الحاصلة من مجموع الكلام الذي ذُكر بعد الكاف، وملاحظةُ الهيئةِ مستغنيةٌ عن هذا التقدير، ولكنْ ولِيَ الكافَ شيءٌ يتعلّق بالهيئة، وهو «الماء».

ـ وأمّا «كأنّ» فالأصلُ فيها أن يليها المشبّهُ عكس الكاف. وهي تفيد التّشبيهَ إذا كان خبرُها جامدًا، كما في قول الشاعر:

كأنَّ الثُّريّا راحَةٌ تَشْبُرُ الدّجى لتنظرَ طالَ اللّيلُ أمْ قدْ تعرَّضا

وتفيد الشّكَّ إذا كان خبرُها مشتقًا أو شبيهًا بالمشتقّ. مثلُ الأولِ قولُ الشّاعر:

كأنّكَ مِنْ كلِّ النّفوسِ مركّبٌ فأنتَ إلى كلِّ النفوسِ حبيبُ

ومثلُ الثاني قولُكَ: «كأنّ محمدًا أخوكَ» على معنى: متولّد من ماءِ أبيك. وهي في المثالين للشكّ؛ حيث إنّك تشكّ في تركيبه من كلّ النفوس أو في أُخوّته. ولا يجوز أن تكون «كأنّ» ههنا للتشبيه، لأنّ اسمَها وخبرها متّحدانِ خارجًا، والشيءُ لا يشبَّهُ بنفسه.

٢ ـ الأفعال: وهي تلك التي تفيدُ معنى المماثلة والمشاركة، ماضيةً كانت أو مضارعة، كَمَاثلَ ويُماثِلُ، وشابَهَ ويُشابهُ، وحاكىٰ ويُحاكي ويَحْكي، وضارَعَ ويُضارع، وضاهىٰ ويضاهي. تقول: «محمّدٌ ماثلَ البحرَ عطاءً»، و«هو يماثِلُ البدرَ ضِياءً»، و«محمّدٌ شابَه الجبلَ رسوخًا»، و«هو يشابهُ اللّيثَ إقدامًا»، و«محمّدٌ حاكىٰ الأحْنفَ حِلْمًا» و«هو يحاكي حاتِمًا سماحةً»، و«يحكي الغيثَ عطاءً»، و«محمّدٌ ضارعَ الأسدَ شجاعةً»، و«هو يضارعُ النّجمَ رِفعةً»، و«محمّدٌ ضاهى إياسًا ذكاءً» و«هو يضاهي سَحْبانَ فَصاحةً».

وواضحٌ أنّ المشبّه به يأتي في صورةِ المفعول به لهذه الأفعال.

وقد يقوم مقامَ أداة التّشبيه «فِعْلٌ» يدلّ على حال التّشبيه من القرْبِ والبُعْد بين الطّرفين. والفعلُ المراد هنا يأتي لليقين، ويأتي للظنّ.

ـ والفعلُ اليقينيّ يفيد قربَ المشابهة بين الطّرفين؛ لأنّ أفعال اليقين تدلّ على تيقّنِ الاتّحادِ بين الطّرفين وتحقّقه؛ وهذا يفيد التّشبيه مبالغةً. وذلك كقولكَ: «وجدْتُ زيدًا أسَدًا»، و«رأيتُ الدّنيا سرَابًا خادِعًا».

ـ والفعلُ الظنّي يُفيد بُعْدَ المشابهة بين الطّرفين؛ لأنّ أفعال الظنّ والحُسبان تدلّ على مجرّد الرُّجحان والاحتمال، وهذا يفيد

التشبيه ضعفًا. قال سبحانه: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾. وقال الشاعر:

قومٌ إذا لبِسُوا الدّروعَ حَسِبْتَها سُحُبًا مزرَّدَةً على أَقْمارِ

٣ ـ الأسْماءُ: وهي «مِثْلُ» و«شِبْهُ» وما نحا نحوَهما من الأسماء التي تدلّ على معنى المماثلة والمشاركة. ويلحق بها الأوصافُ المشتقّة المفيدة لهذا المعنى كـ «مُمَاثِل» و«مُشابِه» و«مُحاكٍ»... إلخ. تقول: «فاطمةُ مِثْلُ زينبَ في الذّكاءِ»، و«هي شِبْهُ خديجَةَ في الحياءِ»، و«فاطمةُ مماثِلَةٌ أمّها في الفَصاحة»، و«هي مشابِهةٌ جَدّتِها في الأناة».

والأصْلُ في مِثْلِ وشِبْهِ وما جرى مجراها من الأسماء المضافة لما بعدها أن يليها المشبّهُ به لفظًا أو تقديرًا.

تقسيم التّشبيه تبعًا للأداة:

ينقسم التشبيهُ تبعًا لأداته على قسمين:

١ ـ التّشبيهُ المُرْسَل ـ وهو ما ذُكِرتْ فيه أداةُ التّشبيه لفظًا أو تقديرًا ـ فمثالُ ما ذُكِرتْ فيه الأداة لفظًا قولُه سبحانه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾.

وقول الشاعر:

إنّما الدّنيا كَبَيْتٍ نَسْجُهُ من عنكَبوتِ

ومِثالُ ما قُدِّرت فيه الأداةُ قولُك: «سَجْعُه سَجْعُ الحَمَامِ ووَشْيُهُ وشْيُ الطّاووسِ»، وذلك إذا قدّرتَ في نفسك وجودَ الكاف، وأنّ المشبَّهَ مِثْلُ المشبّه به لا عينه. وسُمّي «مُرْسلاً»؛ لإرساله عن التّأكيد، أي خلُوّه من التأكيد الذي يكتسبه التّشبيهُ عند حذْف أداته؛ ذلك أنّ حذْفَ الأداة يُشعِر بحسب الظاهر أنّ المشبّهَ هوَ المشبّهُ به نفسُه.

٢ ـ التّشبيهُ المؤكّد: وهوما تُركَت فيه الأداةُ لفظًا وتقديرًا؛ أي تُرك التّصريحُ بها، وتُنوسِيَ تقديرُها في نظْمِ الكلام أيضًا إشعارًا بأنّ المشبّه عينُ المشبّه به مبالغةً، تقول: «ريحُهُ ريحُ المِسْك ونفْحُه نفحُ الطِّيب». وأنت هنا تترك ذكرَ الأداة، ولا تقدِّرُها في نفسِك، ادّعاءً منك أنّ المشبّهَ هو المشبّهُ به عينُه لا شيء سواه. ويجعل البلاغيون من ذلك قولَه سبحانه عن الجِبال يومَ القيامة: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾، يريد ـ والله أعلمُ بما يريد ـ أنّ الجبالَ يوم القيامة بعد النّفخة الأولى تسيرُ في الهواء كالسّحابِ تسوقه الرِّياحُ. والتّشبيه هنا مؤكّدٌ ومنه قولُ الشاعر:

هـمُ البُـحورُ عَـطاءً حيـنَ تسـألُـهُـمْ ... وفـي اللّـقاءِ إذا تُـلقىٰ بِـهِـمْ بُـهَـمُ[١]

ويدخلُ في التّشبيه المؤكّد ضربٌ من التّشبيه يُضاف فيه المشبّه به إلى المشبّه بعد حذْف الأداة وتقديم المشبّه به على المشبّه ـ والإضافةُ هنا بيانيةٌ يتّحد فيها مفهوما المضافِ والمضاف إليه. ومن ذلك قولُ الشاعر يصف القمرَ لآخِرِ الشّهر قبل السِّرار:

كـأنّـمـا أَذهَـمُ الإظْـلامِ حـيـنَ نَـجـا ... مِنْ أشْهَبِ الصُّبْحِ ألقَى نَعْلَ حافرِهِ

فأصلُ «أدهمُ الإظلام»: إظلامٌ كالأذهم، وأصلُ «أشهب الصّبح»: صُبْحٌ كالأشهب. وهو هنا يشبّه الظلامَ بالفَرس الأسود اللّون، والصّبحَ بالفرَسِ الأبيض الذي فيه سواد. وقد حُذِفت الأداةُ في التّشبيهين وقُدِّم المشبّهُ به على المشبّه ثم أضيف إليه.

ومنه قولُ ابن خفاجة يصف اعتدالَ الرّيح وقت الأصيل:

والرِّيحُ تعْبَثُ بالغُصونِ وقدْ جَرى ... ذَهَبُ الأصيلِ على لُجينِ الماءِ[٢]

---

(١) بُهَم: جمع بُهْمَة، وهو الشجاعُ الذي لا يُهتدى من أين يُؤتىٰ؛ أي يستبهِمُ الوصولُ إليه لضَرْبه أو للإيقاع به.

(٢) عبَثُ الرّيح بالغضون: إمالتها إيّاها. الأصيل: الوقت بين العصر إلى الغروب يوصف عادة بالصّفرة. اللّجين: الفضة.

فقد شبّه الشاعرُ الماءَ بالفضّة في النّقاء والصّفاء؛ إذْ أصْلُ تعبيره: ماءٌ كاللّجين، ثمّ حذفَ الأداةَ وقدّم المشبَه به على المشبّه ثم أضافه إليه.

أمّا مبعثُ تَسْميةِ هذا الضّرب بـ «المؤكَّد» فهو أنَّه أُكِّد وثُبِّت بدعوى اتّحاد المشبّه والمشبّه به، وأنّه لا يتميّز أحدُهما عن الآخر في شيءٍ. وهذا متأتٍّ مِن حذْفِ الأداة التي يُفيد وجودُها التفاوتَ بين المشبّه والمشبّه به.

أغراضُ التّشبيه

أغراضُ التّشبيه هي البواعثُ التي تحمِلُ المتكلّمَ على أن يعقِدَ في كلامه مشابهةً بين شيئين. وهذه الأغراضُ نوعانِ:

١ ـ ما يرجِعُ إلى المشبّه، وهو الأكثر.

٢ ـ ما يرجع إلى المشبّه به.

أولًا: الأغراضُ التي ترجع إلى المشبّه:

١ ـ بيانُ حال المشبّه، أي الوصْفُ الذي هو عليه، وذلك حين يجهل المخاطبُ حالَ المشبَّه وينشُد تعرّفَه، فيوضحُ له بإلحاقه بمشبّه به يعرّفه. تقول: «شجَرُ النّارِنْج كشَجَرِ البرتقالِ»، و«ثوبُ فلانٍ كثوبِكَ في السَّواد». ومنه قولُ امرىء القيس يصف عُقابًا بكثرة اصطياد الطيور:

كأنَّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابِسًا   لدى وَكْرِهَا العُنّابُ والحَشَفُ البالي

فقد شبّه الشاعرُ الرّطْبَ من قلوب الطيّر بالعُنّاب، واليابسَ منها بالحَشَف البالي، وقصْدُه في هذا التشبيه بيانُ أوصافِها من حيث الشّكلُ والمقدار واللّون.

ومن هذا القبيل قولُ النابغة يمدح النُّعمانَ بن المنذر:

فَإنَّكَ شمْسٌ والمُلوكُ كواكِبُ   إذَا طَلَعَتْ لمْ يبدُ منهنّ كوكبُ

فقد شبّه النابغةُ النعمانَ بين سائر الملوك بالشّمس بين سائر الكواكب، وقصَد من ذلك إلى بيان حال النّعمان مع سائر الملوك من

وجهة أنه خِيارُهم وصَفوتُهم، وإذا ظهر بينهم غمرتْ أفضالُه أفضالَهم وطغى شأنُه على شأنهم كحال الشّمس مع الكواكب. ووجهُ الشّبه هو الهيئة الحاصلةُ من الشيء الخطير يتضاءل عند وجوده الشيءُ الحقير. ويستدعي تحقيقُ هذا الغرض معرفةَ المخاطَب حالَ المشبّه به حتى لا يلزم تعريفُ المجهول بالمجهول.

٢ ـ بيانُ مقدار حال المشبّه في القوة والضّعف والزيادة والنقصان، وذلك حين يعْرِف المخاطبُ حالَ المشبه، ويجهل مقدارَ هذه الحال وينشُدُ تعرّفه، فيوضَح له هذا المقدارُ بإلحاق المشبّه بمشبهٍ به يُعرفُ مقدارُ حالِهِ، قال عنترة:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبةً   سُودًا كخافيةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

فالمخاطبُ هنا يعرف حالَ المشبّه وهو «السّواد»، ولكنّه يجهل درجةَ سواده، فجاء المتكلّمُ بهذا التشبيه ليبيِّن مقدارَ سواده وأنه في سواد الغُراب الأسْحم الذي يعرف المخاطبُ شدّة سواده.

ومنه قول الشّاعر:

إذا قامَتْ لِحَاجتِها تثنَّتْ   كأنّ عِظامَها مِنْ خَيْزُرانِ

فقد نبّه الشاعر بقوله «تثنّت» على الوصْفِ المشترك بين الطّرفين، أي على حالة من اللّين والانثناء، والمخاطبُ عرفَ ذلك، لكنه لا يعرف مقدارَ هذه اللّيونة، حتى إذا جاء الشاعرُ بالتشبيه أدرك المخاطبُ درجةَ هذه الليونة وبُيّن له أنّها على حدّ لُيونة الخيزران المعروف عند المخاطب بِلِينه وتثنّيه. ويستدعي تحقيقُ هذا الغرض أن يكون المشبهُ به أعرفَ بوجه الشّبه وأشهرَ به عند المخاطب من المشبه، وأن يكون المشبهُ به على حدّ مقدار المشبّه لا أزيد ولا أنقص؛ ليتعيّن مقدارُ المشبه على ما هو عليه.

٣ ـ بيانُ أنّ المشبّه أمرٌ ممكنُ الوجود، حين يكون أمرًا غريبًا يمكن أن يخالَف فيه ويُدَّعى امتناعه، فيُمثَّل بشيءٍ مسلَّم الوقوع ليكون بمثابة الدّليل على ثبوته، كما في قول المتنبّي في جملة قصيدةٍ يرثي بها أمَّ سيفِ الدّولة الحَمْدانيّ:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهُمْ   فإنَّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغَزَالِ

عندما ادّعى الشاعرُ أنّ ممدوحه فاق الخَلْق وتجاوزهم حتى صار أصْلاً برأسهِ وجنسًا بنفسه، أَنِس أنه ادّعى أمرًا يكاد يكون ممتنعًا وأنّ كثيرين سيردّون عليه دَعْواه، ومن ثَمّ احتجّ لهذه الدعوى وبيّن أنها أمرٌ ممكنٌ له ما يشبهه في الوجود الملموس، وهو المِسْك الّذي هو من الدّماء، لكنّه لا يُعَدّ من الدّماء؛ لِمَا فيه من الأوصاف الشريفة التي لا توجد في الدّم. وهذا التّشبيه ضِمْنيّ ومُكَنّى عنه؛ لأنّ المعنى الصريح لهذا الكلام: أنْ لا بِدْع ولا غرابة في أن يخرج الممدوحُ عن بني جنسه لمعنًى فيه ليس فيهم؛ ذلك أنّ المِسْك بعضُ دَمِ الغزال وهو ـ رغم ذلك ـ لا يُعدّ من الدّماء لما اختصّ به من معنى كريم.

ومنه قول الشاعر:

وَيْلاهُ إنْ نظرَتْ وإنْ هيَ أعْرَضَتْ   وقْعُ السِّهامِ ونزْعُهنَّ أَلِيمُ

ادّعى الشّاعرُ في صَدْر البيت أنّ كلاًّ من نَظَرِها وإعراضِها ممّا يُؤلِم، ثم أدرك أنّ هذا في الظاهر كالممتنع، ولذلك احتجّ لدعواه بأن شبّه نظَرَها بِوَقْع السّهام، بيانًا لأنّ هذا الأمرَ الذي يمكن أن يُخالَف فيه ممكنُ الوجود. والتّشبيه ضمنّي.

ويقتضي تحقيقُ هذا الغرض أن يكون المشبّهُ به أعْرفَ وأشْهرَ بوَجْهِ الشّبه من المشبّه.

٤ ـ تقريرُ حال المُشبَّه وتمكينُها في ذِهْن السّامع بإبرازها في

صورةٍ هي فيها أوضحُ وأقوى. ويكثر هذا في تشبيه الأمور المعنوية العَصِيّة على الإدراك بأمورٍ حسيّةٍ يسهُل إدراكُها، كما في تشبيه مَنْ يحاوِلُ الحصولَ على شيء عَبَثًا بِمَنْ يرْقُم على الماء، وكقولهم: «التعلّمُ في الصِّغَرِ كالنقشِ في الحجرِ». ومنه قولُ الشاعر:

إنّ القُلوبَ إذا تنافرَ وُدُّها مِثْلُ الزُّجاجةِ كَسْرُها لا يُجْبَرُ

فقد شبّه الشاعرُ القلوبَ المتنافرة المتناكرة بالزّجاجة المتصدّعة بجامع هيئة الشيء التّالفِ يتعذّر رجوعُه إلى حالِه الأولى، ولمّا كان المعنى الذي عَرَضَه الشاعرُ، وهو تنافرُ القلوبِ وعودتُها إلى التواصل، من الأمور العقلية التي لا تستيقنُها القلوبُ بيُسْرٍ ولا ترْكَنُ إليها الأذهانُ دون تساؤل، عمَد الشاعرُ إلى تصوير هذا المعنى بصورة تراها العينُ وتطمئنّ إليها النفس؛ إذ شبّهه بالزّجاجة حين تتصدّع. ومثل هذا التّشبيه يقرّر المعنى ويمكّنه في ذهن السامع وينفي عنه ما يحيط به من توهّم. وأساس ذلك أن الفِكْرَ بالحسيّات أتمُّ منه بالعَقْليّات؛ لتقدم الحسِّيّات وطولِ أُلفةِ النفس لها.

ويقتضي تحقيقُ هذا الغرض أمرين اثنين: أعرفيّة المشبه به بوجه الشبه وأتميّته فيه؛ لأنّ النفسَ إلى الأعْرف والأشهر أَمْيلُ، وهكذا فالتشبيه به لِقَصْد التقرير والتقوّية أجدر.

٥ ـ تزيين المشبَّه للمخاطَب، ترغيبًا فيه أو تعظيمًا له، بتصويره في صورةٍ تُهيج في النفس قوى الاستحسانِ، حيث يَعْمِد المتكلّمُ إلى إلحاقِ المشبّه بمشبَّهَ به تستحسنه النفسُ وتحبّه، وبذلك يُرغَبُ فيه أو تعظّم منزلته؛ لِما هو مركوزٌ في طَبْع الإنسان من أنّ المتماثلين حُكْمُهما واحد. قال أبو العلاء المعرّيّ يصِف الشيبَ:

خَبريني ماذا كَرِهتِ مِنَ الشّيـ ـبِ فلا عِلْمَ لي بِذَنْبِ المَشيبِ
أَضِياءَ النّهارِ، أمْ وضَحَ اللّؤْ لُؤِ، أم كونَه كثَغْرِ الحَبيبِ

فقد أتى الشاعر في البيت الثّاني بثلاثة تشبيهات: للشّيب ضياءٌ كضياء النّهار، وبياضٌ كبياضِ اللّؤلؤ، وهو أبيضُ كأسْنان الحبيب. ومعلومٌ أنّ الشّيبَ أمرٌ تكرهه النّفس وتعافه، لكنّ المعرّيّ عمَد إلى تزيينه بإلحاقه بمشبّهاتٍ بها تستحسِنُها النفسُ وتحبّها.

ومنه قول الشاعر:

لـه خـالٌ عـلـى صَـفَـحـاتِ خـدٍّ   كنُـقْـطـةِ عـنْـبـرٍ فـي صَـحْـنِ مَـرْمَـرْ
وألـحـاظٌ كـأسْـيـافٍ تـنـادي   عـلـى عـاصـي الـهـوى: الله أكـبـرْ

حيث شبّه الخالَ على وَجْنة الحبيب بنُقطة عنبر في صحن من المرمر، بجامع هيئةِ نُقْطةٍ سوداءَ في رقعةٍ بيضاء. وغرَضُه من ذلك تزيينُ المشبّه لأنّ نقطةَ العنبر في صحن المرمر من الصّور التي تبتهج لها النّفس ويطرب لها الحِسّ.

٦ ـ تقبيحُ المشبّه للمخاطب؛ تنفيرًا منه أو تحقيرًا له، بتصويره في صورة تهيج في النفس قوى الاستكراه والنّفور، حيث يعْمِدُ المتكلّمُ إلى إلحاق المشبّه بمشبّهٍ به تتقزّز منه النّفسُ ويمجُّه الطبعُ، وبذلك يُنفَر منه أو تُحقّر منزلتُه اعتمادًا على ما تقدّم من أنّ المتماثلين حُكْمُهما واحدٌ. قال الشاعر:

والـوَرْدُ فـي شـطِّ الـخـلـيـجِ كـأنّـهُ   رَمَـدٌ ألَـمَّ بِـمُـقْـلَـةٍ زرقـاءِ

حيث شبّه الوردَ الذي نبَتَ في شطّ الخليج بالرّمد الذي أصاب مقلةً زرقاء، بجامع الهيئة الحاصلة من وُجود لونٍ أحمرَ فوق لونٍ أزرق في وَضْع خاصّ ـ وغرضُ الشّاعر من هذا التّشبيه تقبيحُ المشبّه وتنفير المخاطب منه.

ومن هذا القبيل قولُ الشاعر:

وإذا أشـارَ مـحـدِّثًـا فـكـأنّـه   قِـرْدٌ يُـقَـهْـقِـهُ أو عـجـوزٌ تَـلْـطِـمُ

فقد شبّه الشّاعرُ هيئةَ إنسانٍ بغيض يشير في أثناء حديثه بهيئة قِرْدٍ يضحك، أو بهيئة عجوز تصفَعُ خدّيها، بجامع بشاعةِ المنظر وقُبْحه. وغرضُه من هذا التشبيه تقبيحُ المشبّه وتشويهُهُ تنفيرًا للمخاطب منه.

ويقتضي تحقيقُ التزيين والتّقبيح أن يكون المشبّه به أتمَّ وأشْهرَ من المشبّه في وجْه الشبه.

٧ ـ استطرافُ المشبّه، أي جَعْلُه طريفًا حديثًا بديعًا. ويتمّ ذلك بإحدى طريقتين:

١ ـ إبرازُ المشبّه في صورةٍ ممتنعةِ الوجود خارجًا، أو نادرة الحضور في الذهن.

٢ ـ التّشبيه بشيء يندر حضوره في الذّهن عند حضور المشبّه لِمَا بين الطّرفين من بُعْدِ المناسبة.

الأول كقول ابن لنكك البَصْرِيّ:

ورَوْضٍ عَبْقَرِيِّ الوَشْيِ غَضٍّ   يشاكِلُ حين زُخْرِف بالشّقيقِ
سماءَ زَبَرْجدٍ خضراءَ، فيها   نجومٌ طالِعاتٌ مِنْ عَقيقِ

فقد شبّه في هذين البيتين هيئةَ الرَّوْض الذي زخرفتْه شقائقُ النّعمان الحمراءُ بهيئة سماء من زبرجد أخضرَ طلَعَتْ فيها نجوْمٌ من عقيقٍ أحمر. ووجْهُ الشبه الهيئةُ الحاصلة من اجتماع لَوْنَيْنِ أخضرَ غالبٍ وأحمرَ قد غطّى بعضه. وغرَضُ الشاعر من هذا التشبيه استطرافُ المشبّه؛ لإبرازه في صورة الممتنع خارجًا أو النادر الحضور في الذهن.

والثّاني كقولِ ابن الرّوميّ يتحدّث عن البنفسجةِ:

ولا زَوَرْديّةٍ تزْهو بِزُرْقَتِها   بينَ الرِّياض على حُمْرِ اليَواقيتِ
كأنّها فوقَ قاماتٍ ضَعُفْنَ بها   أوائلُ النّارِ في أطْرافِ كِبْريتِ

فإنّ صورةَ اتصال النّار بأطراف الكبريت ليس مِمّا يندر حضورُه في الذّهن على الإطلاق، بل يندُر حضورُها عند حضور صورة البنفسج، لِما بين الطّرفين من البُعْد. ولأنّ الشاعرَ أراكَ القُرْبى بين المتباعِدَيْن أشدّ التباعد، النّبات الغضّ ولهب النار، فقد جعل المشبّهَ طريفًا. ويقول البلاغيون:

إنّ مَبْنى الطِّباع على أنّ الشيءَ إذا ظهر في مكانٍ لا يُعْهَد ظُهورُهُ فيه كانتْ صَبابةُ النفسِ به أكثرَ، وكان بتعلّق القلْبِ به أجدَرَ.

ويقتضي تحقيقُ هذا الغرض ندرةَ المشبّه به وخفاءه.

ـ ما يُشترَط في التشبيه الذي يعود فيه الغرضُ إلى المشبّه:

شرْطُ التشبيهِ الّذي ترجع أغراضُه إلى المشبّه أن يكون المشبّه به «أشْهَرَ» و«أتمَّ» في وجْه الشّبه من المشبّهِ لِيَصِحّ الإلحاقُ أو القياس. يقول السّكاكيُّ: «إنّ حَقّ المشبّه به أن يكون أعْرَفَ بجِهة التشبيه من المشبّه، وأخصَّ بها، وأقوى حالاً معها». وقد صَاغ المعرّيُّ هذه القاعدةَ البلاغيةَ شعرّا حين قال:

ظَلَمْنَاكَ في تشبيهِ صُدْغَيْكَ بالمِسْكِ وقاعدةُ التَّشبيهِ نُقصانُ ما يَحْكي

وقد شرط البلاغيون «الأعْرَفِيّةَ» في كلّ أغراض التشبيه خلا «الاستطرافَ». وأساسُ هذا الاشتراط أنّ المشبّه به هو المعرِّف لِحال المشبّه، ومعرِّفُ المجهولِ ينبغي أن يكون معلومًا، وإلّا لَزِم تعريفُ المجهول بالمجهول.

أمّا «الأَتَميّةُ» فقد شرَطها البلاغيّون عندما يقْصِد المتكلّمُ تقريبَ المشبّه وتمكينَه من نفس المخاطب؛ لِمَا هو معروفٌ من أنّ النفس البشرية أَمْيلُ إلى الأتمّ الأقوى من غيره. وهي شرْطٌ أيضًا عند إرادة تزيين المشبّه أو تقبيحه، كما أسلفنا. ورغم عدم اشتراطها في الأغراض الأُخَر تظلّ القاعدةَ الأساسية في التشبيه.

ثانيًا: الأغراضُ التي ترجع إلى المشبّه به:

قد يرجِعُ الغَرضُ من التشبيه إلى المشبّه به، وذلك ضَرْبانِ:

أحدُهما: إيهامُ المخاطبِ أنّ المشبه أتمُ من المشبّه به في وجه الشبه ـ ويكون ذلك في التشبيه المقلوب الذي يُجْعَلُ فيه الناقصُ مشبَّهًا به بادّعاء أنه أكملُ في وجه الشّبه مبالغةً، كما في قول محمّدِ بن وُهَيْب الحِمْيَرِيّ يمدَحُ المأمونَ:

وبَـدَا الـصّـبـاحُ كـأنّ غُـرّتَـهُ   وجْـهُ الـخـلـيـفـةِ حـيـنَ يُـمـتَـدحُ

أصْلُ الغُرّة بياضٌ في جَبْهة الفَرَس أكبرُ من الدّرهم، وقد استُعيرت لبياض الصّبح. وقد أراد الشاعرُ إيهامَ أنّ وجهَ الخليفة أتمّ من الصّباح في الوضوح والضّياء مبالغةً في وصْف وجهه بالطّلاقة والتهلُّل عند استماع المديح. وقد قيّد الشاعرُ إشراقَ وجه الخليفة بوقتِ سَماع المديح ليُدلّل على اتّصاف الممدوح بمعرفة حقّ المادح وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالإصْغاء إليه والابتشاش له، وعلى كماله في صِفة الكرم، ذلك أنه يتهلّل بِشْرًا وطَلاقةً عند استماع المديح، وهذا شأنُ الكِرام؛ ألَمْ يقُلْ زهير في ممدوحه:

تـراهُ إذا مـا جـئـتَـهُ مُـتَـهـلّـلاً   كـأنّـكَ تُـعْـطـيـهِ الّـذي أنـتَ سـائِـلُـهْ

ومنه قولُ البُحْتُريّ في بِرْكة المتوكّل:

كـأنّـهـا حـيـنَ لَـجّـتْ فـي تـدفُّـقِـهـا   يـدُ الـخـلـيـفـةِ لـمّـا سـالَ واديـهـا

شبّه البركةَ في تدفّق الماء منها بيد الخليفة من تدفّقها بالعطاء قاصِدًا إيهامَ أنّ يدَ الخليفة أقوى تدفقًا بالعطاء من البِرْكة بالماء مبالغةً في وصْفه بالكرم؛ وفي إضافة الوادي إلى يد الخليفة ما فيه من تقوية هذا الادّعاء.

وإلى هذا ينتمي قولُ الشاعر:

والبَدْرُ في أُفُقِ السّماء كغادةٍ بيضاءَ لاحَتْ في ثيابِ حِدَادِ
حتَّى بَدا وجهُ الصّباحِ كأنَّهُ وجْهُ الحبيبِ أتى بِلا مِيعادِ

ففي التشبيهين كليهما قَصْدٌ إلى إيهام أنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبه به.

الثّاني: بيانُ المتكلّم اهتمامَه بالمشبّه به ـ كأنْ يقولَ الجائعُ: «وجْهُ حبيبي كالرّغيف في الاستدارةِ والتلذّذ به» ـ وهو في هذا يدّعي أنّ الرّغيف أظهرُ في وجْهِ الشّبه من وجه حبيبه؛ ليبيّن بهذا التشبيه اهتمامَه بالمشبّه به وأنّه لِشِدّة جوعه لا يبرحُ مخيّلتَه ولا يغيب عن خاطره. وكأن يقولَ الفقيرُ: «وجْهُ حبيبي كالدِّينار في الاستدارة والإشراق»، مدّعيًا أنّ الدّينار أظهرُ من المشبّه في وجه الشبه، ليبيّن بهذا التشبيه مبلغَ عنايته بالمال وأنّه لِشِدّة فاقته لا يغيب عن مخيّلته. ويسمّي البلاغيّون التشبيهَ المشتملَ على هذا النوع من الغَرض «إظهارَ المطلوب». ويقولون أنّ هذا الضَّرْبَ من التشبيه لا بدّ فيه من قرينةٍ تبيّن انصرافَ المتكلّم عن تشبيه الشيء بشيءٍ مألوف تشبيههُ إلى شيءٍ آخرَ أكثرَ حضورًا في ذهنه؛ لكونه مطلوبَه في تلك اللّحظة.

تقسيم التشبيه تبعًا للغَرض:

ينقسم التّشبيهُ تبعًا للغرض على قسمين: مقبول، ومردود. وإليكَ تفصيلَ القول فيهما:

١ ـ التّشبيه المقبول: هو التشبيهُ الّذي يفي بالغرض الذي قصَد إليه المتكلّمُ حين أتى بالتشبيه:

فإن قصَد المتكّلمُ بيانَ حال المشبّه وجبَ أن يكون المشبّهُ به أعْرَفَ بوجه الشبه عند المخاطب، حتى لا يشبّه بأمرٍ مجهول لا يعرفه المخاطب.

وإنْ قصَد بيانَ مقدار حال المشبّه وجبَ أن يكون المشبّهُ به على قدْرِ المشبّه في وجه الشبه لا يزيد عنه ولا ينقص.

وإنّ قصَد بيانَ إمكان المشبّه وجبَ أن يكون المشبه به أمرًا مسلَّمَ الوقوع عند المخاطب.

وإن قصَد تقريرَ المشبّه وتمكينَه من النّفس وجب أن يكون المشبّهُ به أتمَّ في وجه الشبه من المشبّه، لِمَا هو مركوزٌ في الطبّاع من مَيْلِ النّفوس إلى الأتمّ الأقوى والثقة به.

وإنْ قصَد تزيينَه أو تقبيحَه وجبَ أن يكون المشبّهُ به أتمَّ في وجه الشّبه من المشبّه. وثمة اختلاف في هذا الشأن.

وإنْ قصَد استطرافَه وجبَ أن يكون المشبّهُ به غريبًا أو بعيدَ التصوّر.

٢ ـ التّشبيه المردود: وهو التّشبيهُ الّذي لا يفي بالغرض الذي قصَد إليه المتكلّمُ حين أتى بالتّشبيه، وذلك بأن يكون على خلاف شرْط التّشبيه المقبول الذي أسلفْنا القولَ فيه.

فالتّشبيهُ الّذي يُراد منه بيانُ الحال يكون مردودًا حين يكون المشبّهُ به مجهولَ الصفة عند المخاطب؛ والّذي يُراد منه بيانُ مقدار الحال يُرَدّ حين يكون المشبّه به أقلّ أو أكثر من المشبّه في وجه الشبه؛ والّذي يُراد منه بيانُ الإمكان يُرَدّ حين يكون وجهُ الشبه غيرَ مسلّم الوجود في المشبه به؛ والّذي يُراد منه التقريرُ يُرَدّ حين لا يكون المشبه به أتمَّ في وجه الشبه من المشبه؛ والّذي يُراد منه التزيينُ أو التّقبيح يُرَدّ حين لا يكون المشبه به أتمّ في وجه الشبه من المشبه؛ والذي يُراد منه الاستطرافُ يُرَدّ حين لا يكون المشبه به غريبًا أو بعيدَ التصوّر.

درجاتُ التشبيه
في قوّة المبالغة ووضوح الدِّلالة

ليست أساليبُ التشبيه على درجةٍ واحدة من قوة المبالغة ووضوح الدلالة ـ وعلى الجملة فإنّ لها مراتبَ ثلاثًا في هذا الأمر:

الأولى: وهي عُلْيا المراتب في قوّة المبالغة ووضوح الدلالة ـ ويحتلّها التشبيهُ الذي تُرِك فيه ذِكْرُ الوجْه والأداة جميعًا، كأن تقول: «زيدٌ أسَدٌ»؛ فإنّ هذا التّشبيه له من قوة المبالغة ما ليس لسواه. ومَأتىٰ هذه القوة أمرانِ:

١ ـ أنّ تركَ وجْه الشّبه يفيد، بحسب الظاهر، عمومَ جهة إلحاق المشبه بالمشبه به؛ بمعنى أنّ المشبّه «زيد» ـ في المثال السابق ـ يماثل المشبّهَ به «أسد» في كلّ صِفاته من القوّة والمهابة والضّخامة والجُرأة... وما يتّصل بذلك من أوصاف الأسد. فتركُ الوجْهِ يفسح المجالَ لتشبيه المشبّه بالمشبّه به في كلّ ما عُرِف عنه من صفات. وهذا يقوّي دعوى الاتحاد بين الطرفين.

٢ ـ أنّ تركَ الأداة يفيد، بحسب الظّاهر، أنّ المشبّه به في المثال المذكور محمولٌ على المشبّه، والحَمْلُ يستلزم اتّحادَ الطّرفين معنى؛ أي أنْ يكون المشبّه هو المشبّهُ به تمامًا وليس شيئًا آخر.

الثّانية: وهي وسْطى المَراتبَ ـ ويحتلّها التّشبيهُ الّذي ترك فيه ذِكْرُ الوجه أو الأداة، كأن تقول: «زيدٌ كالأسَد»، أو «زيدٌ أسَدٌ في الجرأة».

ومبعثُ كون التشبيه في هاتين الصّورتين في المرتبة الوسْطى أنّك بذِكر الأداة دلَلْتَ على التّفاوت بين المشبّه والمشبّه به ولم تترك مجالاً للمبالغة، وبِذِكْرِ الوجه حصرْتَ التشابهَ، فلم تدعْ للخيال مجالاً في الظنّ بأنّ التّشابه حاصِلٌ في كثير من الصفات. ويعني هذا في النهاية أنّ التشبيهَ في الصّورتين اشتمل على معنى الاتحاد بين الطرفين من وِجْهة واحدة.

الثّالثة ـ وهي الأخيرة ـ: ويحتلّها التّشبيهُ الذي ذُكِر فيه الوجهُ والأداةُ جميعًا ـ كما تقول: «زيدٌ كالأسَدِ في الشّجاعة» ـ وإنّما كانت هذه المرتبةُ دنيا المراتب لِخُلُوّ التّشبيه فيها من سببي القوّة المتوافرين في تشبيهات المرتبة الأولى: عُموم وجهِ الشبه، حَمْل المشبّه به على المشبه بأنه هو.

التشبيهُ الضّمنيُّ

وهو صورةٌ خاصة للتّشبيه، لا يأتي فيها المتكلّم بالمشبّه والمشبّه به على النّهج المعروف في الدّلالة على مشاركة أمرٍ لِأَمْر في معنًى على نحو واضح، بل يُفهَم فيها التّشبيه فهمًا ضمنيًا قائمًا على اللّمح والاستنتاج. ويأتي المشبّه به برهانًا على إمكان ما أُسنِد إلى المشبه. ويعْمِد المتكلّم إلى هذا الأسلوب عندما يعْرِض فكرةً يأنَسُ أنّ مخاطبه قد يُخالِفه فيها ويُنْكِر عليه مذهبَه إزاءها، فيأتي بعدها بأمر يعرِفُه المخاطبُ ويسلّم به، فكأنّ المتكلّمَ يقول لِلْمخاطب: لا تُنْكِرْ عليّ ما أزعمُ فإنّ لِما قلتُ مثيلاً تعرفُه ولا تجادِل فيه.

اسْمَعْ ما يقول البُحْتُرِيُّ:

ضَحُوكٌ إلى الأبطالِ وهْوَ يَروعُهُمْ   ولِلسَّيفِ حدٌّ حين يَسْطُو ورَوْنَقُ

أراد الشاعرُ أن يقول: إنّ حال الممدوح، وهو يَروعُ الأبطالَ ويُخيفهم ويبعث الرّعبَ في قلوبهم مع أنه يضحك لهم، كحال السيّف وهو ينزِلُ على هَامِ الكُماةِ فيسقطها مع أنه يلمعُ ويَبْرُق. ولكن الشّاعر لم يَعْرِض فكرتَه على هذا النحو الواضح من التشبيه الواضح المعالم، بل أَوْحى بالتّشبيه إيحاءً يُلحظ في عَرْض المعنى. وهذا هو «التّشبيه الضّمنيّ».

ومنه قول المتنبّي:

مَنْ يَهُنْ يسْهلِ الهوانُ عَلَيْهِ   ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

أراد أبو الطيّب أن يقول إنّ من اعتاد الهوانَ استساغَه واستمرأه ولا غرابة في ذلك فقد عرَفْنا أن الميت إذا جُرِح لا يتألّمَ. فكأنه قال: إنّ حالَ معتاد الهوان يستسهله كحالِ الميت يُجْرَح فلا يتألّم، لكنه آثر الأداءَ الضمنيّ لهذا التّشبيه لِيَدَع للعقل مَنْدوحةَ اكتشافه.

وينتمي إلى هذا القبيل قولُ أبي تمّام:

لا تُنْكِري عَطَلَ الكريمِ مِنَ الغِنى فالسّيْلُ حَرْبٌ لِلْمكانِ العَالي

أراد الشّاعرُ أن يقول: إنّ حالَ الكريمِ يبتعدُ عنه الثّراءُ كحالِ المكان العالي ينأى عنه السَّيْلُ. لكنه لم يفعل ذلك مُؤْثرًا طريقةَ التّشبيه الضمنيّ. وما أروع ما يقول عبدُ القاهر في مناقشة التّشبيه في هذا البيت:

«فهذا قدْ خيّلَ إلى السّامع أنّ الكريم إذا كان موصوفًا بالعلُوّ والرِّفْعةِ في قدْره، وكان الغِنى كالغيثِ في حاجة الخَلْق إليه وعِظَم نفْعه، وجب بالقياس أن يَزِلّ عن الكريم، زليلَ السَّيْلِ عن الطّودِ العظيم، ومعلومٌ أنّه قياسُ تخييلٍ وإيهام، لا تحصيل وإحكام».

أمثلة للتّشبيه الضمنيّ:

١ ـ قال أبو تمام يمدحُ أحدَهم:

ليسَ الحِجابُ بمُقْصٍ عنكَ لي أملاً إنّ السّماءَ تُرَجّى حين تَحْتَجِبُ

المشبّه حالُ الممدوح يحتجبُ عن الشّاعر فيقرُبُ أملُه بعطائه، والمشبّهُ به حالُ السّماء تستتر بالغيم فيُرجى إذْ ذاك غيثُها.

٢ ـ قال ابنُ الرّوميّ:

قد يَشِيبُ الفتى وليسَ عَجيبًا أن يُرى النَّوْرُ في القَضيبِ الرّطيبِ

المشبّهُ حالُ الفتى يعتلي الشّيبُ رأسَه، والمشبّهُ به حالُ الغصن الرطيب يظهر عليه الزّهر الأبيض.

٣ ـ قال المتنبيّ:

وما أنا مِنهمُ بالعيشِ فيهمْ ولكِنْ مَعْدِنُ الذّهبِ الرَّغامُ

المشبّهُ حالُ الشّاعر ينفي كونَه من أهْلِ عصره رُغمَ عيشه بين ظَهرانَيْهم، والمشبّهُ به حالُ الذّهَب ليس تُرابًا ويوجد مع التراب.

٤ ـ وقال المتنبّي أيضًا:

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عنّي أسْرَعُ السُّحْبِ في المسيرِ الجَهامُ

المشبّهُ حالُ تأخّر عطاء الممدوح مع توقّع كثرته، والمشبّهُ به حالُ السّحاب يُبطىء في المسير فيُتوقّع غزارةُ غيثه.

التشبيهُ المقلوب

وهو تشبيهُ الزائد بالنّاقصِ وإلحاقُ الأصْلِ بالفرع لِقَصْد المبالغة. وأساسُ هذا الضرب من التّشبيه أنْ يقصِد المتكلّمُ إيهامَ المخاطب أنّ الشيء القاصرَ عن نظيره في الصفة زائدٌ عليه في استحقاقِ هذه الصفة ووجوبِ أن يُجْعَل هذا القاصرُ أصْلاً فيها، فيصِحّ ـ وفق ادّعائه ـ أن يُجعلَ الفرعُ أصْلاً، ويُسمّى «التّشبيهَ المقلوب» أو «المنعكس»؛ لأنّ التشبيهَ يُعْكَس فيه فيُجْعَلُ المشبّهُ مشبهًا به، والمشبَّه به مشبّهًا، قَصْدًا إلى المبالغة.

والمِثالُ التقليديّ له قولُ محمّدِ بن وُهَيْبِ الحِمْيريّ يمدح المأمون:

وبَــدا الــصّــبــاحُ كــأنّ غــرّتَــه وجْـهُ الـخـلـيـفـةِ حـيـن يُـمْـتَـدَحُ

في سياق المدْح أراد الشّاعرُ أن يبالغَ في وصْف وجه الخليفة بالضّياء والإشراق، فادّعى أنّ وجهَ الخليفة أعرفُ وأشهرُ وأتمّ وأكمل في النّور والضّياء من الصّباح، كلّ ذلك مبالغة في وصف وجهه بالطّلاقة والبِشْر والتهلّل عند استماع المديح. ونجتزىء شيئًا ممّا قال عبدُ القاهر في فَضْل هذه الطريقة التي أسْماها «جعْلَ الفرعِ أصْلاً»:

«فإنّ في الطريقة الأولى [طريقة التّشبيه المقلوب] خِلابةً وشيئًا من السِّحْر، وهو أنه كأنّه يستكثِرُ للصّباح أن يُشبَّه بوجه الخليفة ويُوهِم أنه قد احتشد له واجتهد في طلَب تشبيهٍ يفخّم به أمرَه؛ وجِهَتُه الساحرةُ أنّه يوقع المبالغةَ في نفسِك من حيث لا تشعر ويفيدُكَها من

غير أن يظهر ادّعاؤه لها؛ لأنه وضعَ كلامه وضْعَ مَنْ يقيس على أصْل متّفقٍ عليه ويُزجي الخبرَ على أمرٍ مسلَّم لا حاجةَ فيه إلى دعوى ولا إشفاق من خِلاف مخالِفٍ وإنكار منكر... والمعاني إذا وردتْ على النفس هذا المورد كان لها ضَرْبٌ من السّرور خاصٌّ وحدث بها من الفرح عجيبٌ، وكانت كالنّعمةِ لم تكدّرْها المِنّةُ، والصّنيعةِ لم ينغّصْها اعتدادُ المصطنع لها».

ويقول البلاغيون إنّ هذا التّشبيه إنما يحسُنُ عندما يعْكِس المتكلّمُ المعنى المتعارفَ، بأن يجعل المشبّهَ به مشبّهًا، والمشبَّه مشبّهًا به. ومنه قولُ البُحْتُرِيّ:

في طَلْعةِ البَدْر شيءٌ من محاسِنِها وللْقضيبِ نصيبٌ من تثنّيها

فالمتعارفُ عند الناس تشبيهُ الوجْه الحسَن بالبَدْر، والقدّ المستقيم الميّاس بالقضيب، لكنّ الشاعر عكَس هذه الطريقة مبالغةً. وزاد هذه المبالغةَ ادّعاؤه أنّ حظّ طَلْعة البدر مِمّا عندها من المحاسن يسيرٌ ضئيل؛ فهو «شيءٌ» أيْ قليل، وكذا فإنّ نصيبَ القضيب من تثنيها محدود.

ومن هذا القبيل قولُ البحتريّ أيضًا يصِفُ بركةَ المتوكّل:

كأنّها حينَ لجّتْ في تَدَفُّقِها يَدُ الخليفةِ لمّا سالَ واديها

أراد الشاعرُ أن يشبّه يَدَ الخليفة بالبِرْكة في التدفّق والعطاء، لكن موقفَ المادحِ اقتضى منه إيهامَ أنّ يدَ الخليفة أقوى تدفّقًا بالعطاء من البركة بالماء بمالغةً في وصْفِه بالكرَم فقلب التّشبيهَ المألوف جاعلاً المشبّه «يد الخليفة» مشبَّهًا به، والمشبَّهَ به «البركة» مشبّهًا، فكان له ما أراد من مبالغة.

وكالبيت السابق قولُ الشاعر:

والبَدْرُ في أفقِ السّماءِ كغادةٍ   بيضاءَ لاحَتْ في ثيابِ حِدادِ
حتّى بدا وجْهُ الصّباحِ كأنّه   وجْهُ الحبيبِ أتى بِلا مِيعادِ

ففي كلّ من هذين البيتين تشبيهٌ مقلوب قصَد المتكلّمُ منه إيهامَ أنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبه به.

ويقرُب من هذا التشبيه ضربٌ من التشبيه يسمّيه البلاغيون «تشبيه التّفضيل»، يشبّه فيه المتكلّمُ شيئًا بشيء لفظًا أو تقديرًا، ثم يعدِل عن التّشبيه زاعمًا أنّ المشبّه أفضل من المشبّه به. كقول الشاعر:

حَسِبْتُ جمالَه بَدْرًا مُنيرًا   وأينَ البَدْرُ من ذاكَ الجمالِ؟

وقول الآخر:

مَنْ قاسَ جَدْواكَ يَوْمًا   بالسُّحْبِ أخْطَأَ مدْحَكْ
السُّحْبُ تُعطي وتَبْكي   وأنتَ تُعْطي وتَضْحَكْ

ونحسَبُ أنّ مرجعَ الخِلابة والسّحر في تشبيه التّفضيل إيهامُ الحقيقة وادّعاءُ الصّدْق؛ ففي البيت الأول أفاد كلامُ الشّاعر أنه ظنّ لأوّل وهلةٍ أنّ جمال محبوبه كجمال البدر المنير، لكنّه بعد التقصّي والتحقّق من جَلِيّة الأمر وجد بَوْنًا شاسعًا بين البَدْر وبين محبوبه، فحُكْمه النهائيّ بتفضيل الحبيب على البدر حصيلةُ استبانةِ الرّشْدِ كما قال أبو الطيّب:

بأبي الشّموسُ الجانحاتُ غواربا   اللّابساتُ من الحريرِ جلاببا
بيضٌ دعاهُنّ الغبِيُّ كواعِبًا   ولو استبانَ الرُّشْدَ قال كواكبا

جماليّات التشبيه

التّشبيه إحدى وسائل البيان التي علّمها خالقُ الإنسانِ للإنسان؛ ليصوّر بوساطتها انفعالَه بالأشياء وتصوّرَه للمعاني والفِكَر. والتشبيه أداة تعليم وتعريف تعتمد أساسًا لها إلحاقَ المجهول لدى المخاطب بمعروفٍ لديه. وهو شكْلٌ من أشكال الدّلالة يعتمد القياسَ والتمثيل والتصوير، ويقدّم للمخاطب ضرْبًا من المعرفة المجسَّدة الممثّلة المصوّرة، فحالُ الإخبارِ معه حالُ ناقلِ الخبر ومعه الدّليل، والمدّعي شيئًا ومعهُ البرهان عليه. ويبدو أنّ في جِبِلّة الإنسان احتفاءً خاصًا بالمعرفةِ التي تُقْرَن بالصّورة والعِلْمِ الذي يقترن بالمثال.

وقد لاحظ مُعَلّمُ البلاغة العربية الأولُ، عبدُ القاهر الجرجانيّ، أنّ المعانيَ حين تُورد بطريق التمثيل - وهو ضرْبٌ من التشبيه - تحظى لدى المتلقّي بقدْرٍ من الفخامة والنّبل والشّرف والكمال لا يكون لها حين تتعرّى من رداء التّشبيه. ومرجعُ ذلك في رأي الشيخ إلى أنّ التّشبيه يلبّي مطالبَ إدراكيةً كثيرة ويحقّق للنّفس كثيرًا من البَهَجات:

١ - فالتّشبيهُ في مظهرٍ من مظاهره طريقةٌ لعَرْض المعرفة تتدرّج بالنفس من المجهول إلى المعلوم ومن الغامض إلى الواضح، وأُنْسُ النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مَكْنيّ، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إيّاهُ إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحْكَمُ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعمّا يُعْلَم بالفِكْر إلى ما يُعْلَم بالاضطرار والطّبع. وجملةُ

القول أنّ المعرفة المحصّلة من طريق الحواسّ تفضُلُ لدى النّفس تلك التي تُحصّلها من جهة النّظر والفكر في القوّة والاستحكام، ولذلك قالوا. «ليس الخبرُ كالمُعاينة» و«ليس من رأي كمن سمع».

٢ ـ والتشبيهُ يمثّل للنفس مدركاتِ العقول بمدركات الحواسّ فيُحدِث لها ذلك ضربًا من الأُنس سببُه طولُ مَعْشرِها للمعاني الأُوَل التي أتتها من طريق الحواسّ، فهي الحبيبُ الأوّل الذي ملأ القلبَ فلم يدَعْ لغيره مكانًا، كما قال أبو تمام:

نقّل فؤادَكَ حيث شئتَ من الهوى ما الحُبُّ إلّا للحَبيبِ الأوّلِ

ويقول عبدُ القاهر: «إنّ العِلْمَ الأولَ أتى النفسَ أولًا من طريق الحواسّ والطّباع ثم من جهة النظر والرَّوِيّة، فهو إذن أمسُّ بها رَحِمًا، وأقوى لديها ذِمَما، وأقْدَمُ لها صُحْبةً، وآكدُ عندها حُرْمةً، وإذا نقلْتَها في الشيء بمِثْله عن المُدْرَك بالعقل المَحْض وبالفكرة في القلب إلى ما يُدْرَك بالحواسّ أو يُعْلَم بالطبّع وعلى حدّ الضرورة فأنتَ كمَنْ يتوسّل إليها للغريبِ بالحَميم، وللجديد الصُّحْبة بالحبيب القديم».

٣ ـ يقرّب التّشبيهُ بين المتباعدين ويصوّر شبَه الشيء في غير جنسه وشكْلِه فيُحْدِث ذلك في النفس ضربًا من «التعجيب» و«الإدهاش» واضحَ المعالم بيّن الآثار. ويقول الشيخ عبدُ القاهر: «إنّك إذا استقرَيْتَ التّشبيهاتِ وجدْتَ التباعدَ بين الشيئين كلّما كان أشدَّ كانت إلى النّفوس أعجبَ، وكانت النفوسُ لها أطْربَ، وكان مكانُها إلى أن تُحْدِث الأَرْيَحِيّةَ أقربَ، وذلك أنّ موضعَ الاستحسان ومكانَ الاستظراف، والمُثيرَ للدّفين من الارتياح، والمتألّفَ للنّافر من المسرّة، والمؤلّفَ لأطراف البهجة، أنّك ترى بها الشيئين مِثْلَيْن متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصّورةَ الواحدة في السّماء والأرض.. ومَبْنى الطّباع، وموضوعُ الجِبِلّة على أنّ الشيءَ إذا ظهر من مكانٍ لم

يُعْهَد ظهورُه منه، وخرج من موضع ليس بِمَعْدِنٍ له، كانت صَبابةُ النفوسِ به أكثرَ، وكانَ بالشّغفِ منها أجدرَ، فسواءٌ في إثارة التعجّب، وإخراجك إلى رَوْعة المستغرب، وجودُك الشيءَ مِنْ مكانٍ ليس مَن أمكنته، ووجودُ شيءٍ لم يوجَدْ ولم يُعْرَف من أصْله في ذاته وصفته».

٤ ـ والتّشبيهُ يمثّل الأشياءَ والمعاني بالصّورة المشاهدة فيزيد النّفسَ أُنسًا هو في جوهره اطمئنانُ قلْب الرّائي المعاينِ المُشاهِد. فقد «تعبِّر عن المعنى بالعبارة التي تؤدّيه وتبالغُ وتجتهد حتّى لا تدع في النّفوس مَنْزَعًا، نحو أن تقول وأنت تصِفُ اليومَ بالطّول: «يومٌ كأطولِ ما يُتوهَّم» و«كأنّه لا آخرَ له»، وما شاكلَ ذلك من نحو قوله:

في لَيلٍ صُولٍ تناهى العَرْضُ والطُّولُ　　كـأنّـمـا لـيـلُـهُ بـالـلّـيـل مَـوْصُـولُ

فلا تجد له من الأُنْس ما تجده لقوله:

ويـومٍ كـظـلّ الـرُّمْـحِ قـصّـرَ طـولَـه　　دَمُ الـزّقّ عـنّـا واصـطـفـاقُ الـمـزاهـرِ

على أنّ عبارتَك الأولى أشدُّ وأقوى في المبالغة من هذا، فظِلُّ الرّمح على كلّ حالٍ متناهٍ تُدرِك العينُ نهايته، وأنتَ قد أخبرتَ عن اليوم بأنّه كأنّه لا آخرَ له، وكذلك تقول «يومٌ كأقصر ما يُتصوّر» و«كأنّه ساعةٌ» و«كَلَمْح البَصَر». . . . فتجد هذا، مع كونه تمثيلاً، لا يؤنسك إيناسَ قولِهم: «أيّامٌ كأباهيم القَطَا» وقولِ ابن المعتزّ:

بُـدِّلْـتُ مِـنْ لـيـلٍ كـظـلّ حَـصَـاةِ　　لَـيْـلاً كَـظِـلّ الـرُّمْـحِ غـيـرَ مُـواتِ

وقول آخر:

ظَـلِـلْـنـا عـنـدَ بـابِ أبـي نُـعَـيْـمٍ　　بِـيَـوْمٍ مـثـلِ سَـالـفـةِ الـذُّبـابِ

وكذا تقول: «فلانٌ إذا همّ بالشيء لم يزُل ذاك عن ذكره وقلبه، وقصَرَ خواطره على إمضاء عزمه، ولم يشغَله شيء عنه»، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن، ثم لا ترى في نفسك له هِزّةً ولا تُصادف لما تسمعه أَرْيَحِيّةً، وإنّما تسمع حديثًا سَاذجًا وخبرًا غُفْلاً، حتى إذا قلت:

إذا هَمّ ألقى بينَ عينَيْهِ عَزْمَه   ونكّبَ عَنْ ذِكْرِ العواقِبِ جَانِبا

امتلأت نفسُك سرورًا وأدركتْك طُرْبة ـ كما يقول القاضي أبو الحسن ـ لا تملِك دفعها عنك. ولا تَقُلْ إنّ ذاك لمكان الإيجاز، فإنه وإن كان يوجب شيئًا منه، فليس الأصْلَ له، بل لِأَنْ أراك العزمَ واقعًا بين العينين، وفَتَح إلى مكان المعقول من قلبك بابًا من العين».

٥ ـ للتّشبيه قدرةٌ عالية على استقصاء المعنى ولمّ شتات الصّورة، ومن ثمّ يمكّن من تصوير المعاني العَصِيّة على التّعبير والمواقف المتأبية على الوصْف. ومن التّشابيه التي راقت عبدَ القاهر وجعَلَها مِثالاً لبليغ الاستقصاء وعجيبه قولُ ابنِ المعتزّ:

كأنّا وضَوْءُ الصُّبحِ يستعجِلُ الدُّجى   نُطِيرُ غرابًا ذا قَوادِمَ جُونِ

وتستهوي الصّورةُ الشّيخَ فيأخذ في تحليلها وَفْق منهجه التّعليمي قائلاً: شبّهَ ظلامَ اللّيل حين يظهر فيه الصّبحُ بأشخاصِ الغِرْبان، ثم شَرَط أن تكون قوادمُ ريشها بيضًا؛ لأن تلك الفِرَقَ من الظلمة تقع في حواشيها من حيث تلي معظمَ الصّبْح وعمودَه لُمَعُ نُورٍ يُتخيّل منها في العين كشكل قوادمَ إذا كانت بيضاء. وتمامُ التّدقيق والسّحر في هذا التّشبيه في شيء آخرَ، وهو أن جعَل ضوءَ الصّبح، لقوة ظهوره ودفْعِه لظلام الليْل، كأنه يَحْفِزُ الدُّجى ويستعجلها ولا يرضى منها أن تتمهّل في حركتها. ثم لمّا بدأ بذلك أولاً اعتبره في التّشبيه آخِرًا فقال: «نُطِير غُرابًا» ولم يَقُلْ «غراب يطير» مثلاً، وذلك أنّ الغرابَ وكلَّ طائر إذا كان واقعًا هادئًا في مكان، فأُزعِج وأُخيفَ وأُطِير منه، أو كان قد حُبس في يدٍ أو قفَصٍ فأرسل، كان ذلك لا محالةَ أسرعَ لطيرانه وأعجلَ وأمدّ له وأبعدَ لِأَمَدِه، فإنّ تلك الفَزْعةَ التي تعرِض له من تنفيره أو الفرحةَ التي تُدركه وتَحْدُث فيه من خَلاصه وانفلاته، ربما دعَتْه إلى أن يستمرّ حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه

العيون، وليس كذلك إذا طار عن اختيار، لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأوّل، وأن لا يُسْرِع في طيرانه، بل يمضي على هِينَتِهِ ويتحرّك حركةَ غيرِ المستعجلِ.

واسْمَعْ ما يقول الأخْطَلُ في تصوير نَشْوةَ الشّراب وهي تَسْري في أعطافِ الشارب:

تَدِبُّ دَبِيبًا في العِظامِ كأنَّهُ   دَبِيبُ نِمَالٍ في نقًا يتهيَّلُ

معلومٌ أنّ اللّذة التي يجدها الشّاربُ من الأمور التي يعِزّ التعبيرُ عنها على نحوٍ واضح، ولكنّ الأخطلَ مثّل هذا الإحساسَ الداخليّ في صُورةٍ معايَنةٍ يعرفها كثيرون منّا، ومَنْ عرَف دبيبَ النّمال في كثيب الرّمْل الناعم تصْعَد فينثالُ تحتَها الرّملُ فتهبط مُتَرنّحةً يَمْنةً ويَسْرة، ثمّ تعاود الكرّةَ من جديد، يدرِكُ مبْلَغَ الرّوعة والبراعة في هذا التّشبيه، ويشهد للشّاعر بالفِطْنة والذّكاء وخِصْب الخيال.

ويقول البلاغيون إنّ من بديع التشبيه قولَ المتنبّي:

بَلِيتُ بِلى الأطْلالِ إن لَمْ أقِفْ بِها   وُقُوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتَمُهْ

فقد استبدّ بالشّاعر إحساسُ الوفاء لِمَنْ سكن الدّيار فدعا على نفسه بأن ينتابَه ما انتاب أطلالَ الأحبّة من بِلى إن هو لم يقف بها وقوفَ المتعلّق بها المُنْشَدّ إليها الّذي يعِزّ عليه مغادرتُها. ولكنْ أيةُ هيئةٍ تلك التي تصوّر انفعالَه وتستقصيه ولا تدَعُ منه شيئًا؟ إنّها هيئةُ الشحيح الذي ضاعَ خاتمُه في التّراب فوقف ينقّب ويبحث ويفتّش وكأنه قد أضاعَ قِطْعةً من قلْبه يفقد الحياةَ بِفَقْدِها.

٦ ـ يُضاف إلى جماليّات التّشبيه وخِلابته وسِحْره جماليّةٌ أخرى أساسُها إعجابُنا بِمَنْ يُحْسِنون محاكاةَ الأشياء وتصويرَها التّصويرَ الدّقيق، وقد نبّه على ذلك أرسطو في كتابه «فنّ الشّعر». ونجد أصداءَ

لها عند نفر ممّن عرضوا لِسِحْر البيان العربيّ منذ الجاحظ. ولا مُواربةَ في أنّ أيّا منّا سيعتريه إحساسُ الإعجاب بالصَّنعةِ في تشبيه السَّرْو بالنساء في قول الشاعر يصف روضةً:

حُفَّتْ بسَرْوٍ كالقِيانِ تلحّفتْ خُضْرَ الحَريرِ على قَوام مُعْتَدِلْ
فكأنّها والرّيحَ حين تُميلُها تَبْغي التعانقَ ثمّ يمنعُها الخَجَلْ

قال عبدُ القاهر:

«المقصود من البيت الأول ظاهرٌ، وفي البيت الثّاني تشبيه من جِنس الهيئة المجرّدة من هيئات الحركة، وفيه تفصيل طَريفٌ فاتن، فقد راعى الحركتين حركة التهيُّؤ للدنوّ والعِناق وحركة الرّجوع إلى أصل الافتراق، وأدّى ما يكون في الحركة الثّانية من سرعةٍ زائدة تأديةً تحسَبُ معها السّمْعَ بصرًا، تبيينًا للتشبيه كما هو وتصوّرًا، لأنّ حركة الشّجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرعُ لا محالةَ من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال، وكذلك حركةُ مَنْ يُدرِكه الخجَلُ فيرتدع، أسرعُ أبدًا من حركته إذا هَمّ بالدنوّ، فإزعاج الخوفِ والوجَل أبدًا أقوى من إزعاج الرّجاء والأمل».

أسئلة وإجاباتها حول التشبيه:

أولًا: بيِّن فيما يأتي طرفي التّشبيه، والحاسّة التي يُدرَك بها كلّ منهما:

١ ـ صوتٌ كأغاريد البلابلِ، ونكهةٌ كريح الخُزامى.

٢ ـ وقَصائدٌ مِثْلُ الرّياضِ أضَعْتُها   في باخِلٍ ضاعتْ به الأَحْسابُ

٣ ـ قال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

٤ ـ والدّهرُ كالبَحْرِ لا ينفكُّ ذا كدَرٍ   وإنّما صفْوُهُ بينَ الورى لُمَعُ

٥ ـ دواء كالعَلْقمِ، ولَسْعٌ كلَسْعِ الأرْقمِ.

٦ ـ والبَدْرُ في أفقِ السّماءِ كغادةٍ   بيضاءَ لاحتْ في ثِيابِ حِدادِ

٧ ـ رُضابٌ كالعَسَل وجَبينٌ كالقمر.

٨ ـ شعر كالحرير، وقدٌّ كالغصن.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾.

١٠ ـ رائحةٌ كالمسك، وصوتٌ كصوتِ المِزْمار.

ـ الإجابات:

١ ـ المشبه هو «الصوت» والمشبه به هو «أغاريد البلابل» ويدرَكان بحاسّة السّمع (في المثال الأول) ـ المشبّه هو «نكهة» والمشبه به هو «ريح الخُزامى» ويدرَكان بحاسّة الشمّ (في المثال الثاني).

٢ ـ المشبّه «قصائد»، والمشبّه به «الرّياض»، يدرَك الأوّلُ بالسّمع، والثاني بالبصر.

٣ ـ المشبّه هو الضمير في «كأنّهم»، والمشبّه به هو «أَعجاز نخل»، ويدركان بحاسّة البصر.

٤ ـ المشبّه هو «الدّهر»، والمشبّه به «البحر»، يدرَك الأول بالعقل، والثاني بالبصر.

٥ ـ المشبّه هو «الدّواء»، والمشبه به «العلقم»، ويدرَكان بالذّوق (في المثال الأول). المشبه هو «لسْعٌ»، والمشبه به «لسْع الأرقم» (وهو من أشدّ الحيّات فتكًا)، ويدرك كلٌّ منهما باللّمس (المثال الثاني).

٦ ـ المشبّه هو «البدر»، والمشبه به هو «غادة»، ويدرَكان بحاسة البصر.

٧ ـ المشبّه هو «رُضاب» والمشبه به «العَسَل»، ويدرَكانْ بحاسّة الذوق (في المثال الأول). والمشبّه هو «جبين»، والمشبه به هو «القمر»، ويدرَكان بحاسّة البصر (المثال الثاني).

٨ ـ المشبّه هو «شعر» والمشبه به «الحرير» ويدرَكان بحاسّة اللّمس (المثال الأول). المشبه هو «قَدٌّ» والمشبّه به هو «الغصن»، ويدرَكان بحاسّة البصر (المثال الثاني).

٩ ـ المشبه هو الضمير في «عادَ» والمشبه به هو «العُرْجُون القديم» ويدرَكان بحاسّة البصر.

١٠ ـ المشبّه هو «رائحة» والمشبه به هو «المِسْك»، ويدرَكان بحاسة الشمّ (المثال الأول). المشبه هو «صوت»، والمشبه به هو «صوت المزمار»، ويدرَكان بحاسّة السمع (المثال الثّاني).

ثانيًا: حدّد فيما يأتي طرفي التّشبيه وحاليهما، ونوع التّشبيه تبعًا لهذين الطرفين:

١ ـ قُصورٌ كالكواكبِ لامعاتٍ ... يكدْنَ يُضِئْنَ للسّاري ظلاما

٢ ـ علمٌ لا ينفع كدواءٍ لا ينجع.

٣ ـ والدّهرُ يَقْرعُني طوْرًا وأَقْرَعُه ... كأنّه جَبَلٌ يَهْوي إلى جبَلِ

٤ ـ إذا ما الرّعْدُ زمجرَ خِلْتَ أُسْدًا ... غِضابًا في السّحابِ لها زَئيرُ

٥ ـ الصّديقُ المجامِلُ والأخُ الجاهل كلاهما كجَمْرِ الغضا.

٦ ـ فإن أغْشَ قوْمًا بعْدَه أو أزرْهُمُ   فكالوَحْشِ يُدْنيها مِنَ الأنسِ المَحْلُ

٧ ـ قال عليّ كرّم الله وجهَه: «مَثَلُ الذي يعْلَمُ الخيرَ ولا يعملُ به مثلُ السّراج الذي يضيءُ للنّاسِ ويَحْرِق نفسَه».

٨ ـ الحقُّ سيفٌ على أهلِ الباطلِ.

٩ ـ وفتْكتَ بالمالِ الجزيلِ وبالعِدا   فَتْكَ الصَّبابةِ بالـمُحِبِّ الـمُغْرَمِ

١٠ ـ لَـيْـلٌ وبَـدْرٌ وغُـصْـنُ   شَـعْـرٌ ووَجْـهٌ وقَـدُّ
خَـمْـرٌ ودُرٌّ ووَرْدُ   ريـقٌ وثَـغْـرٌ وخَـدُّ

١١ ـ فكم معنًى بديعٍ تحتَ خَطٍّ   هـنـاكَ تـزاوجـا كـلَّ ازدواجِ
كـرَاحٍ فـي زجـاجٍ أو كـروحٍ   سَرَتْ في جِسْمٍ معتدِلِ المِزاجِ

١٢ ـ لهُ خالٌ على صفَحَاتِ خدٍّ   كنُقْطةِ عَنْبرٍ في صَحْنِ مَرْمَرْ

١٣ ـ يكادُ يحكيك صوبُ الغيثِ منسكِبًا   لو كان طلْقَ الـمُحَيَّا يُمْطِر الذَّهَبا
والبَدْرُ لوْ لَمْ يغِبْ والشّمسُ لو نطَقَتْ   والأُسْدُ لوْ لَمْ تُصَدْ والبحرُ لوْ عذُبا

١٤ ـ أنـا فـي أمّةٍ تـداركـهـا الـلّـ   ـهُ غـريـبٌ كـصـالـحٍ فـي ثَـمُـودِ

١٥ ـ ليلتي هذه عَروسٌ مِنَ الزّنْـ   ـجِ عـلـيـهـا قـلائـدٌ مـن جُـمـانِ

ـ الإجابات:

الرقم	المشبه	المشبّه به	حال المشبّه	حال المشبه به	نوع التشبيه
١	قصور	الكواكب	مفرد حسّي	مفرد حسّي	
٢	علم لا ينفع	دواء لا ينجع	مفرد مقيّد عقلي	مفرد مقيّد حسّي	
٣	الهاء في «كأنه»	جبلٌ يهوي	مفرد مقيّد عقلي	مفرد مقيد حسّي	
٤	صوت الرعد	صوت السباع الغضاب	مفرد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
٥	الصديق المجامل والأخ الجاهل	جمر الغضا	متعدّد حسّي	مفرد مقيد حسّي	
٦	ضمير الفاعل في «أغش»	الوحش	مفرد مقيّد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
٧	الذي يعلم الخير ولا يعمل به	السّراج	مفرد مقيّد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
٨	الحقُّ	سيف	مفرد عقليّ	مفرد مقيّد حسي	
٩	فتكه بالمال وبالعدا	فتك الصبابة	مفرد حسّي	مفرد مقيد عقلي	
١٠	ليل وبدر وغصن	شعر ووجه وقدّ	متعدد حسّي	متعدد حسّي	ملفوف
١١	المعنى البديع تحت الخط	الراح أو الروح	مفرد عقلي مقيد	الأول مفرد مقيد حسّي والثاني مفرد مقيد عقلي	جمع
١٢	صورة الخال على صفحة الخد	صورة نقطة العنبر في صحن المرمر	مركّب حسّي	مركّب حسّي خيالي	
١٣	صوبُ الغيث والبدر والشمس والأسد والبحر	المخاطب المدلول عليه بكاف الخطاب	متعدّد حسّي مقيد	مفرد حسّي	
١٤	المتنبي بين المختلفين عنه	نبيّ الله صالح في ثمود	مفرد مقيد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
١٥	الليلة وقد أضيئت فيها الأنوار	العروس الزنجية تزيّنت باللؤلؤ	مفرد مقيد حسّي	مفرد مقيد حسي	

ثالثًا: حدّد وجهَ الشبه ونوع التّشبيه تبعًا له فيما يأتي:

١ ـ لفظٌ كالسحر، وخلُقٌ كالعِطْر.

٢ ـ له صوتٌ كرنين الأوتار.

٣ ـ التّقيُّ كالمِصْباح يضيء في الظلام.

٤ ـ زيدٌ كأخيه شجاعةً وعفّةً وجودًا.

٥ ـ خَطابةُ قُسّ كالسِّحر تأخذ بمجامع القلب.

٦ ـ وما المَرْءُ إلّا كالشِّهابِ وضوئهِ يحورُ رَمَادًا بعْدَ إذْ هُوَ ساطِعُ

٧ ـ مُهَفْهَفٌ وجْنَتاهُ كالخَمْرِ لونًا وطعْما

٨ ـ طلْقٌ شديدُ البأسِ راحتُه كالبَحْرِ فيهِ النّفْعُ والضّرَرُ

٩ ـ النّساءُ حبائلُ الشيطانِ.

١٠ ـ هذا أبو الهَيْجاءِ في الهيجاءِ كالسَّيْفِ في الرَّوْنَقِ والمَضاءِ

١١ ـ قال عليه الصّلاةُ والسلام: «مُضَرُ صَخْرةُ الله التي لا تُنْكَل».

١٢ ـ كأنَّ انتضاءَ البَدْرِ مِنْ تحتِ غَيْمِهِ نَجاءٌ مِنَ البَأْساءِ بعْدَ وُقوع

١٣ ـ وأَرْضٌ كأخْلاقِ الكريمِ قطعْتُها وقد كحّلَ اللّيلُ السِّماكَ فأَبْصَرا

١٤ ـ قال البُحْتُريُّ يصِف فَرسًا:

ترى أحْجالَهُ يَصْعَدْنَ فيهِ صُعودَ البَرْقِ في الغَيْمِ الجَهامِ

ـ **الإجابات :**

الرقم	وجه الشبه	نوع التّشبيه تبعًا للوجه
١ ـ المثال (١)	التأثير	تحقيقيّ ؛ إذ وجه الشبه متحقّق في الطرفين، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
المثال (٢)	استطابة النفس	تخييلي ؛ لتخيله في المشبه، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
٢ ـ	النّغم الحسن	تحقيقي، لتحقق الوجه في الطرفين، واحد، حسّي، مجمل، قريب.
٣ ـ	الإضاءة في الظلام	تخييلي؛ لتخيّل معناه في المشبه، واحد، حسي، مجمل، قريب.
٤ ـ	الشجاعة والعفة والجود	تحقيقي؛ لتحقق وجه الشبه في الطرفين، متعدّد، عقلي، مفصل للتصريح بوجه الشبه، غريب لخفاء الوجه بسبب تعدّده.
٥ ـ	التأثير والنفاذ	تخييلي في المشبه، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
٦ ـ	الوجود الذي يعقبه الفناء	تحقيقي، مركّب، عقليّ، تمثيل؛ لأنه يجري في الهيئات، مجمل، غريب.
٧ ـ	اللّون والطعم	تحقيقي في اللون، تخييلي في الطعم، متعدّد، حسّي، مفصّل، غريب.
٨ ـ	النفع والضرر	تحقيقي، متعدّد، عقليّ، مجمل، غريب.
٩ ـ	الإغواء أو الإغراء	تحقيقي، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
١٠ ـ	الرونق والمضاء	تحقيقي، متعدّد، حسّي في الرونق، عقلي في المضاء، مفصل، غريب.
١١ ـ	الوطأة	تحقيقي، واحد، حسّي، مجمل، قريب.
١٢ ـ	هيئة التخلّص من حالة إلى أخرى أفضل منها	تحقيقي مركب، عقليّ، تمثيل، مجمل، غريب.
١٣ ـ	السعة والسهولة	تحقيقي، متعدّد، حسّي في المشبه، عقليّ في المشبه به، مجمل، غريب.
١٤ ـ	هيئة اجتماع لونين مختلفين	تحقيقي، مركّب، حسّي، تمثيل، مجمل، غريب.

رابعًا: حدِّد وجهَ الشّبه، ونوعَ قيامه بكلٍّ من الطرفين من حيث تحققُه أو تخيّله أو ادعاؤه في العبارات الآتية:

١ ـ تُحطِّمُنا الأيّامُ حتّى كأنّنا زُجاجٌ ولكنْ لا يُعادُ لَنا سَبْكُ

٢ ـ ثوبُ المؤمنِ كقَلْبه.

٣ـ والنفسُ كالطّفْلِ إن تُهْمِلْه شبَّ على حُبِّ الرّضاعِ وإنْ تَفْطِمْه يَنْفَطِمِ

٤ ـ بَاقِلُ كسَحْبانَ.

٥ ـ الحياةُ قنطرةٌ فاعبُروها ولا تَعْمُروها.

٦ ـ فانهضْ بِنارٍ إلى فحْمٍ كأنّهما في العَيْنِ ظُلْمٌ وإنصافٌ قد اتّفقا

ـ الإجابات:

١ ـ وجهُ الشّبه هو «سرعة الكَسْر»، وهي قائمةٌ بالطّرفين حقيقةً.

٢ ـ وجه الشّبه هو «البياض»، وهو حقيقي في المشبه، تخييلي في المشبه به؛ فإنّ القلوب ليست من ذوات الألوان. وقد جعل القلْبَ مشبّهًا به؛ لاعتباره أصلًا في البياض على سبيل المبالغة.

٣ ـ وجهُ الشبه هو «تحكّم العادة»، وهو قائمٌ بالطرفين حقيقةً.

٤ ـ باقِلُ يُضْرَبُ به المَثَلُ في العِيّ، وسَحْبانُ يُضْرَب به المثَلُ في الفصاحة. ووجْهُ الشبه هنا هو «الفَصاحة»، وهو في المشبه ادّعائيّ، وفي المشبه به حقيقي؛ وذلك بتنزيلِ التضادّ بين الطرفين منزلةَ التناسب، وجَعْلِ العِيّ بمنزلة الفصاحة تهكّمًا أو تمليحًا.

٥ ـ وجْهُ الشّبه هو «سُرْعةُ مرورِ الإنسان بهما»، وهو قائم بالطرفين حقيقةً.

٦ ـ وجه الشّبه هو هيئةُ اجتماع بياض بسواد، حيث شبّه النارَ والفَحْمَ مجتمعين بالعَدْل والظّلْمِ مجتمعين أيضًا في الهيئة المذكورة،

وهي قائمةٌ بالمشبه حقيقةً، وبالمشبه به تخيلاً بعد اعتداده أصْلاً في هذه الهيئة، يُقاس عليه مبالغةً.

خامسًا: حدّد أركانَ التشبيه وأقسامه تبعًا لكلٍّ من هذه الأركان، والغرضَ منه فيما يأتي:

١ ـ تُحَطِّمُنا الأيّامُ حتّى كأنّنا   زُجاجٌ ولكنْ لا يُعادُ لنا سَبْكُ
٢ ـ إنّي إذا خَفِيَ الرّجالُ وجَدْتَني   كالشّمْسِ لا تخفى بكلّ مكانِ
٣ ـ كأنّ بَنِي نَبْهانَ يومَ وفاتِه   نُجومُ سَماءٍ خرَّ من بَيْنِها البَدْرُ
٤ ـ ونَحْنُ كماءِ المزن ما في نصابنا   كَهامٌ، ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ
٥ ـ كمْ نعمةٍ مرَّتْ بِنا وكأنّها   فَرَسٌ يُهَرْوِلُ أو نسيمٌ ساري
٦ ـ كأنَّ سُهَيْلاً والنجومُ وراءه   صفوفُ صلاةٍ قام فيها إمامُها
٧ـ العِلْمُ في الصَّدْرِ مثلُ الشمسِ في الفَلَكِ   والعقْلُ للمَرْءِ مِثْلُ التّاجِ للمَلِكِ
٨ ـ قال المتنبي يصِف أسدًا:

مـا قُوبِلَتْ عَيْناه إلّا ظُنّتا   تحتَ الدُّجَى نارَ الفَرِيقِ حُلولا

ـ الإجابات:

الترتيب	الأداة	أقسامه تبعًا لها	المشبه به	أقسامه تبعًا له	المشبه به	أقسامه تبعًا له	الوجه	أقسامه تبعًا لها	الغرض من التشبيه
١	كأن	مرْسَل	ضمير «نا»	حسي مفرد	زجاج	حسي مفرد	سرعة الكسر	مجمل، غير تمثيل	بيان حاله
٢	الكاف	مرْسَل	الياء في «وجدتني»	حسي مفرد	الشمس	حسي مفرد	نباهة الذكر	مفصّل غير تمثيل	بيان حاله
٣	كأن	مرْسَل	بنو نبهان	حسي مفرد مقيّد	نجوم	مركب	فقد الأحسن	مجمل، غير تمثيل	بيان حاله
٤	الكاف	مرْسَل	قوم الشاعر	حسي مفرد	ماء المزن	حسي مفرد	نقاء الجوهر	مجمل، غير تمثيل	بيان مقدار حاله
٥	كأنّ	مرْسَل	نعمة	عقلي مفرد	الفرس أو النسيم	حسي مقيد	السرعة	مجمل، غير تمثيل	بيان مقدار حاله
٦	كأنّ	مرْسَل	سهيلًا والنجوم	حسي مركب	صفوف	حسي مركب	صورة جِرْم مضيء يتقدّم مجموعة أجرام مضيئة	مجمل، تمثيل	بيان حاله
٧	مثل	مرْسَل	العلم	عقلي مفرد	الشمس	حسي مفرد	الهداية والنفع	مجمل، غير تمثيل	بيان حاله
	مثل	مرْسَل	العقل	عقلي مفرد	التاج	حسي مفرد	الزينة	مجمل، غير تمثيل	تحسين المشبه أو تقريره أو بيان مقدار حاله
٨	ظُبَتا	مرْسَل	عينا الأسد	حسي مفرد	نار الفريق	حسي مفرد	الاحمرار والبريق	مجمل، غير تمثيل	بيان مقدار حاله

المبحث الثاني:

المجاز

ويتضمن:

- مقدّمة في معنى الحقيقة والمجاز.
- نوعا المجاز: المجاز المفرد، المجاز المركّب.
- المجاز العقلي.

١ ـ المجاز المفرد ـ وقسماه:

الاستعارة ـ المجاز المرسل.

* الاستعارة:

- تعريفها لغةً واصطلاحًا.
- أركانُها.
- شروط تحقيق الاستعارة.
- قرينة الاستعارة.
- تقسيمات الاستعار:

أولًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين (الوِفاقيّة، العِناديّة، قِسْما الاستعارة العناديّة: التهكُّميّة ـ التمليحيّة).

ثانيًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للجامع (الدّاخلية ـ غير الدّاخلية، العامّيّة ـ الخاصيّة، تغريب الاستعارة المبتذلة).

ثالثًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين والجامع.

رابعًا: تقسيم الاستعارة تبعًا لِذِكْر أحد طرفيها (التصريحية - المَكْنية).

- الاستعارة التصريحية تبعًا لِلَفظ المستعار: أصْليّة، تبعيّة - قرينة الاستعارة التبعيّة.

- الاستعارة التصريحية تبعًا للمُلائم: مرشّحة، مجرّدة، مُطْلقة.

- الاستعارة المَكْنية (تعريفُها - أمثلةٌ لها - قرينتُها - تقسيماتها: أصليّة، تبعيّة، مرشحة، مجرّدة، مطلقة).

- محسنات الاستعارة.

* المَجاز المُرْسَل:

- تعريفُه.

- أمثلةٌ له.

- علاقاته (السّببية - المُسَبَّبيّة - اللاّزمية - المَلْزومية - الكُلّية - الجُزْئية - الحَالّيَة - المَحليّة - الآلّيَة - اعتبار ما كان - اعتبار ما يكون - المُجاورة - العُموم - الخُصوص - التعلّق الاشتقاقي).

٢ - المَجاز المركّب:

- تعريفُه.

- قِسْماه:

١ - الاستعارة التمثيلية.

٢ - المجاز المركَّب المُرْسَل.

- المجاز العَقْليّ (المُراد منه - صُوَرُه وعلاقاته - جماليّاته).

مقدّمة في معنى الحقيقة والمجاز:

ما يهمّ علمَ البيان هو «المَجاز» دون الحقيقة؛ لأنّ المجاز هو الّذي يحصل فيه اختلافُ الطّرق والتّراكيب في وضوح الدّلالة على المعنى المُراد. أمّا الحقيقةُ فلا يحصل فيها اختلاف؛ لأنّ الدّلالة فيها ثابتةٌ لا تتغيّر، فإمّا أن يَعْرِفَها المخاطبُ دفعةً واحدة وإما أن يجهلَها دفعةً واحدة أيضًا.

وقد اقتضى التّفاهمُ بين النّاس أن يكون لكلّ شيء اسمٌ يُستدَلّ به عليه، فإذا ذُكِر ذلك الاسمُ عُرِف منه ذلك الشيء؛ وبذلك عَرَف الإنسانُ أسماءَ الأشياء، أي الكلمات الدّالة عليها. فلفظُ «أسَد» مثلًا دالٌّ في الوَضْع على الحيوان المفترس. لكنّ العربيّ في أثناء استعماله استخدم هذا اللّفظَ في مُسمًّى آخر غيرِ ذلك الحيوان، وهو الرّجل الشجاع. وهكذا فإنّ لفظ «أسَد» في استعماله الأوّل، أي في ذلك الحيوان، حقيقةٌ ـ وفي استعماله اللّاحق، أي استعماله في الإنسان الّذي له خُصوصيّة الشجاعة، مجازٌ. وكذا الحالُ في لفظ «بَحْر» الّذي استخدمه العربيّ أولًا للدّلالة على ذلك الحيز العظيم من الماء، لكنّه في مسيرة تكلُّمه استخدمه أحيانًا في مدلولٍ آخر غير ذلك الحيز العظيم من الماء، وهو الرجل الكريم. وتبعًا لذلك فإنّ لفظ «بَحْر» في استعماله الأوّل، أي في ذلك الحيز العظيم من الماء، حقيقةٌ، وفي استعماله اللّاحق، أي في الرّجل الكريم، مجاز.

هذه هي الحالُ في الواقع اللغويّ العربيّ في تاريخه الطويل، أمّا المرادُ من الحقيقة والمجاز لغةً واصطلاحًا فإليكَ القولَ فيه:

ـ الحقيقةُ:

الحقيقةُ ـ لغةً ـ وصْفٌ على وزن فَعِيل بمعنى فاعل، أي حقيق بمعنى حاقّ، وهو مأخوذٌ من «حقَّ الشيءُ» إذا ثبت، فالحقيقُ الثّابت. أو بمعنى مفعولٍ، أي حقيقٌ بمعنى محقوق، وهو مأخوذ من حقَقْتُ الشيءَ إذا أثبتَّه، فالحقيقُ هنا المُثْبَت. وهكذا فالحقيق ـ لغةً ـ الثابتُ أو المُثْبَت. لكنّ العلماءَ اصطلحوا على نَقْل هذا اللفظ «حقيق» من كونه وصْفًا بمعنى ثابت أو مثبت، وجعلوه اسْمًا للكلمة التي تُستعمل في معناها الأوّل، ككَلِمة «أسَد» في الحيوان المفترس، و«بَحْر» في الحيز العظيم من الماء. لأنّ هذه الكلمةَ ثابتةٌ في مكانِها الأصْليّ أو مُثْبَتةٌ في مكانها الأصليّ، وقد أُلحقت بها التّاءُ للدّلالة على نَقْلها من الوَصْفية إلى الاسمية.

وهكذا قال البلاغيون إنّ الحقيقةَ ـ اصطلاحًا ـ هي الكلمةُ المستعملة فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح التّخاطب. فكلمةُ «أسَد» حين تُستعمل في الحيوان المفترس المعروف «حقيقةٌ»؛ لاستعمالها فيما وُضِعَتْ له في كافة الاصطلاحات. وكلمةُ «الصّلاةِ» حين يستعمِلُها المتكلّم بِعُرْف الشّرْع في الأركان الخاصّة «حقيقةٌ» أيضًا؛ لاستعمالِها فيما وُضِعَتْ له في اصطلاحات أهل الشرع. وكلِمةُ «الصّلاة» حين يستعملها المتكلّمُ بِعُرْف اللّغة في «الدّعاء» حقيقةٌ أيضًا؛ لاستعمالها فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح أهل اللّغة. ولكلّ قوم من المخاطبين عُرْفٌ خاصٌّ بهم يُحدَّد على أساسه الاستعمالُ الحقيقيّ والاستعمال المجازيّ.

ـ المجاز:

يرى عبدُ القاهر أنّ المَجازَ ـ لغةً ـ مصْدَرٌ مِيميٌّ على وزن «مَفْعَل» من جازَ المكانَ يجوزُه إذا تعدّاه. **ثم نُقِل إلى الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعَتْ له؛ لأنها جائزةٌ مكانَها الأصليَّ، أوْ**

مَجُوزٌ بها مكانُها الأصليّ. وهكذا اتّخذ المصْدرُ «مجاز» معنى اسمِ الفاعل «جائز» أو اسمِ المفعول «مَجوزٌ به».

وذهب الخطيبُ القَزْوينيُّ إلى أنّ المَجاز ـ لغةً ـ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى مكان الجواز من قولهم: «جَعلْتُ كذا مَجازًا إلى حاجتي» أي طريقًا إليها، على معنى «جاز المكانَ» بمعنى سَلَكَه واتّخذه طريقًا إلى كذا. ثمّ نُقِل إلى **الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعَتْ له؛ لأنها طريقٌ إلى تصوير المعنى المراد منها.**

نوعا المجاز:

للمجازِ نوعانِ: مُفْرَدٌ، ومركَّبٌ.

والمجازُ المفردُ هو:

الكلمةُ المستعملةُ في غير ما وُضِعَتْ له في اصطلاح التّخاطب؛ لِعلاقةٍ بين المعنى الأوّل «الوَضْعِيّ» والثّاني «المَجازيّ»، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأوّل.

وهذا المجازُ موضِعُه الكلماتُ المفردة، وطريقُهُ اللغةُ الّتي تحدِّد كونَ الكلمة حقيقةً أو جائزةً موضعَها متّخِذةً دِلالةً غير دلالتها الوَضْعية. قال عبدُ القاهر: «فإذا وصَفْنا بالمجازِ الكلمةَ المفردة كقولِنا «اليدُ مجازٌ في النّعْمةِ» و«الأسدُ مجازٌ في الإنسان وكلّ ما ليس بالسَّبُع المعروفِ» كان حُكْمًا أجريْناه على ما جرى عليه مِنْ طريق اللّغة؛ لأنّا أردْنا أنّ المتكلّمَ قد جاز باللّفظةِ أصْلَها الذي وقعتْ له ابتداءً في اللّغة وأَوْقَعَها على غير ذلك إمّا تشبيهًا وإمّا لِصِلةٍ أو مُلابسةٍ بين ما نَقَلها إليه وما نَقَلَها عنه».

وقد انطوى تعريفُ المَجاز المفرد على مصطلحَيْن يَرِدانِ كثيرًا في حديثِ المجاز هما: العلاقةُ، القرينة. ونقدّمهما لك بشيءٍ من التحديد:

العلاقةُ: هي صِلةٌ أو مُلابَسَةٌ بها يتعلّق المعنى المجازيُّ للكلمة بمعناها

الوضعيّ، مِمّا يسهّل انتقالَ الذهن من المعنى الأول «الوَضْعيّ» **إلى المعنى الثاني** «المجازيّ». فالعلاقةُ بين «أسَد» بمعنى السَّبُع المعروف، و«أسَد» بمعنى الرّجل الشّجاع هي المُشابهةُ. وعلاقةُ المشابهة هذه هي الّتي تسهّل انتقالَ الذهن من المعنى الوَضْعيّ لـ «أسد» إلى معناه المجازيّ في قولك: «رأيتُ أسَدًا في القَصْر»؛ تريد رجلًا شجاعًا.

القرينةُ: هي الأمرُ الّذي يَنْصِبُه المتكلِّمُ دليلًا على أنّه أراد باللّفظ غيرَ معناه الوضعيّ. وهذه القرينةُ نوعانِ: لفظيّة، وحَالية. فاللّفظية هي الّتي يُتلفَّظ بها في التّركيب كقولِك «في القَصْر» في المثال السابق؛ حيث دلّ هذا التعبيرُ على أنّ المُراد بـ «أسدًا» في الجملة غيرُ معناه الوضعيّ، أي السّبع المعروف. والحَالِيّةُ هي الّتي تُدْرَك من حال المتكلّم أو من الواقع.

ومن المجاز المفرد كلمةُ «أسد» في الرّجل الشجاع في قولكَ: «رأيتُ أسدًا يعلِّم الناسَ فنونَ الحَرْب». وكلمةُ «الغيث» في النّبات في قولكَ: «رَعَتِ الماشيةُ الغَيْثَ». فكلٌّ من «أسد» و«الغيث» مجازٌ مفرد.

قسما المجاز والمفرد:

يُقْسَم المجازُ المفرَدُ تبعًا لِلْعلاقة على قسمين:

١ ـ الاستعارة. ٢ ـ المجاز المُرْسَل.

فحين تكون العلاقةُ بين المعنى الوَضْعيّ للكلمة ومعناها المجازيّ **المُرادِ في السّياق «المشابهةَ» يُسمّى المجازُ «استعارةً»؛ كما في كلمة** «أسد» المستعارة للرّجل الشّجاع **في قولنا المتقدّم: «رأيتُ أسدًا يعلّم** الناسَ فنونَ الحرْب»؛ فإنَّ العلاقة بين «**الأسَد**» بمعناه الوضعيّ (السَّبُع) والأسد بمعناه المجازيّ (الشّجاع) هي المشابهةُ في الإِقْدام.

وحين تكون العلاقةُ بين المعنَيَيْن شيئًا آخر غير المشابهة فإن

المجازَ يُسمّى «مجازًا مُرْسَلًا»، كما في كلمة «الغَيْث» المستعملة في النّبات فى مِثالنا: «رَعَتِ الماشيةُ الغَيْثَ»؛ فإنّ العلاقة بين الغيث والنّبات هي «السّببيّة»؛ أي كون الغيث سببًا للنّبات.

وصَفوْةُ القول:

أنّ استعمالَ الكلمةِ في غير ما وُضِعَتْ له لِعَلاقة المشابهة يُفْضِي إلى الاستعارة، واستعمالَها هكذا لِعلاقة غير المُشابهة يُفْضِي إلى المجاز المُرْسَل.

وإليكَ تفصيلَ القول في هذين الفنّين:

فنّ الاستعارة

الاستعارةُ ـ لغةً ـ مِنْ عَارَ الشيءَ يَعُورُه ويَعِيره؛ أخذَه وذهبَ به، كما تؤخذ العارِيَّةُ، وهي ما يتداولونه بينهم.

وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

الكلمةُ المستعمَلةُ في غير معناها الوَضْعيّ لِعلاقة المُشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعيّ.

وقد أوضحَ هذا عبدُ القاهِرِ حين قال: «اعلم أنّ الاستعارةَ في الجُمْلةِ أنْ يكون لِلّفظِ أصْلٌ في الوضعِ اللغويّ معروفٌ تدلُّ الشواهدُ على أنّه اختصَّ به حين وُضِع، ثم يستعمله الشّاعرُ أو غيرُ الشاعر في غيرِ ذلِكَ الأصْلِ ينقلُه إليهِ غيرَ لازمٍ فيكون هناك كالعاريّة».

وجوهرُ الاستعارةِ أنّها تشبيهٌ حُذِف أحَدُ طرفَيْه ووجْهُ شبَهِه وأداتُه، وهي أبلغُ مِنَ التّشبيه؛ لقوّة ادّعاء الاتّحاد والامتزاج بين المشبّه والمشبّه به، إلى حدّ زَعْم أنهما صارا معنًى واحدًا، يُستعمل فيه لفظٌ واحد. تقول: «رأيتُ أسدًا في شُرْفةِ القَصْرِ»، فيكون هذا تعبيرًا استعاريًا أصْلُه: «رأيتُ رجلًا شجاعًا كالأسَدِ في شرفة القَصْرِ». وجليٌّ أنّك في التعبيرِ الاستعاريّ حذفْتَ المشبّه «رجلًا» وأداةَ التشبيه «الكاف» ووجهَ الشبهَ «الشجاعة». أمّا عِبارةُ «في شُرْفةِ القَصْر» فجاءت قرينةً تدلّ على أنّ مرادك بالأسَدِ في هذا السّياق «الشّجاعُ».

وعلى هذا فإنّ كلمةَ «أسد» في المثال استعارةٌ؛ لأنّها مستعملةٌ

في غير معناها الوَضعيّ لعلاقة المشابهة بين المعنى المجازيّ «الشّجاع» والمعنى الوَضعيّ «السَّبُع المعروف»، مع قرينةِ «كَوْنِ الأسد في الشّرفة» التي منعت إرادةَ المعنى الوضعيّ.

وتقولُ: «رأيتُ قَمَرًا في بَيْتِ الجيران»، فيكون هذا تعبيرًا استعاريًا أَصْلُه: «رأيتُ فتاةً وضيئةَ الوَجْهِ كالقمرِ في بَيْتِ الجِيران». وقد حذَفْتَ في التعبير الاستعاريّ المشبّهَ «فتاة»، وأداةَ التشبيه «الكاف»، ووجْهَ الشَّبَه «الوضاءة والإشراق». وجاءت عبارةُ في بيت الجيران قرينةً تحدّدُ مُرادَكَ من لفظ «قمر» بأنه الفتاةُ الحسناء، لا القمر الحقيقيّ.

وهكذا نقول إنّ كَلِمةَ «قمر» في المثال استعارةٌ؛ لأنها مستعملةٌ في غير معناها الوَضْعيّ لِعَلاقة المشابهة بين المعنى المجازيّ «الفتاة الحَسْناء» والمعنى الوضعيّ «الجِرْم الوضَّاء في السّماء»، مع قرينة «كون القمر في بيت الجِيران» التي حدّدت المرادَ من اللّفظ، وأنّه المعنى المجازيّ لا الوضعيّ.

أركانُ الاستعارة:

أركانُ الاستعارةِ ثلاثةٌ هي:

١ ـ المُستعارُ منه ـ وهو ذاتُ المشبّه به، كالسَّبُع في قولكَ: «رأيتُ أسَدًا في شُرْفةِ القَصْر»، حيث يُستعار منه اللّفظُ الموضوع له «أسد»، ويُعطى لغيره «الشجاع».

٢ ـ المُستعارُ له ـ وهو ذاتُ المشبَّه، كالرّجل الشجاع في المثال السّابق، حيثُ يُستعار له اللّفظُ الموضوعُ لغيره «أسد».

٣ ـ المُستعارُ ـ وهو اللّفظُ المنقولُ «أسد»؛ لأنّه استُعير من صاحبه «السَّبُع» لغيره «الشّجاع».

وهكذا يتبيّنُ أنّ التشبيهَ يكون في المعاني، أما الاستعارة فتكون في الألفاظ.

شروط تحقيق الاستعارة:

يقتضي تحقيقُ الاستعارة أربعةَ أمور:

١ ـ تناسي التّشبيه الذي جرَتْ فيه الاستعارةُ تمامًا، وادّعاء أنّ المشبَّه فرْدٌ من أفراد المشبّه به مبالغةً في اتّصاف المشبه بوَجْه الشبه. كأن تقول: «رأيتُ بَحْرًا يُلْقي محاضرةً كأنه اللّيلُ في السّواد». أمامك ههنا استعارةٌ، وهي لفظُ «بحر» المستعار من معناه الوَضْعيّ لِلْعالِم المتبحّر؛ وتشبيهٌ هو تشبيهُ هذا العالِم باللّيل في السّواد. والّذي يجب تناسيه منهما هو التّشبيه الذي بُنيتْ عليه الاستعارةُ، وهو تشبيهُ العالِم بالبَحْر، لا التشبيه الثاني الذي لا يضرّ بالاستعارة، لأنّها لم تُبْنَ عليه.

٢ ـ عدمُ الجَمْع بين الطّرفين أصْلاً، أو الجمع بينهما على نحوٍ لا ينبىء عن التّشبيه ولا يدلّ عليه.

ومثالُ عدم الجَمْع البتّةَ قولُكَ: «لَقِيتُ قمَرًا في المدرسة»، وقولُكَ: «عَيْنا الحِفْظ تَحْرُسانِكَ». في المثال الأول شبّهتَ الفتاةَ بالقمر في الحُسْن، ثم استعرْتَ لفظ المشبه به للمشبه. وأنتَ هنا لم تذكر سوى المشبه به «القمر». وفي الثاني شبّهْتَ الحفظَ بإنسانٍ في الحِراسة، ثم استعرْتَ تقديرًا لفظَ الإنسان لِلْحِفْظ، ثمّ حذفتَه ورمزتَ إليه بشيء من خواصّه، وهو «العَيْنان». وهنا أيضًا لم تذكر سوى المشبه. وأنتَ في الاستعارتين لم تجمع بين المشبّه والمشبّه به بل ذكرْتَ واحدًا منهما فحسْبُ لفظًا أو تقديرًا.

ومثالُ الجَمْع بين الطّرفين على نحوٍ لا ينبىء عن التّشبيه قولُكَ: «سَيْفُ عَلِيٍّ في يدِ أسدٍ»، فثمّة استعارةٌ جاز الجمعُ فيها بين الطّرفين «عليّ» المشبّه، و«أسد» المشبّه به، وظلّت كلمةُ «أسد» مع ذلك استعارة؛ لأنّ هذا الجمعَ بين الطّرفين جاء على نحْوٍ لا ينبىء عن

التّشبيه؛ ومبعثُ ذلك أنّ سِياق الكلام لإثبات شيءٍ واقعٍ على الأسد، وهو كونُ السّيف في يده، وليس لإثبات التّشبيه.

٣ ـ تجنّب ذِكْر الأداةِ لا في اللّفظ ولا في التقدير.

٤ ـ كون المشبّه به كليًّا حقيقةً أو تأويلاً ليتسنّى ادّعاءُ دخولِ المشبّه فيه واعتدادُه فَرْدًا من أفراده.

فمِنَ الكلّي الحقيقيّ اسمُ الجِنْس كلفظ «أسَد»؛ فإنّ معناه كلّيٌّ يشمل أفرادًا كثيرين، فيصِحّ أنْ يُستعار للشّجاع باعتدادِه أحدَ أفراد «الأسد» ادّعاءً.

ومِنَ الكلّيّ التأويليّ علَمُ الشّخْصِ المشتهِر بِوَصْفٍ؛ إذ يصِحّ اعتدادُه كلّيًّا، ثمّ استعارتُه لِمَن شاركه في هذا الوصف. مثل «حاتم»، وهو اسمٌ تضمّن الاتصافَ بالجُود، و«مَادِر» وهو اسمٌ تضمّن الاتصافَ بالبُخْل، و«سَحْبان» المتضمّن الاتّصافَ بالفصاحة. ولأنّ الأمرَ كذلك صحّ أن تقول: «رأيتُ اليومَ حاتِمًا» تريد رجلاً كريمًا. وأنت في هذا تتأوّل في «حاتم» فتجعله كأنه موضوعٌ للجَواد مطلقًا.

وينبغي أن يكون معلومًا أنّه لا تصِحّ الاستعارةُ في عَلَم الشّخْص غيرِ المشتهر بوَصْفٍ؛ لأنّ معناه جزئيّ فهو متشخِّصٌ ومتعيّن خارجًا، وهذا التّحديد له يمنع من الاشتراك فيه.

قرينةُ الاستعارة:

أسْلَفْنا أنّ الاستعارة من المجاز، حيث إنّ «المستعيرَ يعْمِد إلى نَقْلِ اللّفظ عن أصْله في اللّغة ويجوزُ به مكانَه الأصليّ إلى مكانٍ آخر». وبيّنّا أيضًا أنّ كلّ مجاز يستلزِم قرينةً تصْرِف الذّهْنَ عن المعنى الوضْعيّ للكلمة إلى المعنى المجازيّ. وقرينةُ الاستعارةِ مؤشّرٌ دِلاليّ يحدِّد كونَ الكلمةِ مستعارةً من معناها الوَضْعيّ لمعنى آخر بينه وبين

الأوّل علاقةُ تشابه. فإذا قلتَ: «رأيتُ أسدًا» احتمل هذا التعبيرُ أن تريد أنّك رأيتَ واحدًا من جنس السَّبُع المعلوم، وأن تريد أنّك رأيتَ شُجاعًا باسلاً شديد الجرأة. أمّا حَصْرُ الدّلالة في المعنى الثاني فيقتضي إيرادَ كلامٍ يأتي قبلَ كلمة «أسد» أو بعدَها، أو يستلزم شاهِدَ حالٍ، كأن تقولَ «رأيتُ أسدًا» ومخاطبُك يرى رجلاً شجاعًا. ويُسمّى محدِّد الدّلالة المجازية، سواءٌ أكان لفظًا أو شاهدَ حال، القرينةَ. ولعلّكَ عرفْتَ أنّ قرينة الاستعارة ضَرْبانِ:

١ ـ **قرينةٌ لفظيةٌ**: وهي لفظٌ مختصّ بالمشبّه يذكُرُه المتكلّمُ، فيصرف ذهنَ المخاطب عن المعنى الوضعيّ لِلَفظِ المشبه به إلى معنى آخر. تقول: «وعدَ البَدْرُ بالزّيارة»، فيُستدلّ بتعبير «وعَد» على أنّ المُراد بـ«البدر» فتاةٌ حسناء كالبَدْر، وعلى أنّ في لفظ «البدر» استعارة. ويُسمّى أمْثالُ «وعَد» الّتي تَصْرِفُ الذّهنَ عن المعنى الوضعيّ إلى المعنى المجازي، قرائنَ لفظية. وتقول: «رأيتُ مَهَا القَصْرِ» تريد النساءَ الحسانَ في القَصْر، والقرينةُ هنا لفظية أيضًا وهي «القَصْر».

٢ ـ **قرينةٌ غيرُ لفظية**: وهي أمرٌ خارجٌ عن اللّفظ يصْرِف المشبّه به عن إرادة معناه الوَضْعيّ، كشاهِد الحَال واستحالة المعنى. ومِمّا قرينتُه حالِيّة قولُك: «غَنّتْ لنا ظبيةٌ» ومخاطبُكَ يرى فتاةً حَسْناء مُقْبِلةً. فالقرينة التي دلّت على أنّ المُرادَ بالظّبية هنا الفتاةُ الحسناء لا «الغزال» هي قرينةٌ حالية؛ وهي اقترانُ القول برؤية الفتاة الحسناء مقبلةً. وممّا قرينتُه الاستحالةُ قولُكَ: «ضحِك المشيبُ برأسِ فلان». شُبّه انتشارُ الشّيب في الرأس بالضّحك، بجامع البياض في كلّ، حيثُ يصْحَبُ الضّحِكَ ظهورُ الأسنان البِيض، ثمّ استُعير الضّحِكُ للانتشار، ثم استُعير «ضَحِك» لـ«انتشَر» تبعًا لاستعارة المَصْدر لِلْمصدر على سبيل الاستعارة التبعية كما ستعلم. والقَرينةُ هنا هي استحالةُ صُدورِ الضّحك بمعناه الوضعيّ عن المشيب.

وهي من حيثُ مكوّنُها نوعانِ أيضًا:

١ ـ ما تكوَّنَ من أمْرٍ واحدٍ لا تعدّدَ فيه، وهو الشّائعُ في أمْرِ الاستعارات، كقولِك: «رأيتُ أسَدًا يَرْمي». فالقرينةُ هي لفظ «يرمي» وهو أمرٌ واحدٌ لا تعدّد فيه.

٢ ـ ما تكوّن مِنْ عددٍ من الأمور يكفي كلٌّ منها للدّلالة على الاستعارة كقولكَ: «رأيتُ أسَدًا في المجلس يُلقي مُحاضرةً». فالقرينةُ أمرانِ هما: «في المَجْلِس» و«يُلقي محاضرة»، وكلّ منهما يكفي لتعيينِ المعنى المجازيّ لكلمة «أسد» في الرجل الشّجاع ومَنْعِ إرادة المعنى الوضعيّ.

ولا ينبغي أن تنسى إذًا أنّ وظيفةَ القرينة في الاستعارة هي:

تعيينُ المعنى المرادِ ومَنْعُ إرادةِ المعنى الوضعيّ؛ وغيابُ القرينة يُبْطِل هذه الوظيفةَ، ويصْلُح اللفظُ عندئذٍ لإرادةِ المعنى الوضعيّ أو المعنى المجازيّ.

تقسيمات الاستعارة:

يجعل البلاغيون للاستعارة أقسامًا كثيرة تبعًا لِلوجْهة التي ينظرون منها إليها. وإليكَ هذه التّقسيماتِ مفصّلةً.

أولًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين:

الاستعارة الوفاقية، والاستعارة العنادية.

أ ـ الاستعارة الوِفاقية:

هي الاستعارةُ التي يمكن اجتماعُ طرفيها في شيءٍ واحدٍ لِما بين الطّرفين من الوِفاق. كقولِكَ: «فلانٌ أحيتْهُ المَوْعظةُ» أي هدَتْه. فقد شبّهْتَ الهِدايةَ، التي هي الدّلالةُ على الطّريق القويم، بـ«الإحياء» بمعنى

جَعْلِ الشيء حيًّا، بجامع ما يترتّب على كلٍّ من المنافع، ثم تُنوسي التّشبيه وادُّعي أنّ المشبّه فَرْدٌ من أفراد المشبّه به، ثم استُعير لفظُ «الإحياء» لـ«الهِداية» و«أَحْيا» لـ«هَدى» تبعًا لاستعارة المَصْدر للمصدر.

ولمّا كان الإِحْياءُ (المستعار منه) والهِدايةُ (المستعار له) مِمّا يمكن اجتماعُهما في شيءٍ واحد سُمِّيت الاستعارةُ «وفاقيةً». وهكذا يقال إن **استعارةَ الإحياء للهداية وِفاقية.**

وتقول العربُ: «حبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ». وههنا شُبِّه فَقْدُ التمييز وعدَمُ القدرةِ على تبيُّن ما هو صالحٌ وما هو فاسد من جانب المُحِبّ، بالعَمى والصَّمَم، بجامع فَقْدِ الإدراك وسَلْبه في كلّ، وبعْدَ تناسي التّشبيه والادّعاء استُعير العَمى والصَّمَمُ لِفَقْد التمييز، ثم استعير «يُعْمِي» و«يُصِمّ» لـ «يُفقِد الإدراكَ والتمييز» تبعًا لاستعارة المصدر. ولَمّا كان «العَمى» و «الصَّمَم» (المستعار منه) وفقْدُ التّمييز (المستعار له) مِمّا يمكن اجتماعُهما في الإنسان فيكون أعمى أصمَّ فاقِدًا التّمييز معًا، سُمّيت هذه الاستعارةُ وِفاقيةً، بسبب إمكان اجتماع الصّفتين في شيءٍ واحد.

ومن ذلك استعارةُ الاستفاقة للتنبّه في قول الشاعر:

تـنبّـهـوا واسـتـفـيـقـوا أيُّـهـا الـعَـرَبُ ... فقدْ طمى الخَطْبُ حتّى غاصتِ الرّكُبُ

وجملةُ القولِ أنّ هذه الاستعارةَ تجيء في إعطاءِ المعقول اسْمَ معقولٍ آخرَ حِينْ يكون لأحَدِ المعنيين شبَهٌ بالآخر.

ب ـ الاستعارة العِنادية:

وهي الّتي لا يُمكن اجتماعُ طرفَيْها في شيءٍ واحد لِما بينهما من التّعاند وامتناعِ الاجتماع. ومن ذلك أن تستعيرَ اسمَ المعدومِ للموجود؛

لانتفاءِ النّفع في كلٍّ، كما في قولكَ: «رأيتُ ميتّا يتحدّث»، أي جاهلاً. شبّهتَ الجَهْلَ بالموت بجامع عدم النّفع في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعَرْتَ «الموتَ» لـ«الجهل»، ثم استعَرْتَ «الميت» لـ«الجاهل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر. ولمّا كان الجَهْلُ والموتُ ممّا لا يتأتّى اجتماعُهما في شيء واحد، فلا يُوصَف الميت بالجَهْل، سُمّيت استعارة عِنادية. وهكذا يقال إن **استعارةَ الموتِ للجهل عنادية**.

ومنه استعارةُ «الموتى» للشّعراء الضّعفاء في قول حافظ يرثي شوقيًا:

قـد كُـنْـتُ أوثِـرُ أن تـقـولَ رِثـائـي   يـا مُـنْـصِـفَ الـمَـوْتـى مِـنَ الأَحْـيـاءِ

حين شبّه ضَعْفَ الشاعرية بالموت بجامع انعدام الفائدة في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير «الموت» لـ«ضعْف الشاعرية»، ثم استُعير «الموتى» لـ«الشعراء الضعفاء» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر. ولمّا كان الموتُ وضعْفُ الشاعريةِ مِمّا لا يمكن اجتماعُهما في شيءٍ واحد، فلا يوصف الميتُ بضَعْفِ الشاعرية، فإنّ هذه الاستعارة عنادية.

ولعلّكَ لاحظتَ أن الوِفاقية والعِنادية قد اجتمعتا في البيت السّابق، كما اجتمعتا في قوله سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾، أي أو من كان ضالًّا فهديناه. ففي هذه الآية الكريمة ـ كما في البيت السّابق ـ استعارتانِ: استُعير «الميتُ» لـ«الضّالّ» بجامع ترتُّب نفي الانتفاع في كلّ، والاستعارةُ عناديةٌ لأنّ الضّلال والموت لا يجتمعان في شيءٍ واحد فلا يُوصَف الميتُ بالضّلال.

ـ ثمّ استُعير «أحيا» لـ«هدى» والاستعارةُ هنا وِفاقية؛ لأنّ الهدايةَ والحياةَ يمكن أن يجتمعا في شيءٍ واحدٍ، إذ يوصفُ الحيُّ بالهداية.

ولا ينبغي أن تنسى من ثمّ، أنّ:

الاستعارة تكون وفاقيةً حين يمكن اجتماعُ طرفَيها في شيءٍ واحد لِمَا بينهما من الوِفاق، وتكون عناديةً حين لا يُمكن اجتماعُ طرفيها في شيءٍ واحدٍ لِما بينهما من العِناد.

قِسْما الاستعارة العنادية:

تنقسم الاستعارةُ العنادية على:

التّهكُّمية والتمليحيّة.

يراد بالتهكُّميّة التهكُم والاستهزاء، ويراد بالتّمليحيّة التّمليح والظّرافة. وفي هاتين الاستعارتين يُستعمَل اللّفظُ لمعنًى شريف في ضدّه أو نقيضه؛ إبرازًا للخسيسِ في صورة الشّريف لِقَصْد التهكّم والاستهزاء، أو التّمليح والظرافة.

تقول: «رأيتُ أسَدًا» تعني جَبانًا، و«مررتُ بكريم» تعني بخيلاً، وأنت في هذا وذاك إنّما تقصِدُ التهكّمَ والسّخرية أو التّمليح والتظرّف، تبعًا لِلْمقام الذي تقول فيه ذلك. و«أسَد» في المثال الأول، و«كريم» في المثال الثاني، استعارتان، يقال في إجرائهما:

نُزّل الجُبْنُ منزلةَ الشّجاعة، ونُزّل البخلُ منزلةَ الكرَم، ثم شبّه الجبانُ بالأسَد، والبخيلُ بالكريم، ووجْهُ الشّبه هو «الشجاعة» أوّلًا، و«الجُود» ثانيًا، ثم استُعير اسمُ الأسَد لِلْجَبان، واسمُ الكريم للبخيل. ويتوقّف القَصْد في أمثال هاتين الاستعارتين على مُراد المتكلّم؛ فإن قصَد إلى التهكّم بالشّخص الذي قيلت فيه الاستعارةُ والاستهزاء به فهي تهكّمية، وإن قصَد إلى مُداعبة السّامعين وإدخالِ البهجة إلى قلوبهم فهي تمليحية. والاستعارةُ في المثالين عِنادية؛ لِعَدم تأتّي اجتماع الطّرفين في كلّ منهما في شيءٍ واحد.

وقد جاءت الاستعارةُ التهكّمية في كتاب الله جلّ وعلا، ومن أمثلتها هناك قولُه سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي «أنذرهم». فقد نُزّل الإنذارُ، وهو الإخبارُ بما يُظهِر ترَحَ المخبَرِ به، منزلةَ التبشير، وهو الإخبار بما يُظهر فرَحَ المخبَرِ به، أو نُزّل التّضادُّ بين الإنذار والتّبشير منزلةَ التّناسب بينهما، ثمّ شبّه الإنذارُ بالتّبشير بجامع إدخال السّرور إلى النّفس في كلٍّ، وإن كان ذلك على سبيل التّنزيل في المشبّه، وبعد تناسي التّشبيه وادّعاء أنّ المشبّه فرْدٌ من أفراد المشبّه به استُعير اسمُ «التّبشير» للإنذار، ثم استُعير «بشّرْ» لـ«أنذِرْ» تبعًا لاستعارة المَصْدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التهكّمية. وهذه الاستعارةُ عنادية كما هو واضح. وتأمّل روْعَةَ الاستعارة التهكّمية هذه في قوله سبحانه: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾. في هذه الآية الكريمة نُزّل التضادّ بين الهِداية، التي هي الدّلالةُ بشيء من اللّطْف والرّحمة، والسَّحْب بعنف، منزلةَ التناسب، ثمّ شبّه السَّحْبُ بعُنفٍ بالهِداية بجامع الخير والفائدة في كلٍّ، وبعْدَ التناسي والادّعاء، استُعير اسمُ الهِداية للسَّحْب بعُنْف، ثم استُعير «اهدوا» لـ«اسْحَبوا بِعُنْف» تبعًا لاستعارةِ المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التهكُّمية العِنادية.

والْحَظْ سِحْرَها أيضًا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. أي السّفيهُ الضّال. وكذا في قوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. ففي الآية الأولى نُزّل التضادُّ بين الحِلْم والرُّشْد، والسَّفَه والضّلال، منزلةَ التناسب، ثمّ شُبّه السّفَهُ والضّلال بالحِلْم والرّشد بجامع حُسْن الخلق في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اسمُ الحِلمْ للسّفه والرّشد للضّلال، ثم استُعير «الحَلِيم الرّشيد» للسّفيهِ الضّالّ، على سبيل الاستعارة التهكّمية العِنادية.

ويقال مثل هذا في الآية الثانية. والله أعلم.

ثانيًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للجامع:

يعني الجامعُ في الفنّ الاستعاريّ الشيءَ الّذي يشترك فيه طرفا الاستعارة، ويُسمّى «جامعًا» لأنه يجمعُ المشبّهَ مع أفراد المشبّه به تحت مفهومه، ويُدْخِله في جِنسه ادّعاءً وتخييلاً. **وينبغي أن يكون على ذكرٍ منكَ أنّ الجامع يكون في المُستعار منه أقوى منه في المستعار له؛ لأنّ بناءَ الاستعارة على المبالغة في التشبيه وإلحاقِ المشبّه بما هو أكملُ في وجه الشبه.**

وعلى الجُمْلةِ فالجامعُ مَفْهومٌ يجمع بين المشبّه وأفرادِ المشبّه به، وتنقسم الاستعارةُ تبعًا له على أربعة أقسام:

الدّاخلية، غير الدّاخلية ـ العامّية، الخاصيّة. وإليكَ تفصيلَ القول في كلّ منها:

١ ـ الاستعارةُ الداخلية:

هي الّتي يكون فيها «الجامعُ» داخِلًا في مفهومي الطّرفين، كما في استعارةِ التّقطيع للتّفريق في قوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾، وههنا استُعير التّقطيعُ، الموضوع أصْلًا لإزالة الاجتماع بين الأشياء المتّصلة، لتفريقِ الجَماعة. والجامِعُ «إزالةُ الاجتماع». ولمّا كانت «إزالةُ الاجتماع» داخلةً في مفهومِ «التّقطيع» ومفهومِ «التّفريق» كانت الاستعارة داخليةً.

ولعلّ في مقدورك الآنَ أن تتلمّس مدلولَها في استعارة «الفَيَضان» لانبثاقِ الفَجْر في قول البحتريّ:

يتراكَمُونَ على الأسنّةِ في الوغى كالفَجْرِ «فاضَ» على نُجومِ الغَيْهبِ

حيث إنّ الجامعَ هنا هو «الانذِياحُ»، وهو داخلٌ في مفهوم «الانبِثاق» ومفهومِ «الفَيَضان».

وعن الاستعارةِ الداخلية يقول عبدُ القاهر: «وهو أن يُرى معنى الكلمةِ المستعارة موجودًا في المستعار له من حيث عمومُ جِنْسه على الحقيقة، إلّا أنّ لذلك الجنس خصائصَ ومراتب في الفضيلة والنّقص والقوّة والضّعْف فأنت تستعيرُ لفْظَ الأفضلِ لِما هو دونه، ومِثالُه استعارةُ الطّيرانِ لِغَيْر ذي الجَناح إذا أردتَ السّرعة، وانقضاضِ الكواكب للفَرَس إذا أسرع في حركته من علوّ، والسّباحةِ له إذا عدا عدْوًا كان حالُه فيه شبيهًا بحالةِ السّابح في الماء». ويسمّي الشيخُ هذا الضّرْب «الاستعارةَ القريبةَ من الحقيقة».

٢ ـ الاستعارة غير الداخلية:

وهي أن يكون الجامعُ غيرَ داخلٍ في مفهومَي الطّرفين؛ كاستعارة «الدُّرَر» لـ«الكواكب» في قولكَ: «بدَتْ لنا دُرَرُ السّماء» بجامع «اللّمعان»، واستعارةِ «الشّمس» لـ«الوَجْه المتهلّل» في قولِكَ: «أبصَرْتُ شَمْسًا في الإِيوان» بجامع «التهلّل»، واستعارةِ «البَحْر» لـ«الجواد» في قولكَ: «فاضَ علينا بَحْرُ الرجال في عطائه»، بجامعِ الإفاضة في كلّ. وجليّ أن اللّمعانَ عارضٌ للدّرر لا داخلٌ في مفهومها، والتهلّلَ عارضٌ للشمس، والإفاضةَ عارضةٌ للبحر.

٣ ـ الاستعارة العاميّة:

وهي المتداولةُ بين المتكلّمين، التي يسهُلُ إدراكُ «الجامع» فيها على العامّة، كاستعارة اسْمِ «الأسَد» لـ«الشجاع» في قولك: «رأيتُ أسدًا يتقدّم الأبطالَ»، فالجامعُ هنا وهو «الجرأةُ» أمرٌ ظاهر يدرِكه العامّةُ. وكاستعارةِ «الثّريا» لِغُرّة المُهْر في قول الشاعر:

وأدهم يستمدُّ اللّيلُ منهُ   وتطلُعُ بينَ عينَيْهِ الثُّريّا

فالجامعُ هنا، وهو البياضُ، أمرٌ ظاهرٌ في متناول كلّ واحدٍ تقريبًا.

٤ ـ الاستعارة الخاصّية:

وهي الغريبةُ الّتي لا يكون الجامعُ فيها ظاهرًا، ولا يتأتّى إدراكُه إلّا للخاصّة الّذين أوتوا ذهنًا ثاقبًا وبصَرًا في إدراك المعاني. كاستعارة «النّور» لـ«البيان والحُجّة» الكاشفة في الحقّ في قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾. فالجامعُ هنا، وهو حالةٌ نفسيّة للإنسان تنشأ عن الأمرَيْن النّور والحجّة، مِمّا يصعُبُ إدراكُه. قال عبدُ القاهر: «فليس الشّبهُ الحاصِلُ من «النّور». في البيان والحُجّة ونحوهما، إلّا أنّ القلْبَ إذا وردَتْ عليه الحجّةُ صار في حالةٍ شبيهةٍ بحال البصَر إذا صادفَ النّورَ ووجِّهت طلائعُه نحوه، وجال في مصارِفه وانتشر، وانبثّ في المسافة التي يسافرُ طرْفُ الإنسان فيها».

وكاستعارة «الصّراط» لـ«الدّين» في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ كُثَيِّر يمدحُ عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ:

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تبسَّم ضاحِكًا غَلِقتْ لِضِحْكَتِهِ رِقابُ المَالِ

شبّه الشاعرُ «المعروفَ» بـ«الرّداء» بجامع السّتر وصيانة الْعِرْض في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعارَ اسْمَ الرّداء لـ«العطاء». وأضاف إلى الرّداء لفظ «غمْر» ليكون قرينةً على عدم إرادة المعنى الوَضْعيّ للرّداء؛ لأنّ لفظ «غَمْر»صفة للمال بمعنى «كثير». والاستعارةُ خاصيّةٌ؛ لأنّ الجامع فيها غيرُ ظاهر.

تغريبُ الاستعارة المبتذَلة:

في مُستطاعِ المتكلّم الحاذق أن يعْمِد إلى الاستعارة العامّيّة المبتذَلة فيتصرّف فيها بعضَ تصرّف يُخْرجها من الابتذال إلى الغَرابة يكسوها ثوبًا من الطّرافة والجِدّة والرّوعة. كالّذي فعل كُثَيِّر عَزّة في قوله:

ولمّا قَضَيْنا مِنْ مِنًى كلَّ حَاجةٍ ومسَّحَ بالأرْكانِ مَنْ هُوَ ماسِحُ
وشُدّتْ على دُهْمِ المهاري رِحالُنا ولَمْ ينظرِ الغادي الّذي هوَ رائِحُ
أخذْنا بأطْرافِ الأحاديثِ بيْنَنا وسَالَتْ بأعناقِ المَطِيّ الأباطِحُ

والشّاهدُ قولُ الشّاعر «سالتْ بأعناق المَطِيّ الأباطحُ»، فقد شبّه سَيْر المطيّ في الأباطح سيْرًا حثيثًا في لِينٍ وسَلاسةٍ بِسَيلان الماء في هذه الأباطح، والجامعُ في هذا واضِحٌ، ثم استعارَ «سَيلانَ الماء» للسّير الّذي له هذه الصّفات، ثم استعار «سالَتْ» لـ«سارت» تبعًا لاستعارة المَصْدر للمصدر. والاستعارةُ هنا عامّية مبتَذلةٌ يشترك في إدراكها الخاصّةُ والعامّة، ولكنّه تصرّف فيها حين أسندَ الفِعْلَ «سالت» إلى الأباطح، وهو في الأصْل لـ«المَطِيّ»، فأفاد هذا الإسنادُ أنّ الأباطحَ قد امتلأت بالإبِل إلى درجةٍ تُخِيِّل للرّائي أنّ الأباطحَ هي الّتي تسيل استنادًا إلى مبدأٍ مشهور يقول: «إنّ نِسْبةَ فِعْل الحَالّ إلى المَحَلّ تُشْعِر بشيوع الحَالّ في المحلّ»، حتى لكأنّ كلّ جزء من الأباطح سائر. وقد أُضيف إلى هذا عنصرٌ آخر من عناصر تغريب الاستعارة، هو إشراكُ الأعناق في السّير بأنْ أدخل عليها حرفَ الجرّ «الباء» المفيد لِمُلابسة الفعل لها. فالأباطحُ سَالَتْ، لكنّها لم تسِلْ بماءٍ، بل بـ«أعناق المَطِيّ»؛ أي إنّ أعناقَ المطيّ سائرةٌ أيضًا. وهكذا فقد أُضيف إلى الاستعارة العامّية مجازان عقليّان: صَرِيحٌ واضحٌ وهو إسناد فعل السَّيَلان إلى الأباطح، وهو يُشْعِر بامتلاءِ الأباطح بأعناق المطيّ، ومقدَّرٌ محصَّل من الكلام، وهو إسنادُ هذا الفعل إلى الأعناق المُشْعِر بِسَيْر الأعناق أيضًا، وذلكَ لأنّ الأباطِحَ في سَيْرها ملابسةٌ لأعناق المطيّ. وبإضافة هذَيْن المجازين إلى الاستعارة العامّيّة غدَتْ غريبةً تَحْفِل بعناصر الرَّوْعة والجِدّة والطّرافة.

ولكي تكونَ على بيّنةٍ من الأمر أَمْعِنِ النّظرَ في قول ابن المُعْتزّ:

سَالتْ عليه شِعابُ الحيِّ حين دعا أنـصـارَهُ بـوجـوهٍ كـالـدّنـانـيـرِ

ثالثًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين والجامع:

يقسم البلاغيون الاستعارةَ من وجهة النّظر إلى المستعار منه والمستعار له والجامع على ستة أقسامٍ:

١ ـ استعارة محسوسٍ لمحسوس والجامعُ حِسّي، كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾. ألقى السَّامِرِيُّ شيئًا من التُربة أخَذَه من موطىء فَرس جِبريلَ عليه السّلامُ، في النّار، فظهرت له صورةٌ كصورة العِجْل. وهكذا فقد شُبّهت الصّورةُ التي سبكتْها نارُ السامريّ بابن البقرة بجامعِ الشّكل والصّوت في كلٍّ، ثم استُعير لفظ المشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة. وواضحٌ ههنا أنه استُعير محسوسٌ «ولد البقرة ـ العِجْل» لِمَحْسوس «الحيوان الذي سبَكَتْه نارُ السامريّ»، والجامعُ حِسّي هو الشّكْل والخُوار.

وكقوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾، فقد شُبّه تدافعُهُم بتَلاطُم المَوْج بجامع الاضطراب في كلّ، ثم استُعير لفظ المشبه به «تلاطم الموج» للمشبّه «التدافع»، ثم استُعير «يموج» لـ«يتدافع» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر. وكلّ من المستعار منه والمستعار له والجامع حسّي.

٢ ـ استعارة محسوسٍ لمحسوسٍ والجامعُ عقليّ، كقوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾. معنى «نَسْلَخُ» هنا نُزِيلُ ضوءَ النهار من مكان اللّيل. والمستعارُ منه «السَّلْخ» ـ أي إزالة الجلد عن الشّاة المذبوحة ـ حسّي. والمستعار لهُ، وهو إزالة ضوء النّهار عن الليل، حسّي أيضًا. والجامعُ بين الاثنينِ ترتُّبُ أمرٍ على آخر بحصوله بَعْدَه في كلّ (ترتّب ظهورِ اللّحْمِ على السَّلْخ، وترتُّب حصولِ الظّلْمة على إزالة ضوءِ النّهار عن موضع ظلمة الليل)، وهو أمرٌ عقليّ.

ويُقال في إجراء هذه الاستعارة:

شبّه إزالةُ ضوءِ النّهار عن موضع الظّلمة بسَلْخِ الجلد عن لحْم الشّاة بجامع ترتُّب شيء على شيء، ثم استُعير لفظُ المشبّه به «السَّلْخ» للمشبّه «إزالة الضوء»، ثمّ استُعير «نَسْلخ» لـ«نُزِيل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر.

ومِثْلُه قولُ المُصطفى ﷺ: «إيّاكُمْ وخَضْراءَ الدِّمَن». قال عبدُ القاهر: «القَصْدُ شَبَهٌ عَقْليٌّ بين المرأةِ الحَسْناء في المَنْبِت السُّوء وبينَ تلك النّابتة على الدّمنَة، وهو حُسْنُ الظّاهر في رأي العَيْن مع فساد الباطن». ولن يغيب عنكَ أنّ في الحديث صورةً لاستعارة محسوسٍ لِمَحْسوس والجامع عقليّ.

٣ ـ استعارة محسوسٍ لِمَحْسوس والجامعُ مختلف، حسّي وعقليّ، كقولكَ: «رأيتُ بدْرًا يقْسِمُ للشعراء أُعطياتِهم»، تريد شخصًا كالبدر في حُسْن الطّلْعَة وعُلوّ القدْر. فالمستعارُ منه «البَدْر» والمستعارُ له «الشّخص» حِسّيّان. والجامعُ بعضُه حِسّي «حُسْن الطّلْعة» وبعضُه عقليّ «علُوّ القدْر». وكقولكَ: «رأيتُ نَجْمَ المجلسِ» تريد شخصًا كالنّجم في الضّياء والرّفعة. ففيه استعارةُ محسوسٍ «النّجم» لِمَحْسوسٍ «الشّخص»، والجامعُ بعضُه حِسّيٌّ «الضّياء» وبعضُه عقليّ «الرِّفْعة».

٤ ـ استعارة معقولٍ لِمَعقول والجامعُ عَقْلِيّ، كقوله سبحانه حكايةً عن قول الكُفّار يومَ القيامة: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾. فالمستعار منه «الرّقاد» أي النّوم عقليّ، والمستعار له «الموت» عقليّ؛ والجامع، وهو عدَمُ ظهورِ الفعل الاختياريّ، عقليّ أيضًا. وإليكَ إجراءَ الاستعارة في هذا المثال:

شبّه «الموتُ» بـ«الرّقاد» بجامع عدَمِ ظهور الأفعال الاختياريّة في

كلّ، وبعد التناسي والادّعاء استُعير اسمُ «الرّقاد» لـ«الموت».

٥ ـ استعارة محسوسٍ لمعقولٍ والجامعُ عقليّ، كقوله سبحانه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾. أي: أَبِنِ الأمرَ إبانةً لا تنمحي كما لا يلتئم صَدْعُ الزجاج. فالمستعارُ منه «كسر الزجاجة» حِسّيّ مُشاهَد؛ والمستعار له «التّبليغ» عقّلي، والجامع بينهما شدّةُ التّأثير، وهو أمر عقليّ. وكقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾. أي البيان والحُجّة الكاشفة عن الحقّ المزيلة للشكّ. ومنه استعارة الصّراط ـ أي الطّريق ـ للدّين في قوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي الدين القويم.

٦ ـ استعارة معقولٍ لِمَحْسوس والجامع عقليّ، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ أي لمّا كثُرَ كثرةً بالغة. فالمستعار له «كثرة الماء» حسّي، والمستعار منه «التكبُّر أو التّعالي» عقليّ، والجامعُ بينهما «مجاوزة الاعتدال» عقليّ.

رابعًا: تقسيم الاستعارة تبعًا لذِكر أحدِ طرفَيها:

قلنا فيما تقدّم إن الاستعارة ضرْبٌ من التشبيه ذُكِر أحدُ طرفيه وحُذِف الآخر. ومن هذه الوجهة تنقسمُ الاستعارة على:

التصريحية، المكنية؛

وإليكَ القولَ فيهما مفصَّلاً:

الاستعارةُ التصريحيّة:

هي لفظُ المشبَّه به المستعارُ للمشبَّهِ المحذوفِ، كلفظ «القمر» في قول البُحْتُرِيّ:

يـؤدّونَ الـتَّـحِـيّـةَ مِـنْ بَـعـيـدٍ   إلـى قَـمَـرٍ مِـنَ الإيـوانِ بـادِ

فـ«القمر» هنا هو لفظُ المشبّه به المستعارُ للمشبّه المحذوف «الممدوح»، وعلى هذا فهو استعارة تصريحية.

وكلَفْظِ «الشّمس» في قول شوقيّ يرثي سَعْدَ زَغْلول:

شيَّعوا الشّمسَ ومالوا بِضُحاها   وانحنى الشَّرْقُ عليها فبكاها

ف«الشمس» هي لفظُ المشبه به المستعارُ للمشبّه المحذوف «سعد زغلول»، إذْ شبّه الشاعرُ المرثيَ بالشّمس بجامع الضِّياء ونَباهة الشأْن والحاجةِ إلى الشيء، ثم حذف المشبّه، واستعارَ لفظ المشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية.

والملاحَظُ في المِثالين هو التّصريحُ بالمشبّه به المستعارِ وحذْفُ المشبّه، وهذا مبعثُ تسمية هذا الضَّرْب «الاستعارةَ التصريحية».

ونسوق لكَ ههنا طائفةً من الاستعاراتِ التصريحية التي نبيّن لكَ كيفيةَ إجرائها:

١ ـ قال الشّاعرُ يصِفُ مجلسَ شَرابٍ تَسْقي القومَ فيه حسْناءُ فاتنة:

ترنَّحَ الشَّرْبُ واغتالتْ حلومَهُمْ   شَمْسٌ ترجّلُ فيهِمْ ثُمَّ ترْتَحِلُ

شبّه الحسْناء ب«الشّمس» بجامع الحُسْن، وبعْدَ التناسي والادّعاء استعارَ «الشّمسَ» لـ«الحسناء»، ثم حذف المستعارَ له وأبقى المستعارَ على سبيل الاستعارة التصريحية.

٢ ـ قال المتنبّي وقد لَقِيَهُ ممدُوحُه فعانقَه:

فلَمْ أرَ قَبْلي مَنْ مشى البَحْرُ نحْوَه   ولا رَجُلاً قامتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

في صدْر البيت شبّه المتنبّي ممدوحَه ب«البَحْر» بجامع الإفاضة في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار لفظَ المشبَّهِ بهِ للمشبَّه، ثم حذفَ المستعارَ له وصرّح بلفظ المستعار منه، على سبيل الاستعارة التّصريحية. وفي لفظ «الأُسْد» في عجُزِ البيت استعارةٌ تصريحية.

٣ ـ وقال المتنبّي أيضًا:

تعرّضَ لِي السَّحابُ، وقد قَفَلْنا فقُلْتُ: إليكَ، إنَّ مَعِي السَّحَابا

شبَّه المتنبّي مَنْ كان معه بـ«السَّحاب» بجامع الإفاضة وغَزارة العطاء في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار اسمَ المشبّه به للمشبّه، ثم حذف المشبّهَ وصرّح بلفظ المشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية.

٤ ـ قال الشاعر:

بَكَتْ لُؤلؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مَدامِعي عَقِيقًا فصارَ الكُلُّ في نَحْرِها عِقْدا

شبّه الشّاعر أوّلاً دمعَها باللُّؤلؤ بجامع البياض والتألّق في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار لفظَ المشبّه به للمشبه، ثم حذف المشبه وصرّح بلفظ المشبه به، على سبيل الاستعارة التّصريحية. وشبّه ثانيًا دمعَه بالعَقِيق، بجامع الحُمْرةِ في كلٍّ (لأنه أرادَ أن يقول إنّه بكى دَمًا بعد نُضوبِ الدّمع)، وبعد التّناسي والادّعاء استعار اسمَ المشبه به للمشبه، ثم حذف المشبّه وصرّح بلفظ المشبّه به، على سبيل الاستعارة التّصريحية.

وبعدَ هذا التّطْوافِ في رِحاب الاستعارة التصريحية غدا من الميسورِ عليكَ أن تتذكّر دائمًا أنّ الاستعارة التّصريحيّة هي:

«لفظُ المشبَّه بِهِ المذكورُ المستعارُ للمشبّه المحذوف».

الاستعارة التصريحية تبعًا لِلّفظ المستعار:

لا يكون اللّفظُ المستعارُ في الاستعارة التّصريحية ذا طبيعةٍ واحدة؛ فقد يكون اسمَ جِنْس غيرَ مشتقّ، وقد يكون أحدَ المشتقّات المعروفة. وعلى الجُملة فإنّ الاستعارة التّصريحية من وِجهة لفظ المشبّه به المستعارِ على ضَرْبين:

أصليّة وتبعية.

وإليكَ مفصَّلَ القول في كلّ منهما:

١ ـ الاستعارة الأصليّة:

هي الّتي يكون اللّفظُ المستعارُ فيها اسمَ جِنْسٍ غيرَ مشتقّ، ويُراد باسم الجنس المَاهِيّةُ الّتي تصلح لأن تدلّ على كثيرين، دون مراعاة وصْفٍ معيّن في دِلالتها.

واسْمُ الجِنس هذا أنواعٌ؛ فقد يكون حقيقيًا، بمعنى أنه يدلّ حقيقةً على كلّ فردٍ من أفراد مدلوله، كلَفْظ «أسد» في قولكَ: «رأيتُ أسَدًا يتصدّرُ المَجْلِسَ» أي رجلاً باسلاً. وقد يكون تأويليًا، بمعنى أنه يدلّ من خلال التأويل على كلّ فرْدٍ من أفراد مدلوله. ويريدون به كلّ عَلَم اشتهر بِصِفةٍ وعُرِف بها، كلفظ «حاتِم» في قولِكَ: «رأيتُ حاتِمَ بَلَدِنَا»، تريد رجلاً كريمًا من بلدك. فأصْلُ «حاتم» أنّه عَلَمٌ على ذاتٍ معروفة هي «حاتِم الطّائيّ»، ذلك الجواد الذي عاش في الجاهلية ولكن تُؤُوّل فيه فصار اسم جِنْسٍ يُطْلقونه على أية ذات متّصفة بالجُود والكرَم. ثمّ قد يكون اسْمُ الجنس اسْمَ عَيْنٍ، كلفظ «القمر» في قولكَ: «رأيتُ قمرًا في قَصْره»، أي رجلاً وضيءَ الوجه عليّ المنزلة. أو اسمَ معنى، أي مصدرًا، كلفظ «القَتْل» في قولكَ: «أزعجني قتْلُ زيدٍ أخاه»، أي إذلاله إذلالاً شديدًا.

وفي كلّ الأمثلة التي قدّمْنا جرَتِ الاستعارةُ في تشبيهٍ مباشرٍ بين مشبّه ومشبّه به، ولمّا كان لفظُ المشبّه به هو المستعار مباشرة سُمّيت الاستعارة «أصليّة»؛ لأنّ التّشبيهَ فيها أصْليّ، تمييزًا لها عن الاستعارة «التّبعية» التي تَتْبع الأصْليةَ وتُبنى عليها.

وإليكَ طائفةً من صُوَر الاستعارة الأصْلية لتكون على بيّنةٍ من الأمر:

١ ـ قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، في هذه الآية الكريمة استعارتان تصريحيّتان، أصليّتان: الظّلمات، النّور.

ففي الأولى شُبِّهت «الضّلالاتُ» بـ«الظّلُمات» بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء، استُعير لفظُ المشبه به «الظّلمات» للمشبّه «الضلالات» على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصْلية. ومبعثُ كونها تصريحيةً أنّ لفظ المشبه به «الظّلمات» هو المستعارُ ههنا للمشبّه المحذوف، أمّا مبعثُ كونِها أصليةً فهو أنّ المستعارَ اسمُ جنسٍ غير مشتق «الظّلمة».

وفي الثانية شُبِّهت «الهِداية» بـ «النّور» بجامع الاهتداء في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير لفظُ المشبّه به «النور» للمشبه «الهداية» على سبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة. وهي تصريحيةٌ للتصريح فيها بلفظ المشبّه به المستعار للمشبه المحذوف؛ وأصليّة لكون اللّفظ المستعار اسمَ جنسٍ دالًّا على عَيْن.

٢ ـ قال البُحْتُرِيُّ:

يُؤدّونَ التحيّةَ مِنْ بَعيدِ إلى «قَمَرٍ» مِنَ الإيوانِ بَادِ

شبّه ممدوحَه بـ«القمر» بجامع الضّياء والرِّفْعة في كلّ، وبعد التّناسي والادعاء استُعير لفظ المشبّه به «القمر» للمشبّه «الممدوح» على سبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة. ولن يغيب عنك تحصيلُ السبب.

٣ ـ قال الشاعر:

حولَ أغشاشِها على الأشجارِ قدْ سَمِعْنَ «القِيانَ» وهي تغنّي

شبّه الأطيارَ المغرّدةَ بـ«القِيان» بجامع حُسْن الصّوت في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير لفظُ المشبّه به «القِيان» للمشبّه «الأَطْيار» على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة.

٤ ـ قال الشاعر:

يا ابنَ الكَواكبِ مِنْ أئِمّةِ هاشمٍ والـرُّجَّـحِ الأحْسَـابِ والأحْـلامِ

شبّه آباءَ ممدوحه بـ«الكواكب» بجامع الضّياء والرُّفعة في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار لفظَ المشبه به «الكواكب» للمشبه «الرّجال» على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصلية.

وهكذا يستقرّ في فَهْمِك أنّ الاستعارةَ الأصْليّة هي:

تِلكَ الاستعارةُ التي يكون اللّفظُ المستعارُ فيها أصْلِيًّا يكون هو نفسه مشبّهًا به مستعارًا للمشبّه المحذوف، وليس لفظًا آخرَ مشتقًّا منه وتابعًا له.

٢ ـ الاستعارة التّبعيّة:

هي الّتي يكون اللّفظُ المستعارُ فيها تابعًا لاستعارةِ معنًى يَسْبِقه؛ أي فعلاً أو اسْمًا مشتقًّا أو حَرْفًا. وتُسمّى تبعيّةً لأنّ جريان الاستعارة في الفِعْل والمشتقّات والحروف يكون تبعًا لِجَرَيانها في المصادر. وإليكَ تفصيلَ الأمر:

* الاستعارة في الفعل:

ينطوي الفِعْلُ ـ كما هو معلوم ـ على مادّةٍ هي حروفه الدّالّة على حدَثٍ معيّن، وعلى صِيغةٍ هي الهيئةُ الدّالّة على زمان معيّن، كصِيغة الماضي والمضارع. ويتبع هذا أن تكون الاستعارةُ في الفِعْل على ضربَيْنِ: استعارة في مدلول مادّة الفعل أي الحَدَث، واستعارة في مدلول صِيغة الفعل وهو الزّمان:

ومن أمثلة الاستعارة في الحَدَث هذه الصُّور:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾. في قوله «يحيي»

استعارة؛ حيث شبّه تَزيينَ الأرض بالنبات وبَعْثَ النّشاط فيها بالإحياء، بجامع الحُسْن والنّفع في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللفظُ الدّالُ على المشبّه به «الإحياء» للمشبّه «التزيين»، ثم استُعير «يُحْيي» لـ«يُزَيِّن» على سبيل الاستعارة التصريحيّة التبعيّة. أمّا كونُها تصريحيّةً فللتصريح فيها بلفظ المشبَّه به المستعار للمشبّه المحذوف، وأمّا كونها تبعية فلأنّ الاستعارة فيها جرَتْ في الفعل تبعًا لجرَيانها في المَصْدرِ، كما بيّنّا.

٢ ـ قال البحتري يصف قصرًا:

مَلأَتْ جوانِبُهُ الفضاءَ و«عانَقَتْ» شُرُفاتُه قِطَعَ السّحابِ المُمْطِرِ

في قوله «عانَقَتْ» استعارة؛ حيث شبّه الشّاعرُ الملامسة بـ«المعانقة» بجامع الاتّصال في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللفظُ الدّالّ على المشبه به «المعانقة» للمشبه «الملامسة»، ثم استُعير «عانق» لـ«لامَسَ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية. وهي تصريحيّةٌ لأنّه صرّح فيها بالمشبه به، وتبعيةٌ لأنّ استعارة الفعل جاءت تبعًا لاستعارة المصدر.

٣ ـ قال المتنبي:

«غاضَ» الوفاءُ فمَا تَلْقاهُ في عِدَةٍ وأعوز الصِّدقُ في الأَخْبارِ والقَسَمِ

في قوله «غاضَ» استعارةٌ؛ حيث شبّه المتنبّي اضمحلالَ الوفاء بين الناس بـ«غَيْض» الماء أي نَقْصِه، بجامع التّناقص في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدّالُ على المشبه به «الغَيْض» للمشبّه «الاضمحلال»، ثم استُعير «غاض» لـ«اضمحلّ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة الأصْلية التبعية.

ومن أمثلة الاستعارة في الزّمان هذه الصُّوَر:

١ ـ قال سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي «يأتي». ففي قوله «أتى» استعارة تُجْرَى على هذا النّحو:

شُبّه الإتيانُ في المستقبل بالإتيان في الماضي، بجامع تحقُّق الوقوع وتأكُّده في كلٍّ، ثم استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «الإتيان في الماضي» للمشبّه «الإتيان في المستقبل»، ثم استُعير «أتى» لـ«يأتي» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة. وهي تصريحيّةٌ للتّصريح فيها بالمشبّه به المستعار للمشبّه المحذوف، وتبعيةٌ لأنّ استعارةَ الفعل إنما جاءت تبعًا لاستعارة المصدر.

٢ ـ قال سبحانه حِكايةً لقول إبراهيم عليه السّلامُ لابنه إسماعيلَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ على معنى «رأيتُ». فقد شُبّهت الرؤيةُ الماضية بالرّؤية الحاضرة بجامع استحضار الصّورة العجيبةِ في كلّ، وهي صورةُ ذَبح إبراهيمَ عليه السّلامُ لابنه إسماعيلَ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدّالّ على المشبه به «الرؤية الحاضرة» للمشبه «الرؤية الماضية»، ثم استُعير «أرى» لـ«رأيتُ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة.

٣ ـ قال قيسُ بنُ المَكْشُوح المُرادي من قصيدةٍ يذكر فيها قَتْلَهُ رستَمَ قائدَ الفُرْس:

فلَمّا أن رأيتُ الخَيلَ جالَتْ   قَصَدْتُ لِمَوْقفِ المَلِكِ الهُمامِ
فأَضْربُ رأسَه فهوىٰ صَرِيعًا   بِسَيْفٍ لا أفلَّ ولا كَهامِ

يصِفُ الشّاعرُ واقعةَ حَرْبٍ جرت في الماضي، وكان مقتضى الحال أن يستخدم الفعلَ الماضي في وصْفِ ما حدث، لكنه أراد أن

يستحضر الصّورةَ الرائعةَ الّتي تصوّر ضَرْبَه لهذا القائد تصويرًا يمثّل الحدَثَ كأنه يجْري أمامَ العيَن، فاستخدم لذلك صِيغةَ الحاضر «أَضْرِبُ». وفي هذا الفعل استعارةٌ تجري على هذا النّحو:

شبّه الضَّرْبَ الماضي بالضّرب الحاضر بجامع استحضار الصّورة المُدْهِشة في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدّالّ على المشبه به «الضرب الحاضر» للمشبّه «الضرب الماضي» ثمّ استُعير «أَضْرِبُ» لـ«ضرَبْتُ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيّة.

** الاستعارة في المشتقات:

المشتقّاتُ هي اسْمُ الفاعِلِ، واسمُ المفعول، والصّفةُ المشبَّهة، وأفعلُ التّفضيل، واسْما الزّمان والمكان، واسمُ الآلة. وإليك صُوَرًا للاستعارة في كلّ منها:

ـ فالاستعارة في اسم الفاعل كقولكَ: «تركْتُه لهادِمِ اللّذاتِ»، أي مُذْهِبُها وهو الموتُ. ففي قولكَ «هادم» استعارة؛ حيث شُبّه «الإِذْهابُ» بـ«الهَدْم» بجامع الإزالة في كلّ، وبعد التناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «الهَدْم» للمشبّه «الإذهاب»؛ ثم استُعير «هادم» لـ«مُذْهِب» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية. وهي تصريحيّةٌ للتّصريح فيها بالمشبه به، وتبعيّة لأنّ استعارةَ اسم الفاعل «هادم» جاءت تبعًا لاستعارة المصدر. وكقولكَ: «حُكِمَ على قاتِلِكَ بالسَّجْن» أي ضارِبك ضَرْبًا مبرِّحًا.

ـ وفي اسمْ المفعول كقولِكَ: «رأيتُ حَصِيدَ سَيْفِكَ»، أي مَخصُودَه على معنى مقتوله. ففي قولِك «حصيد» استعارة، حيث شُبّه القَتْلُ بالحَصْد بجامع الاستئصال والإبادة في كلّ، وبعد التّناسي

والادّعاء استُعير اللفظ الدّال على المشبه به «الحَصْد» للمشبّه «القَتْل»، ثم استُعير «حَصِيد» بمعنى محصود لـ «قَتِيل» بمعنى مقتول، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية. ومثلُه قولُ المصطفى ﷺ: «وهل يكبّ الناسَ على وجوهِهِم يومَ القيامةِ إلّا حَصَائدُ ألسنتِهِمْ» أي محصودات ألسنتهم.

- وفي الصّفة المشبّهة كقولكَ: «رأيتُ عزيزَ القومِ» مشيرًا إلى ذَليلِهم. ففي قولكَ «عزيز» في هذا السياق استعارةٌ تجري على هذا النحو: نُزّل التضادُّ بين الذّلّ والعِزّ منزلةَ التّناسب بينهما، ثم شُبّه الذلُّ بالعِزّ بجامع الأبّهة في كلّ، وإن كانت في المشبّه على سبيل الادّعاء، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «العِزّ» للمشبه «الذّلّ»، ثم استُعيرت الصّفةُ المشبّهة «عزيز» لـ«الذّليل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعية التهكُّمية. وكقولك: «رأيتُ حسَنَ الوجهِ» مشيرًا إلى قَبيحِه.

- وفي اسم التّفضيل كقولِ الشاعر:

وَلَئِنْ نَطَقْتُ بشُكْرِ بِرِّك مُفْصِحًا   فلِسانُ حَالي بالشّكايةِ أَنْطَقُ

في قوله «أنطق» استعارة، إجراؤها هكذا:

شُبّهت دِلالةُ الحال بالنّطق بجامع إيضاح المعنى وإيصاله إلى الذّهن في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «النّطق» للمشبّه «الدّلالة»، ثم استُعير أَفْعَلُ التفضيل «أَنْطَقُ» لـ «أَدَلّ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية.

ومثلُه قولُ أبي العتاهية يرثي:

وكانتْ في حَياتِكَ لِي عِظاتٌ   وأنتَ اليومَ أوعظُ مِنْكَ حَيّا

ففي قوله «أوعظ» استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة يسلُك إجراؤها مَسْلكَ سابقتها.

ـ وفي اسمي الزّمان والمَكان كقولكَ: «هذا مَقْتَلُ زيدٍ» تشير إلى زمانِ ضَرْبه ضربًا شديدًا، أو مكانه. شُبّه الضّربُ الشّديد بالقتل بجامع الإيلام في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «القَتْل» للمشبّه «الضّرب الشّديد»، ثم استُعير اسم الزّمان أو اسم المكان «مَقْتَل» لـ «زمان الضّرْبِ الشّديد أو مكانه» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثالُها في الذّكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾أي: من موضع موتنا «القبر».

ـ وفي اسم الآلة كقولِكَ: «رأيتُ مِفْتَاحَ فلانٍ»، تريد الشخصَ الّذي يُوصِل إليه. ففي قولك «مفتاح» استعارةٌ، إذ شبّهْتَ تيسير الوصول إلى ذلك الشخص بالفَتْح بجامع سهولة الوصول إلى كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدالّ على المشبه به «الفَتْح» للمشبّه «تيسير الوصبول»، ثم استُعير اسمُ الآلة «مِفْتاح» لـ «مُيَسِّر الوصول» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ونَحْسَبُكَ الآنَ تردّد معنا:

إنّ الاستعارةَ في المشتقّات تبعيةٌ، لجَرَيانها في المَصادر أولًا؛ لأنّ المصدرَ هو المعنى «القائم بالذّات» وهو أسْبقُ في الاعتبار وأولىٰ.

***** الاستعارة في الحَرْف:**

تحدُث الاستعارةُ في الأحرف، حيث نلحظ اتّخاذَ الحَرْف معنًى غير معناه الأصليّ. وإليكَ أمثلةً لاستعارةِ الحَرْف:

ـ قال سبحانه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾. اللاّم في هذه الآية مستعمَلةٌ في غير التَعليل، الذي يعني ترتُّبَ ما بعْدَها على ما قبْلَها. فقد التقطه آلُ فِرْعونَ ليكون حبيبًا وسرورًا لهم لا لِيكونَ عدُوًّا وحزَنا. ولكنْ لمّا كانت النّتيجةُ المترتّبة على الالتقاط العداوةَ والحَزَنَ، لا المحبّة والسّرور، شُبِّهت العَداوةُ والحزَنُ المترتّبان على الالتقاط الفعليّ بالمحبّة والسّرور المترتّبين على الالتقاط فيما كان يأمَلُ آلُ فرعون، ثم استُعمِلت فيه اللاّم تجوّزًا. وتُجرى الاستعارةُ هكذا:

شبّه العداوةَ والحَزَن المترتّبين على الالتقاط فعلاً بالعِلّة الحقيقية الّتي هي المحبةُ والسّرور، والجامع بين الاثنين أنّ كلاًّ منهما مترتّبٌ على الالتقاط، فسرى هذا التّشبيهُ إلى تشبيه ترتّبِ العَداوةِ والحزَنِ على الالتقاط بترتّب المحبّة والسّرور بجامعِ مُطْلَق ترتّب شيء على شيء. ثمّ استُعيرت اللاّم الموضوعةُ لترتّب العلّةِ الحقيقية (المحبّة والسّرور) لترتّب غير العِلّة الحقيقية (العداوة والحزَن) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ـ قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾. أصْلُ «في» أنّه حرْفٌ موضوعٌ لتلبّس الظّرْف بالمظروف حقيقةً، ومن ثمّ فإنّ «في» في الآية مستعملةٌ في غير ما وُضِعتْ له؛ لأنّ ما بعْدَها لا يصلُح ظرْفًا لِما قبلها حقيقةً، ولكنْ لمّا كانت جذوع النّخل متمكّنةً من المصلوبين تمكّنَ الظّرفِ من المظروف، شُبِّهت الجذوعُ بالظّرف الحقيقيّ في هذا التمكّن، ثم استُعير لها لفظُ «في» تجوّزًا. وإجراء الاستعارة في هذه الآية يمضي هكذا:

شُبّهتِ الجُذوعُ المستعلىٰ عليها بالظَّرْفِ الحقيقيّ بجامع التمّكن في كلّ، فسرىٰ هذا التشبيهُ إلى تشبيه تلبُّسِ الجذوعِ بالمصلوبين بتلبُّسِ

الظّرف بالمظروف الحقيقيّين بجامع مطْلَقِ التمكّن في كلّ، ثم استُعير اللّفظ الدّالّ على المشبه به «في» للمشبّه «تلبّس الجذوع المستعلى عليها بالمستعلي» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ـ وتقول حين تُسأل عن حالِكَ: «أنا في خيرٍ، الحَمْدُ لله». ففي لفظ «في» ههنا استعارة. ذلك أنّ المعنى الوَضْعيّ لـ «في» هو تلبُّس الظّرْف بالمظروف حقيقةً. ولعلّكَ لاحظْتَ أنه مستعمَلٌ هنا في غير ما وُضِع له، لأنّ ما بعده لا يصلح ظرفًا لِما قبله. ولكنْ لمّا كان الخيرُ متمكّنًا منك تمكّنَ الظّرْف من المظروف الحقيقيّين شُبّه الخيرُ بالظّرف الحقيقيّ في هذا التمكّن، واستُعمل فيه لفظ «في» تجوّزًا؛ وإجراء هذه الاستعارة هكذا:

شُبّه الخيرُ بالظّرف الحقيقيّ بجامع التمكّن في كلّ، فسرى هذا التّشبيه إلى تشبيهِ تلبّس الخَيْر بك بِتَلبُّس الظّرف بالمظروف الحقيقيين بجامع مُطْلَق تمكّن شيء من شيء، ثم استُعير «في»الموضوع للمشبه به «تلبُس الظّرف بالمظروف الحقيقيين» للمشبّه «تلبّس الخير بك» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

بقي عليكَ أن تعلم:

أنّ الاستعارةَ في الحَرْف سُمّيت تبعيّةً؛ لأنّها تابعةٌ لتشبيه، كما سمّيت تصريحيةً؛ لأنه صُرِّح فيها بالحَرْف المنقول من المشبه به إلى المشبه..

قرينة الاستعارة التبعية:

أسلَفْنا أنّ القرينةَ في الاستعارة مؤشّرٌ دِلاليّ ملفوظٌ أو ملحوظ، يحدِّد كونَ الكلمة مستعارةً من مدلولها الأصليّ لمدلولٍ آخر بينه وبين الأوّل علاقة تشابه. وفي مقدورنا القولُ إنّ قرينةَ الاستعارة التبعية ترجع في الأعمّ الأغلب إلى:

١ـ الفاعل، كقولِكَ: «نطَقَتِ الحالُ بكذا»؛ فإنّك تستدلّ على أنّ «نطَق» هنا مستعملٌ استعمالاً مجازيًا من خلال الفاعل «الحال»؛ ذلك لأنّ الحال لا تنطِق نُطْقًا حقيقيًا. ولا بدّ من أن تكون «نطَق» هنا بمعنى «دلّ». ومنه في الذكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، فالفاعل «الماء»يدلّنا على أنّ «طغى» هنا معناه «كثُر كثرةً جاوزتِ الحدَّ».

٢ـ نائب الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾فقد دلّ نائبُ الفاعل ﴿ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ على أنّ «ضُرِبتْ» هنا استعارةَ تبعيّة بمعنى «حُكِم عليهم»؛ لأنّ الذلّة والمَسْكنة لا تُضْرَبان كما تُضْرَب الخيمةُ بلْ يُحْكَم بهما على المعاقَب.

٣ـ المفعول كقول ابن المعتزّ:

جُمِعَ الحَقُّ لنا في إمامٍ   قتلَ البُخْلَ وأحيا السّماحا

فقد دلّ المفعول «البُخْل» و «السّماحا» على أنّ «قَتَل» هنا استعارةٌ تبعية بمعنى «أزال» و «أَحْيا» استعارةٌ تبعية بمعنى «أكثر».

٤ـ المجرور كقوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾فقد دلّ المجرورُ «العذاب» على أنّ «بشّر» هنا استعارةٌ تبعية لـ «أَنْذِرْ»؛ لأنّ التبشير الحقيقيّ لا يتعلّق بالعذاب. ومن ثَمّ فإنّ ذِكْر العذاب قرينةٌ على أنّ «بشّر» استعارةٌ تبعيّة تهكّمية.

الاستعارة التصريحية تبعًا للمُلائم:

لعلّكَ لاحظْتَ من تتبّع أمثلة الاستعارة أنها قائمةٌ على ادّعاء كون المشبّه من جِنْس المشبّه به وفردًا من أفراده. ويحدث في التعبير الاستعاريّ أن يُذْكَر ما يُقوّي هذا الادّعاءَ أو يُضعِفُه تبعًا للمعنى المذكور وانتمائه إمّا إلى المشبّه وإمّا إلى المشبه به. ومختصرُ القولِ أنّ

الاستعارة التصريحية تبعًا لِذِكْر ملائم أحد الطّرفين (المشبه والمشبه به) وعدمِ ذِكْره، على ثلاثة أضرب: مرشَّحة، مجرَّدة، مُطْلقة.

وسيأتيك كلٌّ منها على نحوٍ يوضح السبيلَ إن شاء الله.

*** الاستعارة المرشَّحة:**

هي الّتي تُقرَن بمعنًى ملائمِ للمستعار منه «المشبّه به» فيزيد ذلك من تناسي المعنى الأصْليّ وإيهامِ أنّ هذا الادّعاء المجازيّ إنما هو حقيقة. ومن أمثلتها:

١ـ قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾. استُعير «الاشتراءُ» لـ «الاختيار»، ثمّ استُعير «اشتروا» لـ «اختاروا»، ثم فُرّع على هذه الاستعارة التّبعيّة شيءٌ يلائم المستعارَ منه ويعزّز حقيقتَه، وهو «الرّبح والتّجارة» ترشيحًا للاستعارة وتقوية لها.

٢ـ قال سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. استُعير «الجَناح» لـ «الجانب»، ورشّحت الاستعارةُ بذِكْر ملائم المستعار منه وهو قوله: «اخفِضْ»، وهو من أوصافِ الجناح الحقيقيّ. والاستعارة مرشّحة.

٣ـ قال البُحْتُرِيّ يعتذر ليعقوبَ بنِ أحمدَ:

ولـمّا نَبَتْ بي الأرْضُ عُذتُ إليكُمُ   أَمُـتُّ بِـحَـبْـلِ الـوُدِّ وهُـوَ رِمـامُ

استعار «الحَبْلَ» لعلاقة الودّ ورِباط المحّبة، ثم وصف هذا الحبلَ بأنه «رِمامٌ» أي بالٍ، ترشيحًا للاستعارة بإضافة ما يقوّي ادّعاءَ أنّ علاقة الودّ هذه حبلٌ حقيقيّ.

٤ـ قال المتنبيّ:

كـبُـرتُ حَـوْلَ ديـارِهِـمْ لـمّـا بَـدَتْ   منها الشّموسُ وليسَ فيها المَشْرِقُ

استعار «الشمّسَ» للرّجال، ثم أضاف لهذه الاستعارة ما يقوّي دعوى أنهم شموسٌ حقيقيةٌ، وهو المَشْرق والتّكبير؛ إذ يفيدان أنه حين رأى هذه الشموسَ تطلُع من غير المشرِقِ أخذ يكبّر شأن المُسْلم عندما تلوحُ له آيةٌ من آيات الله، وفي هذه الإضافة ترشيحٌ للاستعارة وتقوية لها.

بقي عليك أن تعلم:

أن الترشيح يعني التّربيةَ والتّقوية، وأنّ هذه الاستعارة سُمّيت مرشَّحة لأنّها مقرونةٌ بما يبعدها عن الحقيقة ويقوّي فيها دعوى الاتّحاد بين الطّرفين.

وعن سِحْر هذا الضّرْب من الاستعارة وخِلابته قال الزّمخشريُّ:

«هذا من الصّفة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذّروةَ العُليا، وهو أنْ تُساق كلمةٌ مساقَ المَجاز ثم تُقفّى بأشكالٍ لها وأخوات إذا تلاحقْنَ لم ترَ كلامًا أحسنَ منه دِيباجةً وأكثر ماء ورَوْنقًا، وهو المجازُ المرشَّح».

**** الاستعارة المجرّدة:**

هي التي تُقرَن بمعنًى ملائم للمستعار له «المشبّه»، فيُضْعِف ذلك ادّعاءَ الاتّحاد بين الطّرفين ويذكِّر المتلقّيَ بأنه إزاءَ مجازٍ.

ومن أمثلتها:

١ـ قال كُثَيِّر عَزّةَ يمدح:

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تبسّم ضاحِكًا   غَلِقَتْ لِضِحْكَتِه رِقابُ المَال

غَمْرُ الرّداء معناه كثير العطاء، وقد استعار كُثَيّر «الرّداء» لـ «العطاء»؛ لأنه يصون عِرْضَ صاحبه كما يصون الرّداء ما يُلقى عليه. ثمّ أتى بملائم المستعار له «العطاء» وهو وصْفُه بـ «الغَمْر» أي الكثير،

تجريدًا للاستعارة، أي إضعافًا لادّعاء اتّحاد المستعار منه والمستعار له، وتذكيرًا بأنّ الأمرَ لا يعدو دائرةَ المجاز.

٢ـ قال البحتريّ:

يـؤدّونَ الـتّـحـيّـةَ مِـنْ بـعـيـدٍ   إلـى قَـمَـرٍ مِـنَ الإيـوانِ بـادِ

استعار «القمرَ» لـ «الإنسان الجميل»، ثمَّ أتى بملائم المستعار له «الإنسان»، وهو كونه مُطِلًّا من القَصْر، تجريدًا للاستعارة؛ أي إضعافًا لادّعاء اتحاد الطَّرفين، وتذكيرًا بأنّ الأمرَ لا يعدو المجاز.

٣ـ قال الشاعرُ العبّاسيّ سعيدُ بنُ حُمَيْد:

وَعَـدَ «الـبَـدْرُ» بـالـزِّيـارةِ لَـيْـلاً   فـإذا مـا وفَـى قَـضَـيْـتُ نُـذُوري

استعار «البدر» للمحبوبة ثم ذَكر ملائمَ المستعار له «المحبوبة»، وهو الزّيارة والوفاء بالوعْد، إذْ هما من شأن الإنسان، تجريدًا للاستعارة.

٤ـ قال الشاعر:

يا ابنَ الكَواكِب من أئِمّةِ هاشِم   والـرُّجَّـحِ الأَحْـسـابِ والأحْـلامِ

استعار «الكواكبَ» للرّجال، ثم أتى بملائم المستعار له «الرّجال»، وهو كونهم من أئمة هاشم ورجّح الأحساب والأحْلام، تجريدًا للاستعارة.

بقي عليك أن تعلم:

أنّ التجريدَ يعْني النزْعَ، وأنّ هذه الاستعارةَ سُمّيت مجرّدةً؛ لتجرّدها عمّا يقوّي فيها ادّعاءَ الاتّحاد بين الطرفين.

اجتماع التّرشيح والتّجريد في استعارة واحدة:

يحدُث أن يجتّمع التّرشيحُ والتّجريد في استعارةٍ واحدة، فيُضفي

ذلك على الصّورة شيئًا من التعقيد والرّوعة، يتأتّى في المقام الأوّل من مضاعفة حَيْرة العقل في إدراك المُراد على نحْوٍ محدَّد، حتى إذا استبان في النهاية أنّ درجة الإغماض بقيتْ كما هي بعد التّقوية بالتّرشيح والإضعاف بالتّجريد، حدَث له شيءٌ من البهجة. تمثّل ذلك في قول زهير:

لدى أسَدٍ شاكي السِّلاح مقذَّفٍ   لـهُ لِـبَـدٌ أظْـفـارُهُ لَـمْ تُـقَـلَّـمِ

شاكي السلاح تامُّهُ. واللِّبَد: جمع لِبْدة، وهي شعَرُ الأسَد المتلبِّدُ على منكبيه. وههنا استعار الشاعرُ «الأسد» للرّجل الجريء، ثم أتى بملائم المستعار له «الرّجل»، وهو قولُه «شاكي السّلاح» تجريدًا للاستعارة، وبملائم المستعار منه «الأسَد»، وهو قوله «له لِبَد» ترشيحًا للاستعارة.

ومنه أيضًا قولُ الشاعر:

رَمتْني بِسَهْم ريشُهُ الكُحْلُ لم يَضِرْ   ظَواهِرَ جِلْدي، وهو لِلْقلبِ جارحُ

استعار «السّهمَ» للطّرْف بجامع شدّة التأثير وقوّة الفَتْك في كلّ، ثم أتى بملائم المستعار له «الطّرْف» وهو الكُحْل، تجريدًا للاستعارة، وبملائم المستعار منه «السّهم» وهو «رِيشُه» ترشيحًا للاستعارة.

الاستعارة المُطْلقة:

هي الّتي لا تُقرن بشيء من ملائمات أحَد الطّرفين. وإليكَ أمثلةً لها:

١ـ قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾. استُعير «الأخذُ» لإبطال الحواسّ بجامع توقّف الانتقاع في كلّ، ثم استُعير «أخَذَ» لـ «أَبْطَل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التّبعية، ولأنّه لم يُؤتَ بملائمٍ لأيّ من الطّرفين كانت الاستعارةُ مطلقةً.

٢ـ قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استُعير «النّزعُ» لـ «الإزالة»، ثم استُعير «نَزَع» لـ «أزالَ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. ولأنّه لم يُؤتَ بملائمٍ لأيّ من الطرفين كانت الاستعارة مطلقةً.

٣ـ قال المتنبّي:

يا بَدْرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا لَيْثَ الشَّرى، يا حمامُ، يا رَجُلُ

استعار «البَدْر» و «البَحْر» و «الغمامة» و «ليث الشّرى» و «الحِمام» أي الموت للممدوح. والقرينةُ في كلّ من هذه الاستعارات أداةُ النّداء. ولأنّ أيًا من هذه الاستعارات لم يُقْرَن بملائمٍ لأيّ من الطّرفين كانت هذه الاستعاراتُ مطلقةً.

ويضمّ البلاغيون إلى الاستعارة المطلقة ما اجتمع فيها ترشيحٌ وتجريد كالبيتين اللّذين أسلفنا القولَ فيهما، وتعبيرُ علماء البلاغة عن ذلك هو: إنّهما تتعارضانِ فتتساقطان، فكأن لا ترشيح ولا تجريد. ومن ذلك قولُ بشّار:

أتَتْني الشّمْسُ زائرةً ولَمْ تكُ تَبْرَحُ الفَلَكا

استعار «الشّمس» للمحبوبة، ثم أتى بملائم المستعار له «المحبوبة» وهو الزّيارة، إذ هي شأنٌ بشريّ، وبملازم المستعار منه «الشّمس»، وهو عدم مغادرة الفلك، وهو خصوصية للشّمس.

بقي أن تعلم أنّ تسميةَ هذه الاستعارة «مطلقةً» راجعةٌ إلى كونها مطلقةً عن التقييد بما يلائم أحد الطّرفين.

ولكَ أن تتساءل: أيُّ هذه الاستعارات الثلاث أبلغُ؟

من غير العسير أن يدرِكَ المتلقّي أنّ التّرشيحَ، الذي يتمثّل في ذكر ملائم المستعار منه، أبلغُ من سِواه؛ لأنّه يقوّي دعوى الاتّحاد بين

الطّرفين، ويخيّل للمتلقّي أن المشبّه هو المشبّه به تمامًا. وعلى هذا فالاستعارة الترشيحية في قول ابن المعتزّ:

أَثْـمَـرتْ أغْـصـانُ راحَـتِـهِ بِـجِـنـانِ الـخُـلْـدِ عُـنّـابًـا

أبلغُ من الاستعارات المطلقة في قوله:

فأمطَرَتْ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ وَرْدًا وعضّتْ على العُنّابِ بِالبَرَدِ

ففي الأولى ادّعاء أنّ المستعار له هو المستعار منه بِلَحْمه ودَمِه، كما يقولون، وليس في استعارات البيت الثاني شيءٌ من ذلك.

على أنّ الإطلاق يأتي في المنزلة الثانية، وهو أبلغ من التجريد؛ لأنّ التجريدَ إضعافٌ لدعوى الاتّحاد بين الطّرفين، وفيه محدِّد دِلاليّ يظلّ يقول لكَ: أنتَ أمامَ مَجازٍ لا حقيقة، والمستعار له ملحقٌ إلحاقًا بالمستعار منه.

الاستعارة المَكْنيّة

أسلَفْنا أنّ الاستعارة من حيثُ ذِكْرُ أحد طرفيها قِسْمانِ: تصريحية، ومكنية. وقد فصّلنا الحديثَ في التّصريحية، وههنا مجالُ الحديث عن الاستعارة المكنية.

الاستعارةُ المكنية في مذهب جَمْهرة علماء البيان هي:

لفظُ المشبَّه به المستعارُ في النفس للمشبّه، والمحذوفُ المدلول عليه بذِكْر شيءٍ من لوازمه وخواصّه.

وهاك صُوَرًا تُوضِح هذا الضّربَ، مع بيان إجراء الاستعارة فيها:

١ـ قال أبو ذُؤَيب الهُذَليّ:

وإذا المَنِيّةُ أَنْشَبَتْ أظفارَها ألفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تنفَعُ

أراد الشّاعر تصويرَ حتميّة الموت وبيانَ أنه قضاءُ الله الذي لا مردّ له. فدفع به عُمْقُ الإحساس بِوَطْأةِ الحِمام والرّغبةُ في توصيل هذا الإحساس إلى الآخرين إلى تشبيه المنيّة بالسَّبُع في اغتيال النّفوس، وبعدَ تناسي التّشبيه وادّعاء أن المشبّه فرْدٌ من أفراد المشبه به استعار في نفسه لفظ «السَّبُع» للمنية، ثم حذَفه ودلّ عليه بذِكْر بعض خواصّه وهو «الأظفار»، التي أثبتها للمشبه «المنية» على سبيل الاستعارة المكنية.

٢ـ قال الشاعر:

الرّيحُ تحسدني عليك ـ ولَمْ أَخَلْها في العِدَا

لمّا هَمَمْتُ بقُبْلةٍ ردّتْ على الوجهِ الرِّدا

في قوله «الريح تحسدني» استعارةٌ؛ إذ شبّه الرّيحَ بإنسان، وبعد التناسي والادّعاء استعار في نفسه لفظ «الإنسان» للريح، ثم حذَفه ودلّ عليه بذكر بعض خواصّه وهو «الحسد» الذي أثبته للمشبه «الرّيح» على سبيل الاستعارة المكنية.

٣ـ قال محمّد بن وُهَيْب:

وحارَبَني فيهِ رَيْبُ الزّمانِ كأنّ الزمانَ لهُ عاشِقُ

في قوله: «حاربني رَيْبُ الزّمان» استعارةٌ؛ إذ شبّه ريبَ الزمان بإنسان، وبعد التّناسي والادّعاء استعار في نفسه لفظ «الإنسان» لريب الزمان، ثم حذفه ودلّ عليه بذكر بعض خواصّه وهو «المُحاربة» الّتي أثبتها للمشبه «ريب الزمان» على سبيل الاستعارة المكنية.

٤ـ قال أبو العَتَاهِية يهنّىء المَهْدِيَّ بالخِلافة:

أتتْهُ الخلافةُ مُنْقادةً إليهِ تُجَرِّر أذْيالَها

شبّه الخلافةَ بغادةٍ ترفل بالثياب وتجرّ وراءها فَضْلَ إزارها، وبعد تناسي التّشبيه وادّعاء أنّ المشبّه فرْدٌ من أفراد المشبه به استعار في نفسه لفظ «الغادة» للخِلافة، ثم حذَفه ودلّ عليه بذِكْر بعض خواصّه، وهو «جرّ الذيل»، الذي أثبته للمشبه «الخِلافة» على سبيل الاستعارة المكنية.

ونحْسَبُ أنّك قد لاحظْتَ في كلّ الأمثلة المتقدّمة أن لفظَ المشبه به محذوفٌ، ومَكْنيّ عنه بلازمٍ من لوازمه، ومن هنا سُمّيت هذه الاستعارة «مَكْنيةً» لأنّه لا يُصرَّح فيها بذكر المشبه به، بل يُكْنى عنه بذِكْر شيء من خواصّه ولوازمه.

قرينة الاستعارة المَكْنية:

أسلَفْنا أنّ وظيفة القرينة في الاستعارة أنها تَصْرِف ذهنَ المتلقّي

عن المعنى الوَضْعيّ للفظ المستعار، وتدفعه إلى المعنى المجازيّ.
ونُضيف هنا أنّ قرينة الاستعارة المَكْنية هي إثْباتُ لازم المشبّه به المحذوف للمشبّه المذكور. تأمّلْ قولَ المتنبّي في تضاعيف قصيدته في «الحُمّى»:

أَبِـنْـتَ الـدَّهـرِ عِـنْـدي كـلُّ بنْـتٍ   فكيفَ وَصَلْتِ أنتِ مِنَ الزّحامِ

أراد المتنبّي أن يصوّر حَمْلَ الدّهر عليه وقذْفَه بالأَرْزاء والنّكبات، وأنه يَفْجَؤه كلّ يوم بِهَمٍّ جديد، فشبّه «الدّهْرَ» بـ «الرّجل»، بجامع الإنجاب في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعارَ في نفسه لفظَ «الرّجل» للدّهر، ثمّ حذفه ودلّ عليه بذِكْر بعض خواصّه وهو «بِنْت»، التي أثبتها للمشبّه «الدّهر» على سبيل الاستعارة المكنية. والذي دلّنا على هذه الاستعارة إنّما هو إثباتُ لازم المشبه به المحذوف «بنت» للمشبّه المذكور «الدّهر»؛ ومن ثَمّ فإنّ هذا الإثبات الدّالَ هو قرينةُ هذه الاستعارة المكنية.

وننبّه هنا أيضًا على أنّ البلاغيين يُسمّون إثباتَ لازم المشبه به المحذوف للمشبه المذكور ـ أو قرينة المكنية ـ «الاستعارة التخييلية». أمّا كونُها استعارةً فلأنّ اللاّزمَ المذكور ـ بِنْت في المثال السابق ـ استُعير للمشبّه، وأمّا كونُها تخييليةً فلأنّ ذلك اللاّزم لما نُقِل واستُعمل مع المشبَّه خَيّل للسّامع أنّ المشبّه من جنس المشبّه به.

تقسيماتُ الاستعارة المكنية:

ما تقدّم من تقسيمات الاستعارة التّصريحية على أصْليّة وتبعيّة، ثمّ على مرشّحة ومجرّدة ومُطْلقة، ينطبق أيضًا على الاستعارة المكنيّة. ولن يصعُبَ عليكَ تبيُّنُ ذلك إن شاء الله، لكنّنا نقدّم إليكَ مِثالاً لكلّ حالةٍ لتكونَ مَعالِمَ في طريق تحصيلِكَ جليّةَ الأمْر:

١ـ فالاستعارة المكنيّة الأصْلية كاستعارة اسْمِ الجِنْس «الإنسان» في قول الشاعر الذي تقدّم القولُ فيه:

الرّيحُ تحسدني عَلَيْكِ ولَمْ أخَلْها في العِدا

إذ المستعارُ هو لفظُ «الإنسان» المحذوفُ والمرموز إليه بشيء من لوازمه، وهو «الحسَد».

٢ـ والاستعارة المكنية التبعية كقولك: «يُعْجِبني إراقةُ الضّارب دمَ الباغي». ويقولون في إجْرائها: شبّه الضَّرْبَ الأليم بالقَتْل بجامع الإيذاءِ الشديد في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعارَ في نفسه القتْلَ للضّرْب الشديد، واشتقّ من القَتْل «قاتِل» لـ «ضارب ضَرْبًا شديدًا»، ثمّ حذَفَه ودلّ عليه بلازمه وهو «الإراقةُ» على سبيل الاستعارة المكنيّة التبعيّة.

٣ـ والاستعارة المكنيّة المرشّحة كقولِ تَأبَّطَ شَرًا يتحدّث عن سَيْفه:

إذا هزّهُ في عَظْمِ قِرْنٍ تهلّلَتْ نَواجِذُ أَفْواهِ المَنايا الضَّواحِكِ

فقد شبّه المنايا بأُناسٍ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار في نفسه «النّاس» للمنايا، ثمّ حذف المشبه به، ودلّ عليه بذكر بعض خواصّه وهو «الأفواه» التي أثبتها للمشبّه على سبيل الاستعارة المكنية. وإثباتُ لازم المشبه به «الأفواه» للمشبه «المنايا» استعارةٌ تخييلية. وقوله «نواجذ» ترشيحٌ لهذه الاستعارة؛ أي تقويةٌ لادّعاء الاتّحاد بين الطرفين.

٤ـ الاستعارة المكنية المجرّدة كقولكَ: «نَطَقتِ الحالُ الواضحةُ بِكَذا». شُبِّهت الحالُ بإنسان، وبعد التّناسي والادّعاء استعرْتَ في نفسك الإنسانَ للحال، ثم حذفْتَه ودلَلْتَ عليه بذِكْر شيءٍ من خواصّه «النطق». وإثباتُ النّطْق للحال استعارةٌ تخييلية. ووصْفُ الحال بالوضوح «تجريد»؛ لأنه من خواصّ المستعار له.

٥ـ الاستعارة المكنيّة المطلقة، كقول زُهَير ينفّر من الحرب:

فتُغْلِلْ لكُمْ ما لا تُغِلُّ لِأَهْلِها   قُرًى بالعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

شبّه زهيرُ الحرْبَ بالمَزْرعة بجامع الإنتاج في كلّ، ثم استعار في نفسه لفظَ المشبه به «المزرعة» للمشبه «الحَرْب» ثم حذَفه ودلّ عليه بذِكْر بعضٍ من خواصّه وهو «تُغْلِل»، فإنه من خواصّ المزرعة، على سبيل الاستعارة المكنية.

وإثباتُ «الإغلال» للحَرْب استعارةٌ تخييليّة، وهو قرينة هذه الاستعارة طبعًا. والاستعارةُ مُطْلقةٌ لعدم ذِكْر ملائم لأيّ من الطرفين.

محسّنات الاستعارة:

وضع البلاغيون شروطًا لا غنى عنها لتحظى الاستعارة بالطّلاوة والقبول. وهي:

١ـ إحرازُ شروط حُسْن التشبيه، ومن ذلك:

أـ وفاء التشبيه بالغرض المُراد منه، كقولك تحسّن صورةَ الشَّيْب عند صديق: «رأيتُ بياضَ البازِيّ»، وكقولِكَ تقبّح صورةَ سَواد الشعَر عند آخر: «رأيتُ سَوادَ الغُراب». فالتّشبيه في الاستعارتين تحقّق الغرضُ المرادُ منه؛ فبياضُ البازيّ شيءٌ مُستحسَنٌ في أذواق الناس، وسَوادُ الغُراب شيء مُستقبَح، واختيارُ كلّ منهما مشبهًا به يفي بالغرض. وقد حسُنتْ الاستعارةُ في الموضعين لتحقيق تشبيهِها الغرضَ المنشود.

ب ـ غرابة وجه الشّبه وطرافته، كقولكَ في الشّمس: «رأيتُ مرآةً في كفّ أشلّ». ومصْدرُ حُسْنِ الاستعارة هنا كَوْنُ وجْهِ الشّبه بين الشمس والمِرآة في كفّ الأشلّ غريبًا طريفًا.

جـ - قوّة التّشابه بين الطّرفين إلى حدّ يخيّل الاتّحادَ بينهما، كقولكَ: «وجدْتُ الموتَ في لِقاء فلانٍ»، أي شِدّةً بالغةً كالموت في الصّعوبة. وكقولكَ: «في قلبه ظُلْمةٌ»، أي شُبْهَةٌ كالظّلمة في السواد. وكلّما قوي التشابهُ بين الطّرفين حسّن لك الاستعارة.

٢ـ التّباعد عن الحقيقة باستخدام التّرشيح، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾. وكقول أهْلِ المدينة في المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: «طلَع البَدْرُ علينا». ففي الآية الكريمة باعدتْ معاني الرّبح والتّجارة المشبّهَ وهو «اختاروا» عن الحقيقة، فحسّن ذلك الاستعارةَ.

وفي قول الأنصار باعد الفِعْلُ «طلَع» المشبَّهَ، وهو المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام، عن الحقيقة وحسّن الاستعارةَ، فكأنّ المصطفى عليه الصّلاة والسّلام بَدْرٌ حقيقيٌ يطلُع ويُضيء ويُنير وليس بشرًا رسولاً، وأين البدرُ منه؟!

٣ـ تجنّب ذكْر ما يدلّ على التّشبيه، كقولكَ في فتاةٍ حسناء: «رأيتُ البدرَ في الإيوان». فليس في كلامك ما يومىء إلى المشبه.

٤ـ سهولة تحصيل وجه الشّبه ليتيسّر انتقالُ الذّهن من المستعار منه إلى المستعار له. فلا يحسُنُ أن تقولَ: «رأيتُ نَخلةً» تريد حَبْلاً بجامع الطّول؛ لخفاء وجه الشّبه، في حين يحسُنُ قولُك: «رأيتُ نخلةً في بيتِ الجيران»، تريد رجلاً طويلاً، لِتأتّي إدراك وجه الشبه.

أسئلة وإجاباتها حول الاستعارة وأنواعها وقرينتها:

أولًا: أَجْرِ الاستعارةَ، وبيّن نوعَها وقرينتَها فيما يأتي:

١ ـ عـضّـنـا الـدّهـر بِـنَـابِـهْ لَـيْـتَ مـا حَـلّ بِـنَـا بِـهْ

٢ ـ قال سبحانه: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣ ـ تقول لرجلٍ عَيٍّ لا يُحْسِن الخَطابة: «يا قسّ بن سَاعِدة».

٤ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٥ ـ نثرتَهُمْ فوقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرةً كمَا نُثِرتْ فوقَ العَروسِ الدَّراهِمُ

٦ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

٧ ـ لَسْنا وإنْ أَحْسابُنا كَرُمَتْ يومًا على الأَحْسابِ نتَّكِلُ

٨ ـ قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

١٠ ـ أتَتْهُ الخِلافةُ مُنقادةً إليهِ تُجرِّرُ أذيالَها

١١ ـ مَنْ كان مَرْعى عَزْمِهِ وهُمومِهِ روضَ الأماني لم يَزَلْ مهزولا

١٢ ـ بكَتْ لؤلؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مدامعي عَقيقًا فصارَ الكُلّ في نَحْرِها عِقدا

ـ الإجابات:

١ـ في قوله «عضّنا» استعارةٌ تصريحية تبعية مرشّحة؛ حيث شبّه إيلامَ الدهر وعنَتَه وما يواجه الإنسانَ فيه من المصائب بالعَضّ، بجامع «شدّة التأثير في كلّ»، وبعد تناسي التّشبيه وادّعاء أنّ المشبّه فَرْدٌ من أفراد المشبه به استُعير اللّفظ الدّال على المشبه به «العضّ» للمشبه، ثم اشتُقّ من «العضّ» بمعنى الإيلام الفعلُ «عضّ» بمعنى آلم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينةُ لفظ «الدّهر»؛ لاستحالة صدور العضّ عنه، ولفظُ النّاب ترشيح. ويَصِحّ أن تقولَ إنّ في «عضّنا»

استعارةَ مكنية أصلية مرشّحة؛ حيث شُبّه الدّهر بحيوان مفترس بجامع «الأذى في كلّ»، ثم استُعير الحيوانُ للدّهر، ثمّ حُذِف ودُلّ عليه بلازمه وهو «العضّ». والقرينةُ إثبات العضّ للدهر، و «الناب» ترشيح.

٢ـ نُزّل التّضادّ بين الهِدايةِ التي هي الدّلالةُ برِفْق والدّفْعِ العنيف منزلةَ التّناسب، ثمّ نُزّل الدفعُ العنيفُ إلى جهنّم منزلةَ الهِداية إلى الخير على سبيل التهكّم، ثم شُبّه الدّفع العنيف بالهداية بجامع ما يترتّب على كلّ من النفع، وإن كان هذا النفع ادّعائيًا في المشبه، ثم استُعيرت الهدايةُ للدّفع العنيف، واشتُقّ منها الفعل «اهدوهم» بمعنى ادفعوهم بعُنْف على سبيل الاستعارة التّبعيّة التهكّميّة، والقرينة هي المجرور بـ «إلى».

٣ـ نُزّل التّضادُّ بين «العِيّ» و «الفَصاحة» منزلةَ التّناسب، ثمّ نُزّل الشخص «العَيّ» منزلةَ الفصيح تهكّمًا أو تظرّفًا، ثم شُبّه الرّجل العَيّ بِقُسّ بجامع الفصاحة في كلّ، وهي ادّعائية في المشبه، ثم استُعير لفظُ المشبه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصليّة التهكُّميّة. والقرينةُ حاليةٌ لأنّ الشخصَ الذي تناديه غير قُسّ.

٤ـ في قوله سبحانه: ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شبّه الضّلالَ الّذي زعموا أنه فيه بالظّرف الحقيقيّ بجامع التمكّن في كلّ، فسرى هذا التّشبيهُ إلى تشبيه تلبّس الضّلال به بتلبّس الظّرف بالمظروف الحقيقيّن بجامع مطلق تلبّس شيء بشيء، ثم استُعيرت «في» الموضوعةُ لتلبّس الظّرْف بالمظروف الحقيقيين لتلبّس الضّلال به، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة، والقرينةُ هي المجرور بـ «في».

٥ـ في قوله «نثرتَهم» استعارة تصريحية تبعية، حيث شُبّه إسْقاطُ الأعداء وتبديدُ جثثهم فوق الجَبَل بنَثْر الدّراهم على العَروس بجامع «البَعْثَرة في كلّ»، ثم أستُعير النثرُ للإسْقاط المبعثَر، واشتُقّ من النّثر الفِعْل «نثَر» بمعنى أَسْقط على نحْوِ مبعثَرٍ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية الداخلية. والقرينةُ المفعولُ الضّمير «هم» في قوله: «نثرتهم».

٦ـ في قوله «اشتعل» استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شُبّه ظهور الشّيب وانتشارُه باشتعال النّار بجامع البياض في كلّ، ثم استُعير الاشتعالُ للظّهور البيِّن، واشتُقّ من الاشتعال الفِعْل «اشتعل» بمعنى ظهر على نحو واضح، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينةُ الفاعل «الرأس».

٧ـ في قوله «على الأَحْساب» استعارةٌ تصريحية تبعية، حيث شبّهت الأحسابُ بمُستعلًى حقيقيّ بجامع الاستقرار في كلّ، فسرى هذا التّشبيهُ إلى تشبيه ارتباطِهم بالأحْسابِ بارتباطِ المستعلَى بالمستعلي الحقيقيين بجامع مطْلقِ استعلاء شيء لشيءٍ، ثم استُعيرت «على» الموضوعةُ لاعتلاء المستعلي المستعلىٰ الحقيقيين لارتباطهم بالأحساب، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة. والقرينة هي المجرور بـ «على».

٨ـ في قوله «نَقْذِف» استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شُبّه ردُّ الباطل بالحُجج الدّامغة بالقَذْف بشيء صُلْب بجامع «الإبعاد» في كلّ، ثم استُعير «القَذْف» لـ «الردّ» ثمّ اشتُقّ منه «نَقْذِف» بمعنى «نَرُدّ» على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة. والقرينة المجرور بـ «الباء».

ويصِحّ أن يُقال أيضًا إنّ في «الحقّ» استعارة مكنية؛ حيث شبّه الحقّ بقطعة من حديد أو نحوِه بجامع شدّة التّأثير في كلّ، ثم استُعير اللفْظُ الدالّ على المشبه به «قطعة الحديد أو نحوه» للمشبه، ثمّ حُذِف ودُلّ عليه بلازمه، وهو القذف، على سبيل الاستعارة المكنية. والقرينةُ إضافةُ القَذْف ونِسْبتُه إلى الحقّ. وهي استعارة تخييليّة.

٩ـ في قوله سبحانه: ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحية أصليّة، حيث شبّه الضّلال بـ «العَمى» بجامع عدم الاهتداء إلى الخير في كلّ، ثمّ استُعير «العمى» لـ «الضّلال» على سبيل الاستعارة التّصريحة الأصليّة.

١٠ ـ في قوله «أتتْهُ الخِلافةُ» استعارةٌ مكنيةٌ أصليّة مرشّحة؛ حيث شبّه الخِلافةَ بغادةٍ حسْناء بجامع الجَمال في كلّ، ثم استعار لفظ

المشبه به للمشبه، ثم حذَفه ودلّ عليه بلازمه وهو «الإتْيان» على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية. والقرينةُ إثباتُ الإتيان للخلافة، وهو استعارةٌ تخييليّة. وقوله «منقادةً» و «تجرّر أذيالها» ترشيح لهذه الاستعارة.

١١ـ في كلٍّ من «عَزْمِه» و «همومه» استعارة مكنية أصلية مرشّحة، حيث شبه كلاً منهما بالماشية بجامع الانقياد في كلّ، ثم استعار اللّفظ الدالّ على المشبه به للمشبه، ثم حذَفه ودلّ بشيء من لوازمه وهو «مَرْعى» على سبيل الاستعارة المكنية الأصليّة. والقرينةُ إثبات «المرعى» للعَزْم والهموم، وهو استعارة تخييليّة.

وقوله «رَوْضُ الأماني» و «مهزولاً» ترشيحٌ للاستعارة؛ إذ هما من توابع المشبه به «الماشية».

١٢ـ في قوله «لؤلؤًا» استعارةٌ تصريحيّة أصليّة مرشّحة، حيث شبّه دمعَ محبوبته باللؤلؤ بجامع البياض في كلّ، ثم استُعير اللّؤلؤ للدّمع على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة. والقرينةُ قوله «بَكَتْ». وقوله «في نَحْرِها عِقْدا» ترشيحٌ لهذه الاستعارة؛ لأنه من توابع المشبه به.

ثانيًا: حدّد في الاستعارات الآتية الجامعَ بين الطّرفين، ثمّ حوّل كلاً منها إلى تشبيه:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.
٢ ـ قال سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.
٣ ـ استخفّه رُمّانُ الصُّدور.
٤ ـ زُرْتُ أَيْكَ الحبيب.
٥ ـ جاءنا ابنُ النّيّرين.
٦ ـ اغترفْنا العِلْمَ من بَحْرٍ فيّاض.
٧ ـ رمَتْني بِسَهْم ريشُهُ الكُحْلُ.

٨ ـ رأيتُ قرآنًا يمشي على الأرض.
٩ ـ زرْتُ حاتِمًا (تريد بخيلاً).
١٠ ـ مَسَحتِ اللّؤلؤ عن مآقيها.

ـ الإجابة:

١ـ النَّجْدُ ـ لغةً ـ الطّريقُ الواضح المرتفع البيّن لكلّ أحد. والنَّجْدانِ هنا طريقا الخير والشرّ. استعار النَّجْدين لِطَريقَي الخير والشرّ في الحياة، والجامع الوضوح والانكشاف. تقول في التشبيه: وهدَيْناه طريقَ الخَيْرِ والشرّ واضِحَين كالنَّجْدين.

٢ ـ استعار الصّراطَ المستقيم ـ أي الطَريق الذي لا عوَج فيه ـ للدّين الحنيف، بجامع الوصول إلى الغاية الشريفة دون تعثّر. وتقول في التّشبيه: اهْدنا الدّين القويم الواضحَ كالصّراط المستقيم.

٣ ـ المرادُ برُمّان الصّدور هنا «النُّهود». استعار الرمّان للنهود بجامع الشّكل والصّورة. تقول في التشبيه: استخفّه نهودٌ كالرمّان.

٤ ـ الأيْكُ هو الشّجر الملتفُّ الذي تأوي إليه الأطيار، شبّه به بيتَ الحبيب، والجامعُ هو الإيواء في كلّ. والتشبيهُ فيهما أن تقول: زرْتُ بيتَ الحبيب الذي هو كالأيكِ.

٥ ـ الجامع بين الطّرفين هو «الرِّفْعةُ والإشراق». والتّشبيهُ فيهما أن يقال: جاءنا ابنُ الأبَوَيْن الكريمين الشبيهين بالنيِّرين.

٦ ـ الجامع بين الطّرفين «الغزارة والعُمْق». والتّشبيه فيهما أن يُقال: اغترفْنا العِلْمَ من عالمِ غزير العِلْم كبَحْرٍ فيّاضٍ.

٧ ـ الجامع بين الطّرفين «شدّة التّأثير والفَتْك». والتّشبيهُ فيهما أن يقال: رَمَتْني بطَرْفٍ كالسَّهْمِ.

٨ ـ الجامع بين الطّرفين «حِفْظ كلامِ الله سبحانه». وطريق التشبيه

فيهما أن يقال: رأيتُ إنسانًا حافظًا كتابَ الله كأنّه القرآن. وقد وُصِف أصحابُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام بأنّ كلاً منهم كان قرآنًا يمشي على الأرض.

٩ـ الجامع بين الطّرفين الكرَمُ على سبيل التهكّم. وطريق التّشبيه فيهما أن يقال: زُرْتُ رجلاً كريمًا كحاتم.

١٠ـ الجامع بين الطّرفين: «البياضُ والشّكل». وطريق التّشبيه فيهما أن يقال: «مسَحَتْ عن عينيها دمعًا كاللؤلؤ.

المجاز المرسل

عرفتَ قبلُ أنّ المجاز مفردٌ ومركّب، وأنّ المفرد تبعًا للعلاقة ضَرْبانِ: الاستعارة، والمجاز المُرْسَل. وقد تحدّثنا عن الاستعارةْ فيما مضى، وههنا مجالُ القول في المجاز المرسل، قَسِيم الاستعارة.

يُعرّف البلاغيون **المجازَ المرسل** بأنه:

الكلمةُ المستعملةُ في غيرِ ما وضِعَتْ له لِعلاقةِ غير المُشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوَضْعيّ.

وإليكَ صُوَرًا لهذا المجاز توضح لك السبيلَ:

١ـ قال سبحانه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. معلومٌ أنّ إيتاء الأموال في مثل هذه الحال لا يكون إلّا بعد البلوغ، ولا يُتْمَ بعد البلوغ. ومعنى هذا أنّ كلمة «اليتامى» في هذا السّياق تعني «البالغين» الّذين يجوز إعطاؤُهم أموالَهم للتصرّف بها. وبيانُ الأمر أنهم كانوا فيما مضى «يتامى»، أمّا وقتَ الخطاب فإنهم «بالغون» تجاوزوا مرحلةَ اليُتْم. وهكذا فالذّكرُ الحكيم سمّاهم بوَصفٍ كان لهم؛ أي إنّ استعمال كلمة «اليتيم» ـ وهو: مَنْ مات أبوه صغيرًا ـ في «البالغ» كما حدث هنا، استعمالٌ مجازيّ، سوّغَه علاقةٌ بين المعنى الحقيقي لـ «اليتيم» والمعنى المجازيّ؛ هي أنّ البالغ كان فيما مضى يتيمًا. والّذي دلّنا على أنّ المرادَ بـ «اليتيم» هنا «البالغُ» هو الفعل «آتوا»؛ ذلك أنه أمرٌ بِدَفْع الأموال إليهم، وذلك لا يكون إلّا وهم بالغون. ويسمّي البلاغيون مثلَ كلمة «اليتامى» هنا، الّتي استُعملت في غير ما وضعَتْ له لِعلاقة غير

المشابهة، مَجازًا مُرْسَلاً. والعلاقةُ في هذا المثال هي «اعتبار ما كانوا عليه»؛ أي إنّ الذي سوّغ استعمالَ «اليتامى» في «البالغين» هو ما كانوا عليه قبلُ من اليُتْمِ. والقرينةُ الّتي منعت إرادة المعنى الوَضْعيّ هي الفعل «آتوا».

٢ـ قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾. فإنّ شيئًا من تأمّل الآية الكريمة يُوصِلُك إلى إدراك أنّ كلمة «رزقًا» مستعملةٌ هنا في غير معناها الوضعيّ، إذ هي مستعملةٌ بمعنى «غيثًا» لأنّ ما ينزل من السّماء هو «الغيثُ» وليس الرزقَ. ومسوّغ هذا الاستعمال علاقةٌ بين الرزق والغيث، هي كون الرّزْق مسبّبًا عن الغيث. والقرينةُ التي صرفت الذهنَ عن المعنى الحقيقيّ للرّزْق ودلّت على أنّ معناه هنا «الغيث» هي الفعل «ينزّل»؛ إذ المعهودُ تنزيلُ «الغيث» لا الرّزق.

وعلى الجُملةِ فإنّ البلاغيين يقولون في مثل هذا السّياق إنّ كلمة «رزقًا» مجازٌ مرْسَل علاقته المُسبّبة، والقرينةُ هي الفعل «ينزّل».

٣ـ قال الشاعر:

ما كُلّ ما يتمنّى المرءُ يُدْرِكُهُ تجري الرّياح بِما لا تشتهي السّفُنُ

تأمّلُ عَجُز البيت يجعلك تلْحَظُ أنّ كلمة «السّفُن» مستعملةٌ في غير ما وُضِعَتْ له؛ لأنّ الاشتهاء لا يُسْنَد إلى السّفن إلّا إذا كان للسّفن معنى آخر. والأمر كذلك؛ إذ تعني السّفنُ هنا «ركّاب السفن». ومسوّغ هذا الاستعمال علاقةٌ بين الدّلالة الوضعية للسّفن ودِلالتِها السّياقية هنا؛ وهي كونُ السّفن محلاً لهؤلاء الرّكّاب. وجليّ أنّ هذه العلاقة ليست هي المشابهة، وإذًا لكان المجازُ هنا استعارة. وقرينة المجاز هنا قوله «تشتهي».

وهكذا يُقال إنّ «السّفن» مجازٌ مرْسَل علاقتُه المحَلّية، إذ أُطْلِق

اسمُ المَحَلّ «السّفن» وأُريد الحَالّ «الرّكاب»، والقرينةُ إسنادُ الاشتهاء إليها سلبًا.

علاقاتُ المجاز المرسل:

تعقّب البيانيون التجوّزاتِ اللّغويّةَ في نطاق ما يُسمّى «المجازَ المرسل»، وتبينوا أنّ علاقات هذا الفنّ البياني مرْسَلةٌ غيرُ مقيّدة بعلاقة واحدة، ولكنّهم وقفوا عند أشهرها وأكثرها ورودًا في أساليب العرب. ومن ذلك:

١ ـ **السّبَبية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ (الأوّل) للفّظ المذكور سببًا للمعنى المجازيّ الّذي يأتي عليه في السّياق. وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسم سببه، كقولِكَ «رَعَتِ المَاشِيَةُ الغيثَ» أي النبات. و«الغيثُ» مجاز مرسلٌ علاقته السّببيّة؛ إذ إن المعنى الوضْعيّ للغيث «المطر» سببٌ للمعنى المجازيّ «النّبات». وقرينةُ المجاز قولُه «رَعَت»؛ لأنّ الغيث لا يُرعى.

ومنه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. «اليَدُ» هنا مجازٌ مرسَلٌ بمعنى «القُدْرة» علاقتُه السّببيّة؛ وذلك لأن أكثر ما يظهر سلطانُ القدرة في اليد. والقرينةُ قوله سبحانه: ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، فلا معنى أن تكون اليَدُ بمعناها الحقيقيّ فوق أيدٍ أخرى.

ومن هذا القبيل قولُ الشاعر:

لـهُ أَيَـادٍ عـلـيّ سَـابِـغـةٌ   أَعـدُّ مِـنْـهـا ولا أُعَـدِّدهـا

«أيادٍ» أي أفضال. وهي مجاز مرسلٌ علاقته السّببيّة، فقد سمّى الشيءَ باسْم سببه «اليد». والقرينةُ قولُه «عليّ»، ووَصْفُها بـ «السّبوغ».

٢ ـ **المُسَبّبِية**: وهي كونُ المعنى الوَضْعيّ للفّظ المذكور مسبّبًا عن المعنى المجازيّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ الشيء باسم مُسَبِّبه كقوله

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. ومعنى «نارًا» هنا «مالاً» تتسبّب عنه النار فالعلاقة المسبَّبيّةُ، والقرينةُ قولُه «يأكلون». وكقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ إذ معنى «رزقًا» هنا غيثًا يتسبّب عنه الرّزق. وكقول الشاعر:

شَرِبْتُ الإثـمَ حتّى ضلّ عَقْلي   كـذاكَ الإثـمُ تـذْهَبُ بـالـعُـقُـولِ

فـ «الإثـمُ» هنا الخَمْرُ الّتي يتسبّب عنها الإثم. فالقرينة هي المُسَّبَّبِيّةِ، والعلاقةُ قولُه «شرِبْتُ»؛ لأنّ الإثْمَ لا يُشْرَب، بل الّذي يُشْرَبُ هو الخمر الّتي يتسبَّبُ عنها الإثم.

٣ ـ **اللّازِميّة**: وهي كونُ المعنى الوضعيِّ للّفظ المذكور لازمًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسمية الشيء باسم لازمه، كقولك: «طلعَ الضَّوْءُ»، أي الشّمسُ. فالضّوء هنا مجازٌ مرْسَل علاقتُه اللّازمية؛ لأنّه لازمٌ للشّمس، إذ يوجد عند وجودها. ومعنى هذا أنّك سمَّيْتَ الشّمسَ باسم لازمها «الضّوء». والقرينةُ قولُك «طلَع». وكقولك: «نَظَرْتُ إلى الحرارة»، أي النار. ففي «الحرارة» مجازٌ مرسلٌ علاقته اللّازميّة؛ حيث توجد الحرارةُ عند وجود النّار. والقرينةُ قولك «نظرْتُ»؛ لأنّه لا يُنظر إلى الحرارة.

٤ ـ **المَلْزومية**: وهي كون المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور ملزومًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسم ملزومه، كقولكَ: «ملأتِ الشّمْسُ الغُرْفةَ»، أي الضّوء. ففي «الشّمس» هنا مجازٌ مرْسَلٌ علاقتُه المَلْزوميّة، حيث سمّي اللّازم «الضّوء» باسم ملزومِهِ «الشّمس». والقرينةُ قوله «ملأت». وكقولك: «دخلَتْ علينا الشّمسُ من النافذة»، أي ضوءُ الشمس.

٥ ـ **الكُلّية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور كُلًّا

للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الجزء باسم كُلّه، كقوله سبحانه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، أي أناملَهم. ففي «أصابعهم» مجازٌ مرسَلٌ علاقته الكلّية؛ حيث سُمّي الجزء «الأنامل» باسم كلّه «الأصابع». والقرينةُ حاليّةٌ هي استحالةُ إدخال الإِصْبَع كلّها في الأُذُن. وكقولك: «شرِبْتُ ماءَ الفُرات»، أي شيئًا من ماء الفرات. ففي «ماء» هنا مجازٌ مرسَل علاقته الكلّية، حيث سُمّي الجزءُ «ما يشْرَبُه الإنسانُ» باسم كلّه «ماء الفرات». والقرينة هي «شَرِبْتُ».

٦ـ **الجُزئية**: وهي كونُ المعنى الوَضْعيّ للّفظ المذكور جزءًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقة سوّغت تسمية «الكلّ» باسم جُزْئه، كقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي عَبْدٍ مؤمن. ففي «رقبة» مجازٌ مرْسَل علاقتُه الجُزئية؛ حيث سُمّي الكلُّ «العبدُ المؤمن» باسم جزئه «الرّقبة». والقرينةُ قوله: «فتحرير»؛ لأنّ التحرير يتناول الإنسانَ كلّه. وكقولِك «نشَرَ الحاكمُ عيونَه في المدينةِ»، أي جواسيسه. ففي «عيونه» مجازٌ مرسل علاقته الجزئية حيث سُمّي «الكلّ» أي الجاسوس، باسْمِ جُزْئه «العَيْن». والقرينةُ قوله «نشر»؛ لاستحالة نَشْر العيون وحْدَها.

٧ـ **الحَالّية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور حالًّا في المعنى المجازيّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ المَحَلّ باسم الحَالّ فيه، كقوله سبحانه: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. أي الجنّة التي تحلّ فيها الرّحمة. فلفظ «رَحْمة» مجازٌ مرْسَل علاقتُه الحالّية؛ حيث سمّي المَحَلُّ «الجنّة» باسْم الحالّ فيه «الرّحمة». والقرينة قوله سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وكقوله سبحانه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: لباسكم. ففي «زينتكم» مجازٌ مرْسَل علاقته الحالّية؛ حيث سُمّي المحلّ «اللّباس» باسم الحالّ فيه «الزّينة». والقرينةُ قوله «خُذوا».

٨ ـ **المَحَلِّية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور محَلاً للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ الحالّ باسم محلّه، كقوله سبحانه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي أهْلَ نادِيهِ. ونادي القوم في الوَضْع اللغويّ مجتمعُهم ومنتداهم الذي يجتمعون فيه. فلفظُ «ناديه» مجازٌ مرسل علاقته المحلِّية؛ حيث سمِّي الحالُّ «أهل النّادي» باسم المَحلّ «النّادي». والقرينةُ قوله «فلْيَدْعُ»؛ لأنّ النادي بمعناه الوضْعيّ لا يُنادى. وكقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ أي ألسنتهم. فلفظ أفواههم مجازٌ مرسل علاقته المحلّية، حيث سُمّي الحالُّ «اللّسان» باسْم محلّه «الفم»، والقرينةُ «يقولون»؛ لأنّ القول لا يكون إلّا باللّسان.

٩ ـ **الآلية**: وهي كونُ المعنى الوَضْعيّ للّفظ المذكورة آلةً للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الأثرَ النّاتج باسم آلته، كقوله سبحانه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾، أي اجعَلْ لي **ذِكْرًا حسَنًا**. ففي «لِسان» مجازٌ مرْسَل علاقتُه الآلية؛ حيث سُمِّي الأثرُ الناتج «الذّكر الحسَن» باسم آلته «اللّسان»، فاللّسانُ آلةُ الذّكْرِ الحسَن. والقرينة قوله «في الآخرين»؛ إذ اللّسانُ الحقيقيّ لا يبقى فيما يأتي من الأمم. وكقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: بِلُغتك.

١٩ ـ **اعتبار ما كان**، وهي كونُ المعنى الوضعيّ للفْظ المذكور صورةً أو حالةً كان عليها المعنى المجازيّ فيما مضى، وهذه العلاقة تسوغ تسميةَ الشيء باسم ما كان عليه، كقوله سبحانه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، أي البالغين فلفظُ «اليتامى» في هذا السّياق مجازٌ مرْسَلٌ علاقته اعتبارُ ما كان؛ حيث سُميّ «البالغ» باسْم ما كان عليه «اليتيم»، والقرينةُ قولُه «آتوا» كما أسلفنا. وكقولكَ: «لَبِسْنا صُوفًا»، أي لباسًا من صُوف. فلفظ «صوفًا» مجازٌ مرْسَل علاقته اعتبارُ ما كان؛ حيث سمِّي الشيء «اللّباس» باسْم ما كان عليه «الصّوف»، والقرينةُ «لَبِسْنا»؛ لاستحالة لُبْس الصّوف.

١١ ـ **اعتبار ما يكون**، وهي كون المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور حالةً سيكون عليها المعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسْم ما سيكون عليه في المستقبل، كقوله سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾، أي عِنَبًا سيكون خَمْرًا. فلفظ «خمْرًا» هنا مجازٌ مرْسَلٌ علاقته اعتبارُ ما يكون؛ حيث سُمّي «العنب» باسم ما سيكون عليه «الخمر». وقرينةُ المجاز «أَعْصِر»؛ إذا الخَمْرُ عصير، وهو لا يُعْصَر. وكقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾، أي وليدًا سيكون رجلاً فاجرًا كفّارًا. فلفظُ «فاجرًا» مجازٌ مرْسَل علاقتُه اعتبارُ ما سيكون؛ حيث سُمّي «الوليدُ» ساعةَ الوِلادة باسْم ما يكون عليه «الرّجل الفاجر». والقرينةُ «ولا يلِدوا»؛ لأن الوليد لا يكون منذ ولادته فاجرًا كفّارًا.

١٢ ـ **المُجاورة**: وهي كونُ المعنى الوضْعيّ للّفظ المذكور مجاورًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسم مجاوِرِهِ، كقولكَ: «لمْ يبقَ فِي الرّاويةِ ماءٌ»، أي في القِرْبة. الرّاوية في الوضْعِ اللّغويّ هي الدّابة التي يُستقى عليها. ولفظُ «الرّاويةُ» هنا مجاز مرسل علاقتُه المجاورة؛ حيث سُمّيت «القِرْبة» باسْم مجاوِرِها «الدّابة»؛ لمجاورة القِربة للدّابة عند الحَمْل. والقرينةُ «في»؛ لأنّ الدّابة لا تكون وعاءً للماء. ومثلُ ذلك قولُ الشاعر:

فشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأصمِّ ثِيابَهُ ليسَ الكريمُ على القَنا بِمُحرَّمِ

بمعنى شكَكْتُ جِسْمَه. فلفظُ «ثيابه» مجازٌ مرْسَل علاقتُه المجاورة. حيث سُمّي الجسمُ باسم مجاوِرِه «الثّياب». والقرينةُ «شككتُ»؛ لأنّ الشكّ الذي معناه الطّعْنُ لا يكون للثّياب بل للأجسام.

١٣ ـ **العُموم**: وهي كَونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور عامًّا يُراد منه معنى خاصّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ الخاصّ باسم العامّ،

كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ أي يحسدون محمّدًا عليه الصّلاةُ والسّلام. فلفظُ «النّاس» مجازٌ مرسَل علاقتُه العُموم، حيث سُمّي الخاصّ «محمّد» عليه الصّلاةُ والسّلام باسم العامّ «الناس». والقرينة حالية. وكقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، أي قال لهم نُعَيْمُ بنُ مسعود الأَشْجَعيّ؛ فلفظُ «الناس» مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه العموم، حيث سمّي الخاصُّ «نعيم بن مسعود» باسم العامّ «النّاس»، والقرينة حالية.

١٤ ـ **الخصوص**: وهي كونُ المعنى الوَضْعيّ للّفظ المذكور خاصًا يُراد منه عامّ، كإطلاق اسْم الشّخص: «تميم، تغلب، ربيعة... إلخ» على القبيلة قبل أن يغْلِبَ علَيها ويشيع.

١٥ ـ **التعلّق الاشتقاقيّ**، وهي إقامةُ صِيغةٍ مقامَ أخْرى شرْطَ انتمائهما إلى مادّةٍ واحدةٍ. ومن أنواعه:

ـ إطلاقُ المصدر على اسم المفعول، كقوله سبحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، أيْ مصنوعَهُ. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾، أيْ مَعْلُومه. فكلٌّ من «صُنْع» و«عِلْم» مجازٌ مرسَل علاقته التعلّقُ الاشتقاقيّ بين المصدر واسم المفعول.

ـ إطلاقُ اسْم الفاعل على المصدر، كقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي تكذيبٌ.

ـ إطلاقُ اسْم الفاعل على اسم المفعول، كقوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي لا مَعْصومَ، والله أعلمُ بمراده.

ـ إطلاقُ اسْمِ المفعول على اسم الفاعلِ، كقوله سبحانه: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، أي ساترًا.

وما نحْسَبُ أنّنا في حاجةٍ إلى التّنبيه عليه هنا هو أنّ علاقات المجاز المرسل كثيرةٌ كثرة بالغة، ولم نُثْبِت منها فيما تقدّم سوى

المتداوَل في الاستعمال العربيّ، ولا يعِزّ على الفَطِن أن يتبيّين أنواعًا أُخَر لهذه العلاقات.

ولن يغيب عنكَ بعد الآن ـ إن شاء الله ـ أنّ المجاز المُرْسَل هو:

أن تجوزَ بالكلمة موضعَها في أصْل الوضع وتنقلَها عن دِلالتها الوضعيّة إلى دِلالةٍ أخرى مجازية لِصِلةٍ أو مُلابَسةٍ بين المعنى الذي نقلْتَها إليه والمعنى الذي نقلْتَها عنه غيرِ المشابهة، مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الوضْعيّ. وأن الإرسالَ هو الإطْلاق وعدَمُ التقييد، وسمّي ما نحن فيه «مجازًا مُرْسلًا» لإطلاقِ علاقاته وتعدّدها.

أسئلة وإجاباتها حول المجاز المرسل (١):

ـ حدِّد المجازَ المُرسَلَ، وأوضح العلاقةَ الّتي قام عليها فيما يأتي:

١ ـ إنّ العَدوَّ وإنْ تقادمَ عَهدُهُ   فالحِقْدُ باقٍ في الصّدورِ مُغيَّبُ

٢ ـ وكنتَ إذا كفٌّ أتتْكَ عديمة   تُرجِّي نَوالاً مِن سَحابِكَ بُلّتِ

٣ ـ وإنْ حلَفَتْ لا ينقضُ النّأيُ عَهْدَها   فليسَ لِمَخْضوبِ البَنانِ يمينُ

٤ ـ بلادي، وإن جارتْ عَلَيَّ، عزيزةٌ   وقَوْمي، وإنْ ضَنُّوا عَلَيَّ، كِرامُ

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

٦ ـ فَهِمْتُ الكتابَ أبَرَّ الكُتُبْ   فسَمْعًا لأمْرِ أميرِ العَرَبْ

٧ ـ قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾.

٨ ـ يَبيتُ بِمَنْجاةٍ من اللّومِ بَيْتُها   إذا ما بيوتٌ بالمَلامةِ حُلّتِ

٩ ـ قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٠ ـ غرَسْتُ الورْدَ في البُستانِ.

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله «الصّدور» مجازٌ مرسلٌ علاقته المحلّية؛ لأنّ الصّدور محَلّ القلوبِ الّتي يستوطِنُها الحِقْدُ، والقرينةُ قولُه: «والحقد باق في الصّدور».

٢ ـ في قوله «كفّ» مجازٌ مرْسَلٌ علاقتُه الجزئية؛ لأنّ الكفّ جزْءُ الشّخص. والقرينة قوله: «أتَتْك»، فإنّ الإتيان لا يتأتّى من الكفّ.

٣ ـ في قوله «البَنان» مجازٌ مرسلٌ علاقته الجزئية؛ إذ أراد

المرأةَ، والبنانُ جزؤها، والقرينةُ قولُه «يمين»؛ لاستحالةِ إضافة اليمين إلى البَنان. وكذا في قوله «يمين» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السّببيّة؛ إذ أراد: ليس لها وفاءٌ. واليمينُ سببُ الوفاء. والقرينة حاليّة.

٤ ـ في قوله «بلادي» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ أراد: أهل بلادي، والقرينةُ قولُه «وإن جارت عليّ» والجَوْرُ لا يصدر عن البلاد.

٥ ـ في قوله «بيمينه» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المَحَلّيّة»؛ إذ المرادُ: مَطْوِيّاتٌ بقوّته وقُدْرتِه. والقرينةُ إضافةُ اليمين إلى الباريء سبحانه، وهو مستحيل.

٦ ـ في قوله «الكتاب»، أي المكتوب، مجازٌ مرسلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المُراد: المعاني الّتي تضمّنها الكتاب. والقرينةُ قولُه «فَهِمْتُ»؛ فما يُفهم هو المعاني، وليس النّقوش. وقد تكون العلاقة «المجاورة»؛ إذ المكتوبُ دالّ على معناه، والدّال والمدلول متجاوران.

٧ ـ في قوله «القتلى» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «اعتبار ما سيكون»؛ إذ المُراد فيمن سيُقتَلون. والقرينة حالية.

٨ ـ في قوله: «بيتها» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المرادُ: شخص هذه المرأة. والقرينة نَفْيُ اللّوم، ولا يُتصوّر نَفْيُ اللّوم لغير الإنسان.

٩ ـ في قوله «أيديهم» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «الجزئية»؛ إذ المُراد: بما قدّموا هم. والقرينةُ حالية.

١٠ ـ في قوله «الوَرْد» مجازٌ مرسلٌ علاقته «اعتبارُ ما سيكون»؛ إذ المُرادُ: غرَسْتُ بذورَ الورد. والقرينةُ قولُه «غرستُ» فالورد لا يُغرَس.

أسئلة وإجاباتها حول المجاز المرسل(٢):

ـ حدّد المجازَ المرسلَ، وأوضح العلاقةَ التي قام عليها فيما يأتي:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

٢ ـ كذلك يعادِي العِلْمَ جَهَلةُ الناسِ.

٣ ـ قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

٤ ـ قامتِ البَلَدُ وقعَدَتْ لهذا النبأ.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

٦ ـ مَنْ يركبُ البحرَ لا يخشى الغرق.

٧ ـ كفى بالمَرْءِ عيْبًا أن تَراهُ   له وَجهٌ وليسَ لَهُ لِسانُ

٨ ـ قرأتُ شِعْرَ العربِ.

٩ ـ شربْنا الزّبيبَ.

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾.

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله «أهلكناها» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «المُسبّبية»؛ إذ المُرادُ: أردنا إهلاكَها، والقرينةُ حالية.

٢ ـ في قوله «العِلم» مجازٌ مرسَل علاقتُه «الحالّية»؛ إذ المُرادُ: أهل العلم. والقرينة قوله: «يعادي».

٣ ـ في قوله «الأنهار» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «المحلّية»؛ إذ المراد: مِياهُها. والقرينةُ قوله «تجري».

٤ ـ في قوله «البلد» مجازٌ مرسَلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المرادُ: أهل البلد. والقرينة قوله «قامَتْ وقعدت».

٥ ـ في قوله «قرأت» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المسبّبية»؛ إذ المرادُ: أردتُ القراءةَ. فالقراءة مسبَّبة عن الإرادة. والقرينةُ قولُه: «فاستعذ بالله»؛ ذلك أنّ الاستعاذةَ تكون قبل القراءة.

٦ ـ في قوله: «البَحْر» مجازٌ مرسَلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المرادُ: السّفينة، والقرينة قولُه «يركب».

٧ ـ في قوله «لِسان» مجازٌ مرسَلٌ علاقته «الآلية»؛ إذ المرادُ؛ الفصاحةُ والبيان. واللّسان آلةُ ذلك. والقرينة حاليّة.

٨ ـ في قوله «شِعْر» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «الكلّيّة»؛ إذ المرادُ: شيئًا من شِعْر العرب. والقرين قوله: «قرأتُ»، إذ يستحيل أن تقرأ شعرَ العربِ كلّه.

٩ ـ في قوله «الزّبيب» مجازٌ مرسلٌ علاقته «اعتبار ما كان» إذ المُرادُ: عصيرُه. والقرينةُ قولُه «شربتُ»؛ إذ الزبيبُ بدِلالته الحقيقية لا يُشرب.

١٠ ـ في قوله سبحانه «عِلْمِه» مجاز مرسل علاقته التعلّق الاشتقاقيّ؛ إذ المراد: مَعْلومُهُ.

المجازُ المُرَكّب

أسلَفْنا أنّ المجازَ ضَرْبانِ: مُفردٌ ومركّب. وقد بسطنا القول في ضربي المجاز المفرد؛ الاستعارة والمجاز المرسل، وههنا مَنْدوحةٌ للحديث عن المجاز المرْكّب.

تعريف المجاز المركّب:

يحدّد علماءُ البيان هذا الضّربَ من المجاز بأنّه:

التركيبُ المستعملُ في غير معناه الوَضْعيّ، لِعلاقةٍ بين المعنى الوضعيّ والمعنى المجازيّ، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعيّ.

وهو تبعًا للعلاقة نوعان:

١ ـ مجازٌ مركّبٌ علاقتُه المشابهةُ، ويُسمّى «التّمثيل أو الاستعارة التّمثيلية».

٢ ـ مجازٌ مركّب علاقتُه غيرُ المشابهة، ويسمّى «المجاز المركّب المرسل».

وإليكَ توضيحًا للضّربين تكون بعْدَه على بيّنةٍ من الأمر، إن شاء الله.

أولًا ـ الاستعارةُ التّمثيليّة:

وهي ـ كما تقدّم قبل قليل ـ تركيبٌ يستعمِلُه المتكلّمُ في غير

معناه الوَضْعيّ لِعلاقة المُشابهة، مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الوضعيّ.

ومن صُوَر هذه الاستعارة:

١ ـ قال سبحانه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾. لهذا الكلام الربّانيّ معنَيانِ: وَضْعيّ غيرُ مرادٍ وهو أنّهم أَلْقوا الميثاقَ وراء ظهورهم، ومجازيّ مراد، وهو أنّهم أهملوا الميثاقَ ولم يُقيموا له وزنًا. ويُفضي تأمّلُ التركيب إلى أنه مستعملٌ في دِلالته المجازيّة لا الوضعيّة، تدلّ على ذلك قرينةُ أنهم لم يُمْسِكوا بالمِيثاق ويُلقوا به وراء ظهورهم حقيقةً. ومؤدّى هذا كلّه أنّ التركيبَ استعارةٌ تُجرى على هذا النّحو: شبّهت هيئةُ مَنْ أُخِذ عليهم الميثاقُ فأهملوه بهيئةِ مَنْ كان معه شيء تافه تمامًا فطرَحه وراء ظهره. والجامعُ هيئةُ شيءٍ يُهمَل احتقارًا لِشأنه، ثم استُعير التّركيبُ الخاصّ بالمشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة.

٢ ـ يُذْكَرُ أنّ الوليدَ بنَ يزيدَ ـ الخليفة الأمويّ ـ بُويع بالخلافة وبلغه أنّ مروانَ بنَ مِحمّد متردّدٌ في شأن مُبايعته، فأرسل إليه الوليدُ يقول: «. . . أمّا بعدُ فإني أراكَ تقدّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمِدْ على أيّهما شئتَ والسّلام». والشّاهدُ قولُه: «أراك تقدّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى». فالمعنى الوضعيُّ لهذا التركيب هو: رؤيةُ مروانَ يقدّم رِجْلَه تارةً ويؤخّرها تارة أخرى. وهذا المعنى غيرُ مراد؛ لأنّ الوليد لم يرَ مروانَ يقدّم رِجلاً تارةً ويؤخّرها أخرى حقيقةً، بل كلُّ ما في الأمر أنه مستيقِنٌ من تردّده وحَيْرته في بَيْعته. وعلى هذا فالتركيبُ مستعمل في غير معناه الوضعيّ، وهو من ثَمّ استعارةٌ تُجرى على هذا النّحو: شُبِّهتْ هيئةُ مروانَ في تردّده بين أن يبايع وبين أنْ يمتنع عن المُبايعة بهيئةِ رجلٍ أراد السّفر إلى ناحيةٍ فتارةً يعْزِم على الذّهاب فيقدّم

رِجْلًا، وتارةً يعْدِل عن الأمر فيؤخّرها. والجامعُ هيئةُ الإقدامِ تارةً والإحجامِ أخرى. ثم استُعير التّركيبُ الخاصّ بالمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة.

٣ ـ قال الشاعر:

إذا جاء مُوسى وألْقى العَصا فَقَدْ بَطَل السِّحْرُ والسّاحِرُ

هذا مثَلٌ تقولُه العربُ لِمَن يضؤُل شأنُه عند وجود مَنْ هو أجَلّ شأنًا منه. وهو تركيبٌ استُعمل في غير معناه الوضعيّ لِعلاقة المشابهة. أي إنّ فيه استعارةً تمثdليّة تُجرى هكذا: شُبّهت هيئةُ مَنْ يضؤل شأنه عند وجود الأجلّ شأنًا بهيئةِ قومِ فرعونَ الّذين أخفقوا وبطَلَ سِحْرُهم عندما ألقى موسى عصاه. والجامعُ هيئةُ ضآلةِ الشيء الحقير عند وجود الشيء الخطير. ثم استُعير التّركيبُ الخاصّ بالمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة. والقرينةُ حاليّة؛ لأنّ حالةَ الشّخصِ المَقولِ فيه المثَلُ تختلف عن المعنى الوضعيّ لهذا البيت (التركيب).

٤ ـ قال المتنبي:

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا بهِ المَاءَ الزّلالا

مثَلٌ يُضرب لِمَن يسيء تقديرَ الشيء القيّم. وإجراءُ الاستعارة فيه على هذا النّحو: شبّه المتنبّي هيئةَ من أساؤوا تقديرَ شِعْره الرّائع بهيئة المريض الّذي يجِدُ الماءَ مُرّا تعافُه النفسُ، والجامعُ هيئةُ افتقادِ أداةِ الحُكْم الصّائب على جمال الأشياء، ثم استُعير التّركيب الخاصّ بالمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية. والقرينةُ حاليّة؛ لأنّ حالة مَنْ قال فيهم المتنبّي هذا البيتَ تختلف عن المعنى الوضعيّ له.

٥ ـ قال الشاعر:

ومَنْ مَلَكَ البِلادَ بِغَيْر حَرْبٍ يهونُ علَيْهِ تَسليمُ البِلادِ

مثَلٌ يُضرب لِمَن يفرِّط بأمرٍ مهمّ لم يجْهَد في الحصول عليه، كحال ابنٍ يفرِّط فيما ورِثَه عن والده. وإجراءُ الاستعارة فيه هكذا: شبّه الشّاعرُ هيئةَ مَنْ يفرّط بأمرٍ مهمّ لم يجهد في الحصول عليه بهيئة رجلٍ مَلك البلادَ دون عَناءٍ وقتال فهانَ عليه التّنازلُ عنها للآخرين. والجامعُ هيئةُ التّفريط فيما لا يُتْعَب في تحصيله في كلّ. ثم استُعير التّركيب الخاصّ بالمشبه به للمشبه، على سبيل الاستعارة التّمثيليّة. والقرينةُ حاليّة.

بقي أن تعلم أنّ **الاستعارةَ التمثيليّة حين يَشِيعُ استعمالُها وتتردّد على ألسنة المتكلّمين تُسمّى «مثَلًا»؛ ويترتّب على هذا أنّ الأمثالَ السائرةَ جميعًا من قبيل الاستعارة التمثيلية التي لاكَتْها الألسنُ.**

ثانيًا ـ المجازُ المركّب المرْسَلُ:

ويحدّده البلاغيون بأنّه: تركيبٌ يستعمِلُه المتكلّمُ في غير معناه الوَضعيّ لِعلاقةِ غيرِ المُشابهة، مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الوَضْعيّ.

وهو على أنواع، منها:

١ ـ التّراكيب الخبريّة المستعمَلة في المعاني الإنشائيّة لأغراضٍ منها:

أ ـ التحسّر والتحزّن كما في قوله سبحانه حِكايةً عن أمّ مَرْيَمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾. قوله سبحانه: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ جملةٌ خبرية استُعمِلت في الإنشاء بمعنى التحسّر والتّحزّن على فَوات مأمولٍ لها هو المولودُ الذّكَر. والعلاقةُ بين المعنى الوَضْعيّ (الإفادةُ بأنّ المولودَ الّذي وضعتْه أنثى) والمعنى المجازيّ (إظهار التحسّر والتّحزن) هي اللّزوم؛ إذ يلزَمُ من إخبارها بأنّها وضعتْ أنثى لا ذَكرًا

مثلما كانت تأمَلُ إظهارُ تحسُّرِها وأَساها. والقرينةُ هي مقام الخِطاب؛ لأنّ القائلة تعْلَمُ يقينًا أن الله سبحانه عليمٌ بِما وضَعَتْ. وعلى الجملة فنحن إزاءَ تركيبٍ استُعمِل في غير معناه الوضعي لعلاقة غير المشابهة.

ومنه قول الشاعر:

ذهبَ الشّابُ فمَا لَهُ مِنْ عَوْدةٍ وأتى المَشِيبُ فأينَ عنهُ المَهْرَبُ

ب ـ إظهار الضّعف كما في قوله سبحانه حِكايةً عن زَكَرِيّا عليه السّلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾. قوله سبحانه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ جملتانِ خبريّتان استُعمِلتا في معنًى إنشائي هو إظهارُ الضّعف. والعلاقةُ هي اللّزوم؛ إذ يلزم من إخبار زكريا عليه السّلامُ بِوَهْنِ عَظْمه واشتعالِ رأسه بالشّيب إظهارُ ضَعْفِه. والقرينةُ خِطابُ من يعلم بالأمر علمَ اليقين. والتركيبان من قبيل المجاز المركّب المُرْسَل.

ومنه قول الشاعر:

ربِّ، إنّي لا أستطِيعُ اضطِبارا فاعْفُ عنّي يا مَنْ يُقيلُ العِثَارا

ج ـ إظهار البهجة والسّرور كقولِ الشّاعر يذكر الدّيارَ الحِجازيّة:

هِيَ نَجْدٌ ورَامةٌ والكَثِيبُ خَبْخِبْ العِيسَ، فالمَزارُ قريبُ
وزَرُودٌ بَدَتْ وهاتِيكَ سَلْعٌ وقِبابٌ ومَغْهدٌ وشَعوبُ

فالتّراكيب الخبريّة هنا مستعملةٌ في معنى إنشائيّ هو التّعبير عن الفرح بقرب الوصول إلى دار الحبيب.

د ـ الدّعاء كقول الشاعر:

سَقى مُزْنُ السّحابِ إذا استهلّتْ مَصارعَ فِتْيةٍ بالجُوزَجانِ

وقول الشاعر[1] في تهنئة صديقٍ تزوّج:

مـحـمّـدُ، أنـتَ صَـديـقٌ ودودْ   فـدُمْـتَ بِـخَـيْـرٍ طَـوالَ الـعُـهـودْ
رعـى الـلّـهُ ربّـيَ هـذا الـزّواجْ   ونِـلْـتَ الأمـانـي بِـدارِ الـسُّـعـودْ

فجُملتا «رعَى الله» و«نِلْتَ الأماني» خبريّتان استُعمِلتا في الإنشاء بمعنى الدّعاء والتضرّع إلى المولى ـ جلّ وعلا ـ أن يرعى هذا الزّواجَ، وأن ينال الصّديقُ الأمانيَ بِدار السَّعْد. والعلاقةُ اللّزوم؛ إذ يلزَمُ من الإخبار في هذا المقام معنى الدُّعاء. والقرينةُ حاليّة.

٢ ـ التّراكيبُ الإنشائيّة الخارجة عن معانيها الأصليّة، كقول المصطفى عليه الصُّلاة والسّلام: «مَنْ كذَب عليَّ متعمِّدًا فليتبوّأْ مقْعَدَه من النّار». على معنى «يتبوّأُ». والعلاقةُ السَّبَبِيّة؛ إذ إنّ إنشاء المتكلّم هذه الجملة سببٌ لإخباره بما تتضمّنه. جاء في شرْح البُخاريّ للعَيْنيّ: «فَلْيتبوّأْ أمرٌ من التبوُّؤ، وهو اتّخاذُ المباءة والمنزِل، وظاهرُه أمرٌ، ومعناه خبر».

---

(١) عيسى العاكوب.

أسئلة وإجاباتها حول المجاز المركَّب بقسمَيه

- حدِّد أنواعَ المجاز المركَّب واشرحْها فيما يأتي:

١ - تُغنّي في الطّاحون (تقول هذا لِمَنْ ينصَح إنسانًا لا يسْمَع نُصْحَه).

٢ - تَصرَّمتْ مِنّا أُوَيْقاتُ الصِّبا ولَمْ نجِدْ مِنَ المَشيبِ مَهْرَبا

٣ - إنّ الأفاعي وإنْ لانَتْ مَلامِسُها عندَ التقلّب في أنيابِها العَطَبُ

٤ - أحشَفًا وسوءَ كِيلَةٍ (تقوله لِمَنْ يَظْلِمُ من ناحيتين).

٥ - وَجِيدٌ مِنَ الخِلّانِ في كلِّ بَلْدَةٍ إذا عظُمَ المَطْلوبُ قلَّ المُساعِدُ

٦ - تقول لصديقٍ يحتال للحصول على شيءٍ خفيٍّ ومتوارٍ تحتَ شيء ظاهر: «لِأَمْرٍ ما جدَعَ قصيرٌ أنْفَه».

٧ - وفي تعَبٍ مَنْ يحسدُ الشّمسَ ضَوْءَها ويَجْهَدُ أن يأتي لَها بِضَريبِ

٨ - ولَيْسَ يصِحّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النّهارُ إلى دليلِ

٩ - الشّمسُ لا تُخفَى بِالغِرْبال (تُقال لِمَنْ يتستّر على أمرٍ واضح).

١٠ - وبينَنا، لو رَعَيْتُمْ ذاكَ، مَعْرفةٌ إنّ المَعارفَ في أهْلِ النُّهى ذِمَمُ

- **الإجابات:**

١ - في هذا المركَّب استعارةٌ تمثيليّة، فقد شُبّهت هيئةُ من يُتعِب نفسَه في نُصْح إنسانٍ لا يستجيب له بهيئةِ شخصٍ يغنّي في الطّاحون بجامع الإتيان بالشيء في غير محلّه أو عدمِ الفائدة في كلّ، واستُعير المركَّب الدّال على هيئةِ المشبّه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيليّة، والقرينةُ حاليّة.

٢ - في هذا البيت مجازٌ مرْسَلٌ مركّب من استعمال الخبَر في

الإنشاء، وعلاقتُه «السّببية»؛ إذ إن هذا الكلامَ سببٌ للتحسّر؛ أو المَلْزومية؛ لأنّ الإخبار بهذا يستلزِم التحسّر والقرينةُ حالية.

٣ ـ في هذا البيت استعارة تمثيلية؛ فقد شبّه هيئةَ مَنْ يخدع النّاسَ بِمَعْسول حديثه ثم يعود فيضرّهم، بهيئةِ الأفاعي اللّينة المَلْمَس المُذْهِبةَ للأنفس، بجامع هيئة شيء ليّن الملمس شديد الأذى، ثم استُعير المركَّبُ الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبّه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة، والقرينة حاليّة.

٤ ـ في هذا المركَّب استعارة تمثيلية؛ فقد شُبِّهت هيئةُ مَنْ يَظْلِم من ناحيتين بهيئةِ رجلٍ باع آخرَ تمْرًا رديئًا وناقِصَ الكيل، بجامع الغُبْن من وجهَيْن في كلّ، واستُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيلية، والقرينة حاليّة.

٥ ـ في هذا البيت مجازٌ مرسَلٌ مركَّب من استعمال الخبر في الإنشاء، علاقتُه السّبَبية أو المَلْزوميّة؛ لأن الإخبار بمِثْل هذا يسبِّب التحسّرَ لِفَقْد الخِلّان، أو يستلزم التحسّر لفقدهم. والقرينة حالية.

٦ ـ في هذا المركّب استعارةٌ تمثيليّة، فقد شبِّهت هيئةُ الصّديق الّذي يحتال للحصول على شيء مستتِرٍ يُخفيه عن النّاس بهيئة ذلك الرّجل المعروف في التاريخ العربي «قَصِير» حين جَدَع أنْفَه ليأخذَ بثأر جَذِيمةَ بنِ الأَبْرش من الزَّبّاء بجامع الاحتيال في كلّ، واستُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبّه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيليّة. والقرينة حالية.

٧ ـ في هذا البيت استعارةٌ تمثيلية؛ فقد شُبّهت هيئةُ مَنْ علا قومَه وفاقَهم بهيئةِ الشّمس لا نظيرَ لها بين الكواكب، بجامع هيئة الشيء يعلو فيفوق كلَّ ما سِواه على نَحْوٍ لا يُطْمَع في مُماثلته،

واستُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبّه على طريق الاستعارة التمثيلية. والقرينة حالية.

٨ ـ في هذا البيت استعارةٌ تمثيليّة؛ فقد شُبِّهت هيئةُ من يُنْكِر فضلَ ذوي الفَضْل رغْمَ وضوحه بهيئة من يبتغي دليلاً على وجود النّهار، بجامع هيئة ذي الجَهْل المُطْبِق، واستُعير المركَّب الدّالُّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبّه على طريق الاستعارة التّمثيليّة. والقرينة حاليّة.

٩ ـ في هذا المركَّب استعارةٌ تمثيليّة، فقد شُبِّهت هيئةُ من يُخفي أمرًا واضحًا جليًا ظانًا عدمَ معرفةِ الناس إيَّاه بهيئة مَنْ يحاول إخفاءَ ضياء الشّمس بالغِزْبال بجامع إخفاء ما لا يخفى، ثم استُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيليّة والقرينة حالية.

١٠ ـ في هذا المركّب مجازٌ مرسَلٌ مركّب من استعمالِ الخبر في معنى التّوبيخ والتقريع، والعلاقةُ فيه السببيّة أو الملزوميّة؛ إذ إنْ مِثْلَ هذا القول يسبّب التّوبيخَ، أو يستلزمه. والقرينةُ حاليّة؛ ذلك أنّ الشاعر في مقام التّوبيخ.

المجازُ العقليّ

ثمّة ضربٌ آخر من المَجاز يُدعى المجازَ العقليّ أو الحُكْميّ، أو المجاز في الإثبات، أو الإسناد المجازيّ. وتُفيد هذه التسمياتُ أنّ هذا الضّرْب يجري في الحُكْم أو الإثبات أو الإسناد. والحُكْم والإثباتُ والإسنادُ تدلّ على شيء واحِدٍ هو نِسْبةُ شيء إلى شيء كقولك: «اجتهدَ محمّدٌ»، فإنّك تنسبُ فعْلَ الاجتهاد إلى محمّد. وقولك: «العِلْمُ مفيدٌ»، فإنّك تنسبُ الفائدةَ إلى العِلْم. ولديك في هذين المِثالين مُثْبَتٌ له هو «محمّد» و«العِلْم»، ومُثْبَتٌ هو «الاجتهادُ» و«الإفادةُ». وإثباتٌ أو حُكْمٌ أو إسْنادٌ هو نِسْبةُ المثبت للمثبت له.

وإثباتُ الشّيء للشّيء يكون حقيقيًا كأن تقول: «ربِحَ محمّدٌ في تجارته»؛ فإنّ نسبة الرّبح إلى محمّد نسبةٌ حقيقيّةٌ؛ لأنّ محمدًا يستحقّ أن يُثْبَت له الرّبح. ويكون الإثباتُ مجازيًا كقولكَ: «رَبِحَتْ تجارةُ محمّدٍ»؛ فإنّ نسبة الرّبح إلى التّجارة نسبةٌ غيرُ حقيقية والعقلُ لا يقول بها؛ أيّ إنها نِسْبةٌ مجازيّة. وهي نسبةٌ مجازيّة؛ لأنّه لم يُثْبَت بها الشيءُ لِصاحبه الحقيقيّ، بل أُثبِتَ لشيءٍ آخر. فحقُّ إثباتِ الرّبح أن يكون لِمُحمّدٍ لا للتجارة، وإذا حصل إثباتُ الشّيء لغير ما هو له على الحقيقة سمّي ذلك: إِثباتًا مجازيًا؛ لأنه تُجوِّز فيه، أو مجازًا حُكْميًا لتعلّقِه بالحُكْم، أو إسنادًا مجازيًا، لأنّ الإسناد تُجوِّز به. وسُمّي على الأشْهَر: «مجازًا عَقْليًا». أما كونُه «مجازًا» فلأنه أُسْنِد فيه الشّيءُ إلى غيرِ ما هو له، أي تُجوِّز فيه مِمّا هو له إلى غير ما هوَ لَهُ. وأمّا كونُه

«عقليًا» فلأنّ الإثباتَ قد حصَل فيه من جِهة العقل لا من جهة اللّغة؛ فإن الحُكْمَ بأنّ الرّبح فِعْلٌ لِمحمّد لا للتّجارة، وأنّ إثباتَه للتّجارة فيه تجوزٌ، مَأْخَذُه العَقْلُ، فهو القاضي فيه الحاكمُ عليه بالصّحة والكذب.

بقي أن تعْلَمَ أنّ الّذي سوّغ إسنادَ الرّبح إلى التّجارة لا إلى محمّد هو عَلاقةٌ أو مُلابَسةٌ بين التّجارة وبين محمّد، أي بين الفاعل المجازيّ والفاعل الحقيقي.

وإليكَ هَذيْن المثالَيْن المُوضِحين لتكون على واضحِ من أمرك:

ـ قال جميلُ بُثَيْنةَ:

وشـيَّـبَ أيّـامُ الـفِـراقِ مَـفـارقـي   وأَنْشَزْنَ نفسي فوقَ حيثُ تكونُ

وقالَ الصَّلَتانُ العَبْدِيّ:

أشـابَ الـصَّـغـيـرَ وأَفْـنـى الـكـبـيـ   ـرَ كَـرُّ الـغَـداةِ ومـرُّ الـعَـشِـيْ

اسمَعْ ما يقول عبدُ القاهر معلّقًا على هذين البيتين:

«المجازُ واقعٌ في إثباتِ الشّيبِ فعلاً للأيّام ولِكَرّ اللّيالي، وهو الذي أُزيلَ عن موضعه الّذي ينبغي أن يكون فيه؛ لأنّ مِنْ حقّ هذا الإثبات ـ أعني إثباتَ الشّيب فِعْلاً ـ أن يكون فيه؛ لأنّ مِنْ حقّ هذا الإثبات ـ أعني إثباتَ الشّيب فِعْلاً ـ أن لا يكون إلّا مع أسْماءِ الله تعالى، فليس يصِحّ وجودُ الشّيب فِعْلاً لغير القديم سبحانه، وقد وجّه في البيتين ـ كما ترى ـ إلى الأيّام وكرّ اللّيالي، وذلك ما لا يُثْبَت له فِعْلٌ بوجهٍ لا الشّيب، ولا غير الشّيب. وهكذا إذا قلْتَ: «سرّني الخبَرُ» و«سرّني لقاؤُكَ» فالمجازُ في الإثبات دون المثبت».

ومهما يكنْ، فعَلَيْكَ أن تكون على دِراية من أنّ هذا الضّرب «المجاز العقليّ» موقوفٌ على الإثباتِ أو الإسناد؛ أي إنه لا يكون إلّا في الجُملة المفيدة لا الكلمة المفردة، وأنّ مسوّغَه مُلابَسةٌ أو علاقة بين المُثْبَتِ له الحقيقيّ والمثبت له المجازيّ. كما قدّمنا. والإثباتُ والإسنادُ

شيءٌ واحِدٌ كما عرَفْتَ، ومن هنا قالوا في تعريف المجاز العقليّ:

هو إِسْنادُ الفِعْلِ أو ما في مَعْناه إلى غيرِ ما هو لَهُ؛ لِعلاقةٍ مع قرينةٍ مانعة من إرادة الإسناد الحقيقيّ.

ومِنْ حقّك المَعْلومِ علينا أن نزيدَك عِلْمًا بأمور:

١ ـ أنّ «ما في معنى الفعل» في التعريف يعني: «اسْمَ الفاعل، واسْمَ المفعول، والمَصْدر، والصّفة المشبّهة».

٢ ـ أن «غير ما هو له» يُراد به إسنادُ الفِعْل أو ما في معناه إلى شيءٍ ليس مِنْ حقّه أن يُسْنَد إليه، لأنه ليس وصْفًا له.

٣ ـ أنّ العلاقةَ الّتي تُجيز الإسنادَ المجازيّ قد تكون: «الزّمانية، أو المكانيّة، أو السّببيّة، أو المصدريّة، أو المفعوليّة، أو الفاعليّة. وهي أشهر علاقات هذا الضّرب.

وإليكَ تفصيلَ القولِ في أشْهرِ صُوَر الإسناد المجازيّ الّذي تجيزه العلاقاتُ في المجاز العقليّ:

١ ـ الإسنادُ إلى الزّمان، كقولِكَ: «نهارُ فلانٍ صَائمٌ وليلُهُ قائمٌ». أُسْنِد الصّومُ الّذي هو فِعْلٌ للإنسان إلى النّهار، والنّهارُ لَمَ يَصُمْ بل وقع فيه الصّومُ؛ وأُسْنِد القيامُ الذي هو فِعْلٌ للإنسان إلى اللّيل، واللّيلُ لم يقُمْ بل وقع فيه القيام. وإسنادُ الصّيامِ للنّهار والقِيامِ للّيل مجازٌ عقليّ علاقته الزمانيّة.

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

هـي الأمـورُ كـمـا شـاهـدتـهـا دُوَلٌ   مَـنْ سـرَّه زَمَـنٌ سـاءتْـه أزْمَـانُ

أُسْنِد السُّرورُ والإساءةُ إلى الزّمان، والزّمانُ لا يَسُرّ ولا يُسِيء، بل يقع فيه السّرورُ والإساءةُ ومِثْلُ هذا الإسنادِ مجازٌ عقليّ علاقتُه الزّمانيّة.

٢ ـ الإسْناد إلى المكان، كقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾. أُسْنِد الجَرْيُ الّذي هو فِعْلٌ للماء إلى الأنهار، والأنهارُ لا تجري بل هي أمكنةُ جرَيَانِ الماء. ومِثْلُ هذا الإسناد عقليّ علاقتُه المكانيّة.

ونظيرُ هذا قولُ الشّاعر:

مَلَكْنا فكانَ العَفْوُ مِنّا سَجِيّةً فلَمّا ملَكْتُمْ سَالَ بالدّمِ أَبْطَحُ

الأَبْطَحُ في اللّغة مَسِيلُ الماء الواسِعُ، وههنا أسند الشّاعرُ السَّيَلانَ الّذي هو فِعْلٌ للدّم إلى الأبطح، والأبطح لا يسيل بل يسيلُ الدّمُ فيه. وقد أراد الشّاعرُ المُبالغة في تصوير كثْرةِ الدّم فجعل الأبطحَ هو الّذي يسيل كأنّه تحوّل دَمًا صِرْفًا. وهو بهذا تَجاوَز في الإسناد، فأسندَ الفِعْلَ إلى المكان الذي يقَعُ فيه، وهذا مجازٌ عقليٌ علاقتُه المكانيّة.

٣ ـ الإسنادُ إلى السّبب، كقوله سبحانه: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. أُسْنِد البِناءُ إلى هَامانَ وزيرِ فِرْعَوْنَ، وهامانُ لا يبني بل يأمُرُ العمّالَ بالبناء فهو سببٌ للبناء. وإسنادُ الفعل إلى السبب مجازٌ عقليّ علاقتُه السببيّة.

ومِنْ هذا قولُ عبد الملِك بن مَرْوانَ: «شيّبني صُعودُ المَنَابِر». أسْنَدَ الإشابةَ إلى صُعودِ المنابر، وهذا إسنادٌ للفعل إلى غير فاعله، فصُعود المنابر لا يُشِيبُ، بل هو سببٌ للتفكير والقلَق والعَنَت ومن ثَمّ الشيب. والقائلُ هنا أسندَ الفِعْلَ إلى سببه، ومِثْلُ هذا مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببية.

٤ ـ الإسنادُ إلى المصدر، كقول أبي فِراسٍ الحَمْدانيّ:

سيَذْكُرُني قومي إذا جَدَّ جِدُّهمْ وفي اللّيلةِ الظّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

أسندَ الفعلَ جدّ الذي هو فِعْلٌ لِلجادّ (الشخص) إلى المصدر

«الجِدّ». والجِدّ لا يَجِدّ، بل الّذي يجِدّ هو الجادّ، إذ أصْلُ الكلام: جَدّ الجادُّ جِدًا. وصَنيعهُ هذا مجازٌ عقليّ علاقتُه المصدريّة.

ونظير هذا قول الشاعر:

قدْ عزَّ عِزُّ الأُلى لا يبْخَلونَ على أوْطانِهِمْ بالدَّمِ الغَالي إذا طُلِبا

أسندَ الفِعْلَ عزّ، الّذي هو فِعْلٌ للإنسان، إلى العِزّ الّذي هو مصدر، فالعِزّ لا يعِزّ بل يعزّ الإنسانُ، وإسنادُ الفعلِ إلى مصدره مجازٌ عقليّ علاقتُه المصدريّة.

٥ ـ إسنادُ ما بُنِي للفاعل إلى المفعول، كقوله سبحانه: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مَرْضِيّة. أُسْنِد اسْمُ الفاعلِ «رَاضِيَةٍ» إلى ضمير المفعول «عيشة»، أي إنه أُسْنِد اسْمُ الفاعلِ إلى المفعول، وهذا مجازٌ عقليّ علاقتُه المفعوليّة. ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي: مَدْفوق. أُسْنِد اسمُ الفاعل «دافق» إلى الضّمير العائد على المفعول «ماء» وهذا مجازٌ عقليّ علاقته المفعولية.

٦ ـ إسنادُ ما بُنِي للمفعول إلى الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي آتٍ لا مَأْتِيّ، وإسنادُ ما بُني للمفعول إلى الفاعل، أو استعمالُ اسْمِ المفعول في موضع اسم الفاعل، مجاز عقليّ، علاقته الفاعلية.

ومثلُه قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: سَاتِرًا. أُسْنِد اسمُ المفعول «مستورًا» إلى ضمير الفاعل «الحِجاب»، والحِجاب ساترٌ لا مستور، وإسنادُ ما بُنِي للمفعول إلى الفاعل، أو استعمالُ اسْمِ المفعول في موضع اسمِ الفاعل، مجازٌ عقليّ، علاقتُه الفاعلية.

وعليكَ بعد هذا أن تعْرِف ما نحن ذاكروه لكَ:

١ ـ كثرة مجيء المجاز العقليّ في القرآن الكريم كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. أسند الزّيادة الّتي هي فِعْلُ الله

سبحانه إلى الآيات الّتي هي السّبب. ومِثْلُ هذا التّركيب مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببية. وقوله سبحانه عن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾. أسند التذبيح الّذي هو فِعْلُ الجيش إلى فِرْعَوْنَ الّذي هو السّبب؛ لأنه الآمِرُ بذلك. ومِثْلُ هذا مجازٌ عقليّ علاقتُه السببية. وقوله سبحانه: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾. أسند فِعْلَ الإشابة إلى الزمان على سبيل المجاز العقليّ ذي العلاقة الزّمانيّة.

٢ ـ مجيء المجاز العقليّ في الإنشاء على غرار مجيئه في الخبَر، ومنه قولُه سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ففي إسنادِ بناء الصَّرْح إلى هَامانَ الّذي هو السّبب مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببية. ومعلومٌ لديك أنّ الأمْرَ أحَدُ أساليب الإنشاء. ونظيرُ ذلك قوله سبحانه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾؟ فقد جاء المجاز العقليّ في الاستفهام.

٣ ـ يقع المجازُ العقليّ في «النّسبة الإضافية» وقوعَه في الإسناد، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ على معنى قِراءة الفَجْر. ونِسْبةُ القراءة، الّتي هي فِعْل القارىء، إلى الفَجْر الّذي هو زمانُها، مجازٌ عقليّ، علاقتُه الزّمانيّة. وقلْ مِثْلَ هذا في: «مَكْرِ اللّيلِ» و«جَرْيِ الأنهارِ» و«غُرابِ البَيْنِ».

٤ ـ يحدّد نوعُ العلاقة في بعض صُوَر المجاز على النحو الآتي:

أ ـ تكون العلاقةُ «مفعولية» عند إسناد الفِعْل المبنيّ للفاعل، أو اسم الفاعل، إلى المفعول. وكذا عند استعمال اسم الفاعل في موضع اسم المفعول.

ب ـ تكون العلاقة «فاعِليّة» عند إسناد الفعل المبنيّ للمجهول، أو اسم المفعول، إلى الفاعل. وكذا عند استعمال اسم المفعول في موضع اسم الفاعل.

٥ ـ قرينة المجاز العقليّ على ضَرْبين:

١ ـ لفظية، كأن تقولَ: «شيّبتْني هُودٌ وأخواتُها، شيّبَني ما يتوعّدُ المشركين فيها». فقد ذكرْتَ القرينةَ وهي قولك: «ما يتوعّد المشركين» فقد بُيّن الفاعلُ الحقيقي للإشابة.

٢ ـ معنوية أساسُها استحالةُ قيام المُسند بالمسند إليه المذكور معه، إمّا من ناحية العَقْل كقولكَ: «محبّتُك جاءتْ بي إليكَ»؛ فإنّ إسناد المجيء إلى المحبّة مستحيلٌ عقلاً. وإما من ناحية العادة كقولِكَ: «هزَمَ الأميرُ الجُنْدَ»، فالعادةُ تَحْكُم باستحالةِ هَزْم الأميرِ وحْدَه الجندَ.

جماليّات المجاز العقليّ:

المجاز العقليّ ضربٌ من التصوير البيانيّ شائعٌ في أساليب البيان العالي، التي تُستخدم فيها مفرداتُ اللّغة استخدامًا تتجاوز فيه حدودَها المعجمية الصّارمة، مِمّا يوسّع آفاقها، ويجعلها قادرةً على توصيل المعاني الدّقيقة والوفاء بمقاصد المتكلّمين، في ضروبٍ من الكلام قادرةٍ على تنشيط نفس المتلقّي، وإثارةِ حِسّه ومخيّلته، وإعمال عقله في ملاحظة مظاهر التجاوز في الإسناد. واسْمَعْ ـ رَعاكَ اللّهُ ـ ما يقول الشّيخُ عبدُ القاهر عن هذا الضّرْب: «هذا الضّرْبُ من المجاز، على حِدَتِه، كنزٌ من كُنوز البلاغة، ومادّةُ الشّاعرِ المُفْلِق والكاتبِ البليغِ الإبداع والإحسان والاتّساع في طرق البيان، ولا يعرّنّك من أمره أنّك ترى الرجلَ يقول: «أتى بي الشّوقُ إلى لقائك، وسار بي الحنينُ إلى رؤيتِك، وأَقْدَمني بلدَك حقٌّ لي على إنسانٍ»، وأشباه ذلك مما تجِدُه لشهرته يجري مجرى الحقيقة، فليس هو كذلك، بل يدِقّ ويلطف حتّى يأتيك بالبِدْعة والنادرة».

أسئلة وإجاباتها حول المجاز العقليّ:

ـ حدّد المجازَ العقليَّ في كلٍّ مِمّا يأتي وبيّن علاقتَه:

١ ـ أبا المِسْكِ أرجو منكَ نَصْرًا على العِدا وآمُلُ عِزًّا يَخْضِبُ البِيضَ بالدَّمِ
ويومًا يغيظُ الحاسدينَ وحالةً أُقيمُ الشَّقا فيها مقامَ التنعُّمِ
٢ ـ ستُبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جَاهِلاً ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ
٣ ـ قال سبحانهُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾.
٤ ـ وكلُّ امرىءٍ يُولي الجميلَ محبَّبٌ وكلُّ مَكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيِّبُ
٥ ـ جمعتْنا العُطْلةُ في بيت أحمدَ.
٦ ـ كلّما أنبتَ الزَّمانُ قَناةً ركّبَ المَرْءُ لِلْقَناةِ سِنانا
٧ ـ تكادُ عطاياه يُجَنُّ جُنونُها إذا لَمْ يعوِّذْها بِرُقْيةِ طالبِ
٨ ـ قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.
٩ ـ بَنَتِ الحكومةُ الجامعاتِ.
١٠ ـ ازدحمتِ الشّوارعُ بالمارّة.

ـ الإجابة:

١ ـ في قوله «عزًّا يَخْضِب» مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببيّة؛ إذ أسندَ خَضْبَ السّيوف بالدّم إلى العِزّ، والعِزّ لا يخْضِب، بل هو سبب القوة وجمع الفرسان الّذين يخضبون سيوفَهم بدِماء الأعداء. وفي قوله: «يومًا يغيظ الحاسدين» مجازٌ عقليّ علاقتُه الزّمانية؛ إذ أسندَ إغاظةَ الحاسدين إلى اليوم، واليومُ لا يَغيظُ بل هو زمانُ الإغاظة.

٢ ـ في قوله «ستُبدي لك الأيّامُ» مجازٌ عقليّ علاقتُه الزّمانية. إذ

أسندَ الإبداءَ إلى الأيّام، والأيّامُ لا تُبدي، بل هي زمانُ الإبداء.

٣ ـ في قوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، بمعنى لا معصوم، مجازٌ عقليّ علاقتُه المفعولية، إذ أُسند فيه اسمُ الفاعل «عاصم» إلى المفعول.

٤ ـ في قوله «مكان يُنبِتُ العزّ» مجازٌ عقليّ علاقته المكانية، إذ أسندَ إنباتَ العِزّ إلى المكان، والمكانُ لا يُنبِت العزّ، بل هو مكان إنباته.

٥ ـ في قوله: «جمعتْنا العطلةُ» مجازٌ عقليّ علاقتُه الزمانية؛ إذ أسندَ الجمْعَ إلى العطلة، والعطلةُ لا تجمع بل يحصُل الجمعُ فيها.

٦ ـ في قوله: «أنْبَتَ الزمانُ قناةً» مجاز عقلي علاقتُه الزمانية، إذ أسند الإنباتَ إلى الزّمان، والزّمان لا يُنبِت بل يُنبَتُ فيه.

٧ ـ في قوله: «يُجَنّ جنونُها» مجازٌ عقليّ علاقتُه المصدرية، إذ أسند الفعلَ إلى مصدره.

٨ ـ في قوله سبحانه: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ بمعنى مأمونًا، مجازٌ عقليّ علاقتُه المفعوليّة، إذ أُسنِدَ فيه اسمُ الفاعل «آمن» إلى المفعول «الحرم».

٩ ـ في هذا التركيب مجازٌ عقليّ علاقته السّببية، إذ أُسند بناءُ الجامعاتِ إلى الحكومة، والحكومةُ لا تبني، بل هي السّبب الآمِرُ بالبناء.

١٠ ـ في هذا التّركيب مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المكانيّة، إذ أُسند الازدحامُ إلى الشّوارع، والشّوارعُ لا تزدحم إذ هي الأماكنُ التي يحدث فيها الازدحام.

أسئلة تُطْلَب إجاباتها:

حددّ المجازَ العقليّ فيما يأتي وبيِّن علاقته:

١ ـ أَعُمَيْرُ، إنَّ أباكَ غيَّرَ رأسَه   مرُّ الليالي واختلافُ الأعْصُرِ

٢ ـ يُغنّي كما صَدَحَتْ أيكةٌ   وقد نبَّه الصّبحُ أطْيارَها

٣ ـ والهَمُّ يخترِمُ الجسيمَ نَحافةً   ويُشيبُ ناصِيَةَ الصَّبيِّ ويُهْرِمُ

٤ ـ دع المكارِمَ لا ترْحَلْ لبُغْيتِها   واقعُدْ فإنّك أنتَ الطّاعِمُ الكاسِي

٥ ـ قَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرى   ونِمْتِ، ومَا لَيْلُ المُحِبِّ بِنَائم

٦ ـ إذا المَرْءُ لم يحْتَلْ وقد جَدَّ جِدُّهُ   أضاعَ وقاسى أمرَه وهو مُدْبِرُ

٧ ـ فَبِتُّ كأنّي سَاوَرَتْني ضَئيلةٌ   مِنَ الرُّقْشِ في أنيابِها السُّمُّ نَاقِعُ

٨ ـ صَحِب الناسُ قبْلَنا ذا الزّمانا   وعَناهُمْ مِنْ أمْرِه مَا عَنانا

وتولّوا بغُصَّةٍ كلُّهمْ مِنْهُ ـ   وإنْ سرَّ بعْضَهم أحْيَانا

المبحث الثالث:

فنّ الكِناية

ويتضمّن:

- في تعريف الكناية.
- أمثلة للكناية.
- أقسام الكِناية من حيثُ طبيعةُ مدلولها:

أولًا: الكِناية التي يُراد بها صفة.

ثانيًا: الكِناية التي يُراد بها موصوف.

ثالثًا: الكناية التي يُراد بها نِسْبة.

- أقسام الكِناية تبعًا للوسائط:

١ ـ التّعريض.

٢ ـ التّلْويح.

٣ ـ الرّمز.

٤ ـ الإيماء أو الإشارة.

- جماليّات الأسلوب الكنائيّ.

فنّ الكناية

في تعريف الكناية:

الكِنايةُ ـ لُغةً ـ مصْدرُ كَنَيْتُ عن كذا بكذا، أَكْنِي وأكنو؛ تكلّمتُ بما يُستدَلّ به عليه. وتعني أيضًا أن تتكلّم بشيءٍ وأنت تريد غيره، كما قال العربيّ:

وإنّي لأَكْنو عَنْ قَدورٍ بِغَيْرِها　　وأُعْرِبُ أحيانًا بها وأُصارِحُ

ويُفهم من البيت على الجملة أنّ الكِناية هي الكلامُ على الشيء على نحوِ غير مباشر، إذ هي عَكْسُ الإعراب بمعنى الإيضاح، وعكْسُ المصارحة.

وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

لفظٌ أُريدَ به لازِمُ معناه الوَضْعِيّ معَ جوازِ إرادة ذلك المعنى مع لازمِهِ.

وإليكَ الأمثلةَ التي تجعلك على جليّة من الأمر إن شاء الله.

١ ـ تقول عن أحدهم: «فلانٌ لا يستقِرّ لِسانُه في فِيه». حيث يُفْهَم من عدَم استقرار اللّسان أمرانِ: الأولُ حركةُ اللّسان واضطرابه وأنه لا يهدأ البَتَّةَ. وهذا هو المعنى الوَضْعيّ المحصَّل من الدّلالة المباشرة للألفاظ. والثاني أنّ هذا الرّجل مِهْذارٌ كثيرُ الكلام، وهذا المعنى عَقَلَهُ السّامعُ من المعنى الأوّل على سبيل الاستدلال والاستنتاج، وهو غرضُك الّذي تريد أن تُفْصِح عنه. وجليّ لكَ أنّ

المعنى الثّاني المُراد لازمٌ للمعنى الأوّل ومتّصِلٌ به ومحصِّلةٌ له. وفي مثل هذه الحال نقول إنّ قولَه «لا يستقِرّ لِسانُه» كنايةٌ؛ إذ هو لفظ أُريد به لازِمُ معناه الوَضْعيّ وليس هذا المعنى، مع جواز إرادة ذلك المعنى الأول.

٢ ـ تقولُ عن المصطفى عليه الصّلاةُ والسلام: «كأنّه خُلِق كما يشاءُ»، حيث يُفهَم من هذا التّعبير أمران: شَبَه أن يكون قد خُلِق كما يريد، وهو المعنى الوَضْعيّ. والثّاني لازِمٌ لِلأوّل وهو بُرْؤه ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ من العيوب، والثّاني هو المُرادُ لا الأول، مع جواز إرادة الأوّل مع لازمه. قال حسّانُ في الرّسول الكريم عليه الصّلاةُ والسّلام:

خُلِقْتَ مبرَّأً مِنْ كلِّ عَيْبٍ كأنّكَ قَدْ خُلِقْتَ كما تشاءُ

٣ ـ قال جرير:

وتقولُ بَوْزَعُ قَدْ دبَبْتَ على العَصا هلاّ هَزِئْتِ بِغَيْرِنا يا بَوْزَعُ

حزّ في نفس الشاعر أن تقول له فتاةٌ: «دببتَ على العصا» وعدّ ذلك استهزاءً به. ومرجِعُ ذلك أنّ تعبير «دببتَ على العصا» يُفيد معنيين: الأوّل الّذي يدلّ عليه ظاهرُ اللّفظ وهو كونه يتوكّأ على العصا، والثاني يُفْهَم من المعنى الأول على سبيل الاستدلال، وهو أنه شيخٌ طاعِنٌ في السّنّ لم تُبقِ له السّنونَ ما يجعل أعينَ الحِسان تجتليه وتلاحقه. وهذا المعنى لازِمٌ للأول وهو الّذي أرادتْه القائلةُ وأقضّ مضْجَع الشاعر. فقولُها «دببتَ على العصا» إذًا كنايةٌ عن كونه شيخًا كبيرًا، مع جواز إرادة المعنى الوَضْعيّ.

٤ ـ وفي الذّكر الحكيم قولُه سبحانه عن المسيح وأمّه عليهما السّلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾. إذ يُفهَم من تعبير «يأكلان الطّعام» أمران: تناول الطّعام وهو ما يقوم به كلّ الناس، وهذا هو

المعنى الوضعي للتّعبير. ثم لازِمُ هذا المعنى وهو «قضاءُ الحاجة». وهو المُراد هنا، لا المعنى الأول؛ إذ يدلّ السّياقُ ـ والله سبحانه أعلم بمُراده ـ على الإشارة إلى كونهما بَشَرًا بذِكْر خاصّةٍ من خاصّيات البشَر، وهو «قضاء الحاجة». فهٰهنا إذًا كنايةٌ عن صِفة البشرية بِذِكْر ملزومها «قضاء الحاجة»، مع جواز إرادة الدّلالة الأولى كما لا يخفى عليك.

فرقُ ما بينَ الكِناية والمجاز:

تخالِفُ الكنايةُ المجازَ في أنّه تجوز فيها إرادةُ المعنى الوضعيّ مع إرادة لازمِهِ كما تراءى لكَ في الأمثلة المتقدّمة؛ ولا يجوز في المجاز إرادةُ المعنى الوضعيّ؛ لوجود القرينة الصّارفة عن إرادته. لكنّ إرادةَ المعنى الوضعيّ مع لازمِهِ الجائزةَ جوازًا في الكناية تمتنِعُ أحيانًا لِخُصوص الموضوع، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كناية عن الاستيلاء والمُلْك، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ كناية عن قوّة التمكّن وتمام القدرة. فالمعنى الوضعيّ لـ «الاستواء» و«الطّيّ باليمين» ممتنعٌ لِخُصوص الموضوع، واتّصال الأمر بالذّات العلية، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أقسام الكِناية من حيثُ طبيعةُ مدلولها:

تنقسم الكِنايةُ من حيث الشيء المدلول عليه (المَكْنيّ عنه) على ثلاثة أقسام:

أوّلًا ـ الكناية التي يُراد بها صِفةٌ من الصّفات المعنوية كالجُود والشّجاعة، والسؤدد، والنّبل.. إلخ. **والكيفيةُ الّتي يأتي عليها هذا الضّربُ في الكلام هو أنْ يذكرَ المتكلّم موصوفًا وينسبَ إليه صفةً غيرَ مرادةٍ في ذاتها ولكن يُستدَلُّ منها على صِفةٍ أخرى هي الّتي يريدها المتكلّم. وكِنايةُ الصّفة هذه ضربان:**

١ ـ **قريبةٌ** ينتقل ذهن المتلقّي فيها من المعنى الوضعيّ إلى المعنى المُراد مباشرةً دون وسيط. وسمّيت قريبةً لِقَصَر زمن إدراك المراد منها بسبب انتفاء الوسائط. وتأتي الكنايةُ القريبةُ على إحدى حالين:

● **واضحة** يسْهُل انتقالُ الذّهن منها إلى المُراد بها، كقولكَ: «عنترةُ طويلُ النّجاد». النّجاد حَمائلُ السّيف. تلحظ هنا أنّ المتكلّمَ ذكر موصوفًا هو «عنترة» ثم نسَب إليه صِفةً هي «طول النِّجاد». لكنّ هذه الصفة غيرُ مرادة في ذاتها، بل المراد صفةٌ أخرى تتوارى خلفها هي «طولُ القامة». فإنّ طولَ النّجاد يستلزم طولَ القامة. ويقولون: «سُعْدى نؤومُ الضُّحى»، يريدون أنّها مدلّلةٌ مُترفةٌ، لديها من يخدُمها ويقوم بأمر بيتها. ولعلّك تلحظ أنّ المتكلّم جاء هنا بموصوف هو «سُعْدى» ونسب إليه صفةً هي «نَوْمُ الضّحى». وهذه الصّفة غيرُ مرادةٍ، بل تستلزم صفةً أخرى هي التي يُريدها المتكلّمُ وهي «الترفّه والتنعّم». واسمع ما يقول شاعرُ العرب:

أَبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها مسَّ البُطونِ وأنْ تمَسَّ ظُهورا

كنَى عن ضَخامة عَجيزتِها ونُهودِ ثَدْييها بابتعاد قميصها عن جسَدِها دُبُرًا وقُبُلاً. والكِناية في كلّ ما قدمناه قريبة وواضحة.

● **خفيّة** لا ينتقل الذّهنُ منها إلى المُراد بها إلّا مع شيء من التأمّل والتفكّر، كقول العرب: «فلانٌ عَرِيضُ القَفا» كنايةً عن أنه «أبْلَهُ»؛ فإنّ عَرْض القَفا على نحوٍ مُفْرط مَعْلَمُ بَلاهة، في الذّهنية العربية، ومن هنا نفى طَرَفَةُ عن نفسه هذه الصفةَ حين قال:

أنا الرّجلُ الضَّرْبُ الّذي تَعْرِفونَه خِشاشٌ كرَأْسِ الحَيّةِ المُتَوقّدِ

الضَّرْبُ: الرّجلُ المَاضي، المستعِدّ لِلمُلِمّات، الخفيف اللّحم، والخِشاش كذلك.

وجليّ أنّ المتكلّم ذكَر موصوفًا «فلان» ونسب إليه صِفةَ «عُرْض

القَفا»، وهي صِفةٌ غيرُ مُرادةٍ، بل المُراد لازمُها وهو «البَلاهة». وانتقال الذهن من عَرْض القَفا إلى البَلاهة لا يحصل إلّا مع شيء من التأمّل؛ لأنّ فيه نوعَ خفاء.

وتقول العربُ: «فلانٌ غليظُ القَلْبِ» كنايةً عن أنّه جافٍ غليظ فَظّ؛ فإنّ غِلَظ القَلْب مَعْلَمُ جَفوةٍ وقَساوة، في التصّور العربيّ. قال سبحانه في خِطاب المُصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾. وبَيِّنٌ أن الانتقال من غِلَظ القَلْب إلى الجَفْوة والفَظاظة يحتاج إلى شيء من التأمّل.

٢ ـ **بعيدةٌ** ينتقل الذّهنُ فيها من المعنى الأصْليّ إلى المعنى المُراد بوسيطٍ أو وسائط. وسُمّيت بعيدةً لِبُعْدِ زَمَن إدراك المُراد منها. ومِنْ أمثلتها:

ـ قولُهم: «فلانٌ كَثِيرُ الرَّمادِ»؛ كنايةً عن أنّه جَواد. وأنت ترى المتكلّم ذكَرَ موصوفًا هو «فلان»، ونسَب إليه صِفةً هي «كَثْرةُ الرّماد»، لكنّ هذه الصّفةَ غيرُ مرادة، بل المُراد لازمُها وهو «الجود». ولا ينتقل الذهنُ من «كثرة الرماد» إلى «الجود» حتى يمرّ بعدّة محطات:

كثرةُ إحراق الحَطَب ← كثرةُ الطَّبْخِ ← كثرةُ الأكَلَة ← كثرةُ الضِّيفان ← «الجُود».

ـ وقول الشاعر:

ومَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي ... جَبَانُ الكَلْبِ مهزولُ الفَصِيلِ

الفَصِيلُ ولَدُ الناقة. والشّاهِدُ قولُه «إنّي جبانُ الكَلْبِ، مهزولُ الفصيلِ». إذ كنى بِهذين المعنيين عن جودِه وكثرة قِراه للأضياف. ووسائطُ الذّهنِ في الانتقال من المعنى الوضعيّ لـ «جُبْن الكَلْبِ». إلى المعنى المُراد «الجُود» كثيرةٌ، هي: تأديب الكَلْب ← استمرار ما يوجب

نُباحَهُ وهو مشاهدتُه الوجوهَ الجديدةَ دائمًا ← كون صاحبه مَزارًا للناسِ ← كون صاحبِه يَقْرِي الأضيافَ ← «الجود». وكذا الشأنُ في قولِه «مهزول الفصيل».

ثانيًا ـ الكِناية الّتي يُراد بها موصوف. وكيفيّتُها أنْ يذْكُرَ المتكلّمُ صِفةً خاصّةً بموصوف، فينتقل الذّهن من تلك الصّفة إلى المتحقّق بها المتخصّص بها أكثر من غيره. كقولكَ: «جاء هادِمُ اللّذّاتِ ومُفرّقُ الجَماعات» كنايةً عن المَوْت. وأنتَ هنا تذكر صِفة «هَدْم اللّذات»، وهي خاصّةٌ بموصوفٍ غيرِ مذكور «الموت». وذِهْنُ المتلقّي ينتقلُ من «هدْمِ اللّذات» إلى «الموت» بِيُسْر؛ لاختصاصه بهذه الصّفة ولتداول النّاس مِثْلَ هذا المعنى. وكذا الأمرُ في «تفريق الجماعات». وكلّما تخصّص الموصوفُ غيرُ المذكور بالصّفة المذكورةِ واشتهر بها سَهُلَ انتقالُ الذّهن من الصّفة إلى صاحبها المتفرّد بها، على حدّ ما يقول الشاعر العربيّ:

إذا القومُ قالوا: مَنْ فتًى، خِلْتُ أنّني عُنِيتُ، فلَمْ أكْسَلْ، ولم أَتَبلّدِ

وتأتي كنايةُ الموصوف على نوعين:

١ ـ الكنايةُ بمعنًى واحد، بأنْ تختصّ صفةٌ واحدة بموصوفٍ معيّن، فتُذْكَر تلك الصّفة لِيتوصّل بها إلى ذلك الموصوف؛ مثل «مَجَامِع الأَضْغان» كنايةً عن «القلوب» في قول الشاعر:

الضّارِبينَ بِكُلِّ أبْيَضَ مِخْذَمٍ والطّاعنينَ مَجامِعَ الأَضْغانِ

المِخْذَم: القاطع. الضِّغْن: الحِقْد. ومجامِعُ الأضغان معنًى واحِدٌ من حيث إنّ مدلوله جنس واحد هو القلوب.

ومن هذا القبيل قولُ البحتريّ:

فأَتْبَعْتُها أخرى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها بِحيثُ يكونُ اللُّبُ والرّعْبُ والحِقْدُ

فالمكان الذي يكون فيه العقلُ والخوفُ والضّغينة هو «القلب».

وكونه مكان اللّب والرّعب والحقد معنًى واحد من حيث إنّ مدلوله جنس واحد هو «القلب».

ومن الكناية بمعنًى واحد قولُهم: «مَخْضوبُ البَنَان» كنايةً عن المرأة، و«هادِم اللذّات» كنايةً عن الموت، و«دار الإقامة» كناية عن الآخرة.

٢ ـ الكِناية بجُمْلة معانٍ، بأنْ تختصّ عدّةُ صِفاتٍ مجتمعةً بموصوف معيَّن، فتُذكَر تلك الصّفاتُ لِيُستدلّ منها على ذلك الموصوف، كقولِهم كنايةً عن الإنسان: «إنّه حَيٌّ مستوي القامةِ عَريضُ الأظفار». ومجموعُ هذه الأوصاف الثلاثة هو المختصّ بالإنسان، وليس كلّ واحد منها.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه في الذِّكْر الحكيم: ﴿وَحَمَلْنَهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ كنايةً عن السّفينة، وقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ كنايةً عن الإناث. وقد ذكرَتْ كلّ مِنَ الآيتين أمرين: الألْواح والدُّسُر، وهما معنيان أو شيئان، ثم التنشئة في الحِلْية وعدَم الإبانة في الخِصام.

وفارقُ ما بين النّوعين أنّ الصّفة الواحدة المذكورة قادرةٌ على إحضارِ الموصوف في الذّهن في النّوع الأول، وأنّ جملةَ صفاتٍ لا غنى عنها لإحضار الموصوف في النّوع الثاني.

ثالثًا ـ الكِناية الّتي يُراد بها نِسْبة أي إثباتُ أمْرٍ لآخرَ أو نفيه عنه. وكيفيّتُها أنْ يُصَرّح بالموصوف والصّفة ولا يُصرَّح بالنّسبة بينهما، بل يصرَّح بِنِسبةٍ أخرى تستلزم هذه النسبةَ؛ أي إنّ النّسبة المقصودة تتوارى وراءَ النّسبة المذكورة. واسْمَعْ ما يقول عبدُ القاهر في هذا الشأن: «إنهم يرومون وصْفَ الرّجل ومدْحَهُ وإثباتَ معنًى من المعاني

الشريفة له فيدَعُون التّصريحَ بذلك، ويَكْنون عن جعْلِها فيه بِجَعْلِها في شيء يشتمِلُ عليه، ويلتبِسُ به، ويتوصّلون في الجُملة إلى ما أرادوا من الإثباتِ لا مِنْ الجهة الظّاهرةِ المعروفة، بل من طريقٍ يخفى ومَسْلكٍ يدِقّ».

وإليكَ الأمثلةَ الموضحة لهذا الضَّرْب:

١ ـ قال الشَّنفرىٰ يصِفُ امرأةً بالنّزاهة والعِفّة:

يَبيتُ بِمَنْجاةٍ من اللّومِ بَيْتُها   إذا مَا بُيُوتٌ بالمَلامةِ حُلّتِ

قوله: «يبيتُ بمنجاةٍ من اللّوم بيتُها» كنايةٌ، حيث صرّح بالموصوف «المرأة» المعبّر عنها بضَمير الغائب في «بيتها»، وبالصّفة وهي «نَفْيُ اللّوم» ولم يصرّح بالنسبة بينهما، بل صَرَّح بنسبةٍ أخرى هي «نَفْيُ اللّوم عن بيتها» فاستُدِلّ بهذه النسبة على نسبة أخرى هي المُرادة وهي «نفْيُ اللّوم عنها». وهكذا كنى بنفي اللّوم عن بيتها عن «نفي اللّومِ عنها». وكذا الشأنُ في قوله «إذا ما بيوتٌ بالمَلامة حُلَّتِ»، حيث كنى عن اتّصاف ساكنيها بالمَلامة ونِسبة المَلامة إلى أصحاب البيوت (النّساء الأخريات).

٢ ـ قال زِيادُ الأَعْجَمُ يمدح عبدَ الله بنَ الحَشْرَج والي نَيْسَابُور:

إنّ السَّماحةَ والمُروءةَ والنّدى   في قُبّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرجِ

صرّح الشّاعرُ بالموصوف «ابن الحَشْرج» وبمجموعةِ صفاتٍ «السّماحة والمُروءة والنّدى»، ولم يصرّح بالنّسبة بين هذه الصّفات والموصوف، بل صرّح بنسبةٍ أخرى هي «كون السّماحة والمروءة والنّدى في قبّة ضُرِبَتْ عليه»، وهذه النّسبةُ تستلزم النسبةَ المُرادة، وهي نسبةُ هذه الصّفات إلى ابن الحَشْرَج من حيث وجودُها في قُبّةٍ ضُرِبَتْ عليه، وضرورة قيامها بِمَحَلٍّ صالح.

٣ ـ قال أبو نُواس يمدح الخَصِيبَ:

فَمَا جَازَهُ جُودٌ ولا حَلَّ دونَه   ولكِنْ يَسِيرُ الجُودُ حيثُ يَسيرُ

صرّح بنسبةٍ هي «سَيْرُ الجُودِ في المكان الذي يسير فيه الممدوحُ» فاستُدِلّ من ذلك على النّسبة المرادة، وهي نِسْبةُ الجود إليه.

والكِناية التي يُراد بها نِسْبةٌ نوعان:

ـ ما يُذْكَرُ فيه صاحِبُ النّسبة المرادة كما في قول الشاعر:

اليُمْنُ يتْبَعُ ظِلَّهُ   والمَجْدُ يمْشي في ركابِهْ

فصاحِبُ النّسبة مذكورٌ في الكلام معبّرٌ عنه بالضّمير في «ظلّه» و«ركابه». إذ يُستفاد من تَبَع اليُمْن لِظلّه اختصاصُه به. وكذا الشأنُ في المَجْد؛ إذ يُفْهَم من مَشْيه في رِكابه اختصاصُه به. وفي كِلْتا الحالين يُراد بالكناية نسبةٌ: نسبة اليُمْنِ والمَجْد إليه.

٢ ـ ما لا يُذْكَرُ فيه صاحِبُ النّسبة المرادة، كما في قول المصطفى ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِم المسلمونَ من لِسانه ويده...». ففيه نَفْيُ صِفةِ الإسلام عن المُؤذي، وهو غيرُ مذكورٍ في الكلام. ونظيرُه قولُكَ لِصَديقٍ خذَلَك في موقفٍ: «الصَّديقُ عندَ الضّيقِ»؛ ففيه نَفْي صِفة الصّداقة عنه وهو غيرُ مذكورٍ في الكلام.

أقسامُ الكناية تبعًا للوسائط:

تنقسم الكنايةُ تبعًا للوسائطِ على أربعة أقسام:

١ ـ **التعريض**: وهو ـ لُغةً ـ خِلافُ التّصريح؛ واصطِلاحًا إطلاقُ الكلام والإشارةُ به إلى معنًى آخر يُفهَم من السّياق. كما تقول لِمَنْ يؤذي: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده...». فالمعنى الصريحُ للحديث حَصْرُ الإسلامِ فيمن لا يؤذي، ويلزم منه نَفْيُ الإسلامِ

عن كلّ مؤذٍ، ومن بَيْنِ هذا الكلّ مخاطبُك. وكقولِكَ لِمَنْ تجاوز حدّه: «رَحِم الله امرأً عرَفَ حدَّه فوقفَ عِنْدَه». كناية من قبيل التّعريض بأنّ صاحبَك لم يَعْرِف حدَّه، ولم يقف عنده. ومنه قول الشّاعر:

تمنّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهُما   وهَلْ أنا إلّا مِنْ ربيعَةَ أَوْ مُضَرْ

قولُه: «وهَلْ أنا إلّا منْ ربيعةَ أو مُضَر» كنايةٌ من قبيل التّعريض بأنّه لن يعيش، يدلّ على ذلك مطلعُ البيت.

٢ ـ **التّلويح**: وهو ـ لُغةً ـ أن تُشيرَ إلى غيرِك مِنْ بعيد؛ واصْطِلاحًا كنايةٌ كثُرَتْ فيها الوسائطُ بين اللاّزم والمَلْزوم، كقول الشاعر:

ومَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي   جَبَانُ الكَلْبِ مهزولُ الفَصِيلِ

كنى بجُبْن الكَلْب وهُزال الفَصيل عن جوده، لكنّ بين المعنيين عددًا من الوسائط عرَفْتَها قبلُ. ومثلُه قولُ الآخر:

وكَلْبُكَ آنَسُ بالزّائرينَ   مِنَ الأُمِّ بِابنَتِها الزّائِرَهْ

٣ ـ **الرّمز**: وهو ـ لُغةً ـ أن تشير إلى قريبٍ منكَ خفيةً بِشَفةٍ أو حاجبٍ؛ واصطِلاحًا كِنايةٌ قلّتْ وسائطُها مع خفاء اللّزوم. كقول الشاعر:

عَريضُ القَفا مِيزانُه في شِمالِه   قد انحصَّ منْ حَسْبِ القَراريطِ شارِبُهْ

في البيت ثلاثُ كِنايات سَلَكت جميعًا طرقَ الرّمز لِقلّة الوسائط مع خفاء اللّزوم: عريضُ القَفا كِنايةٌ عن بَلاهته؛ و«مِيزانه في شِماله» كنايةٌ عن عدَم الضّبْطِ والإحكام، و«انْحَصّ مِنْ حَسْب القراريط شارِبُه» كِنايةٌ عن انشغالِه بالتّوافه الّتي لا ينشغِلُ بها ذَوُو الهِمَم.

٤ ـ **الإيماء أو الإشارة**: وهو كِنايةٌ قلّتْ وسائطُها مع وضوح اللّزوم. كقول الشّنْفَرىٰ يذكر امرأةً:

لقد أعْجَبَتْني لا سَقُوطًا قِناعُها إذا مَا مَشَتْ ولا بِذاتِ تَلَفُّتِ

كنى بِعَدم سُقوط قِناعها عن حَيائها وخَفَرِها وتصاونِها. واللّزوم بيّنٌ بين عدَم سقوط القِناع والحياء. وكذا كنى بِعَدَم تلفّتها عن عفّتها ورزانتها ووقارها. وكقول البحتريّ:

أوَمَا رأيتَ المَجْدَ ألقى رَحْلَهُ في آلِ طَلْحةَ ثمّ لم يتحوَّل؟

أراد أنّ المجدَ أقام في خِيام آل طلحة ولم يرحل عنها، فكنى بإثبات المَجْد لخيام آل طلحة عن إثبات المجد لهم؛ ذلك أنّ المجد صفةٌ، أي معنًى قائمٌ بغيره، والخِيامُ لا تصلُح محَلاً لها، واللّزوم واضح.

وتسميةُ هذا الضّرْب من الكِناية «إيماءً» أو «إشارةً» إنّما تشير إلى وضوح الدّلالة وظهورِها فيه؛ لأنّ الإيماء إشارةٌ واضحةٌ إلى القريبِ منكَ، والإشارة موضوعةٌ للدّلالة على المَحْسوس الذي هو أمرٌ ظاهر.

ونَحْسَبُك الآنَ عرفتَ على نحْوٍ لا تحتاج معه إلى مزيدِ إيضاح أنّ:

الكِنايةَ لفظٌ لا يُراد به ظاهرُ معناه الّذي وضَعَتْهُ له اللّغةُ، بل معنًى آخر لازِمٌ لمعناه الظّاهرِ ومستَنْتَجٌ منه مع جواز قَصْد المعنى الظّاهر مع لازمه، وأنّ اللّفظ الكِنائيّ قد يكون صِفةً تستلزم صِفةً أخرى هي المُرادة، أو صِفَةً تستلزِم موصوفًا هو المُراد، أو نسبةً تستلزم نسبةً أخرى هي المُرادة.

جماليّاتُ الأسلوبِ الكِنائي وبلاغتُه

الكِنايةُ إحدى طرائقِ التّعبير الّتي اهتدى إليها الإنسانُ لتوصيل انفعاله بالأشياء إلى الآخرين. ويمتاز هذا الأسلوبُ بقدرة تعبيرية عالية تجعل البلغاءَ يُؤْثِرونه على غيره من الأساليب ويزيّنون به كلامَهم، كما يحظى بسُلطانٍ كبير على نفوس المتلقّين؛ لما ينطوي عليه من قدرةٍ على تحريكِ الذّهن ومضاعفة فعاليته في تحصيل المُراد من الكلام، ومن ثم إمتاعه ببهجة الكَشْف والتعرّف. ونسوق لكَ ههنا شيئًا مِمّا أبدعته قرائحُ أفْذاذِ البُلغاء بشأن جماليّات هذا الأسلوب:

١ ـ تجويدُ الصورة التي يخرج فيها المعنى على نحو يشدّ إليه النّفوسَ ويجذِب إليه الأفهام. وفي هذا المعنى يقول عبدُ القاهر: «سبيلُ المعاني أن ترى الواحدَ منها غُفْلاً سَاذَجًا عاميًا موجودًا في كلام النّاس، ثمّ تراه نفسَه وقد عمَد إليه البصيرُ بشأن البلاغة وإحداثِ الصُّوَر في المعاني فيصنعُ فيه ما يصْنَع الصَّنَع الحاذِق حتّى يُغْرِب في الصَّنْعة ويدِقّ في العَمَل ويُبدِع في الصّياغة». فشتّانَ ما بين أن تقول: «احذَرُوا ثورةَ فلانٍ وغضَبَه وصَوْلَتَه» وأن يقول الفرزدقُ في المعنى نفسه:

إذا مالِكٌ أَلْقى العِمامَةَ فاحْذَرُوا   بَوادِرَ كَفَّيْ مالِكٍ حِينَ يَغْضَبُ

٢ ـ تأكيدُ المعنى وتقريرُه وإثباته من الوِجهة الّتي تبعث طُمأنينةَ النّفس وبَرْدَ اليقين. قال عبدُ القاهر: «ليس المعنى إذا قلْنا إنّ الكناية أبلغُ من التّصريح أنّك لمّا كنيتَ عن المعنى زِدْتَ في ذاته، بل المعنى

أنّك زِدْتَ في إثباته فجَعَلْتَه أبلغَ وآكدَ وأشدّ». وفضلَ إثباتِ المعنى بالكناية على إثباته بغيرها أنّ الكنايةَ تقدّم لك المعنى مقرونًا بِدَليلِهِ الذي لا يخطىء وبرهانِه الّذي ينفي عنه كلّ شكّ. يقول عبدُ القاهر: «أمّا الكنايةُ فإنّ السّبب في أنْ كان للإثبات بها مَزِيّةٌ لا تكون للتّصريح أنّ كلّ عاقِلٍ يَعْلَم إذا رجع إلى نفسه أنّ إثباتَ الصّفة بإثباتِ دليلِها وإيجابَها بِمَا هو شاهِدٌ في وجودها آكدُ وأبلغُ في الدّعوى من أن تجيء إليها فتُثبتها هكذا سَاذجًا غُفْلاً».

٣ ـ تحصيلُ المعنى مِنْ معنًى آخر مِمّا يضاعف ابتهاجَ العَقْل بالكَشْف والتعرّف بعد طُول بحْثٍ وتشوّق. قال عبدُ القاهر: «ومِنَ المَرْكُوزِ في الطِّباعِ والرّاسخ في غرائز العقول أنه متى أُريد الدّلالةُ على معنًى فتُرِك أن يصرَّح به ويذكر باللّفظ الّذي هو له في اللّغة، وعُمِد إلى معنًى آخر فأُشيرَ به إليه وجُعِل دليلاً عليه كان لِلكلام بذلك حُسْنٌ ومَزِيّةٌ لا يكونان إذا لم يُصْنَع ذلك وذُكِر بلفظه صريحًا».

٤ ـ التّلطّف في عَرْض المعاني الّتي يَنْبو عنها الذّوقُ ويستكرِهها السَّمْع. قال سبحانه في النّهي عن أخْذِ المُهور مع بيان السّبب: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾. وقال سبحانه كنايةً عمّا يَحْرُم إتيانُه في الحَجّ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾.

٥ ـ التعّبير عن المُراد دونَ خوف اللاّئمة. قال امرُؤُ القَيْس كِنايةً عن المرأة الجميلة:

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تمتّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِها غيرَ مُعْجَلِ

وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْر مكنيًا عن صاحبته بالسَّرْحة حين سُدّ عليه سبيلُ التّصريح بِاسْمها:

أبىٰ اللّهُ إلّا أنّ سَرْحَةَ مالِكٍ   على كُلِّ أفنانِ العِضاهِ تَرُوقُ
فَيا طِيبَ رَيّاها وبَرْدَ خِلالِها   إذا حَانَ مِنْ حامي النَّهارِ وَدِيقُ

٦ ـ تصويرُ دقائق المعاني ومكنونات الصّدور مِمّا يَعْجِز عنه التصريح. قال البحتريّ يذكر فَتْكه بالذئب:

فَأَتْبَعْتُها أخرى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها   بحيثُ يكونُ اللّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ

كنى عن «القَلْب» بكونه مكانَ اللّبّ والرّعب والحقد. قال ابنُ سِنان في بلاغة هذه الكِناية: «أرادَ القَلْبَ فلم يعبِّر عنه باسمه الموضوع له، وعدَل إلى الكِناية عنه بما يكون اللّبُّ والرّعبُ والحقد، وكان ذلك أحسنَ؛ لأنّه إذا ذكَره بهذه الكِنايات كان قد دلّ على شرَفِه وتميّزه على جميع الجَسَد بِكَوْن هذه الأشياء فيه، وأنه أصاب هذا المَرْمى في أشْرَف موضعٍ منه. ولو قال أصبْتُه في قلْبه لم يكن من ذلك دِلالةٌ على أنّ القلْبَ أشرفُ أعضاء الجسَد».

أسئلة وإجاباتها حول الكناية:

ـ حدّد نوعَ الكِناية تبعًا للمَكْنيّ عنه وتبعًا للوسائط فيما يأتي:

١ ـ وإنْ حَلَفَتْ لا ينقُضُ النأْيُ عهْدَها فليسَ لِمَخضوبِ البَنانِ يَمِينُ

٢ ـ وكلبُكَ آنسُ بالزّائرينَ مِنَ الأُمّ بابْنَتِها الزّائرة

٣ ـ قال الحجّاج: «إنّ أميرَ المؤمنينَ نثَرَ كِنانتَه عُودًا عُودًا فوجدني أمرَّها عُودًا وأصْلَبَها مَكْسَرًا فرَماكم بي. واللّهِ لأخزِمنَّكمْ حَزْمَ السَّلَمةِ ولأضْرِبنّكمْ ضَرْبَ غَرائبِ الإبِلِ».

٤ ـ لا يرفعُ الضَّيفُ عَينًا في منازِلنا إلّا إلى ضاحِكٍ منّا ومُبْتَسِمِ

٥ ـ تقول الّتي مِنْ بيتِها خفَّ مَحْمَلي عَزيزٌ علَيْنا أن نَراكَ تَسِيرُ

٦ ـ ذلك فارِسٌ لا يَشقّ له غُبارٌ.

٧ ـ لا يَنْزِلُ المَجْدُ إلّا في منازِلِنا كالنّومِ ليس له مأوى سوى المُقَلِ

٨ ـ سَعَةُ صَدْرك أطمعتِ الناسَ بك.

٩ ـ فأَتْبعتُها أخرى فأضْلَلْتُ نَصْلَها بحيثُ يكون اللّبُّ والرّعبُ والحِقْدُ

١٠ ـ أبَيْنَ فمَا يَزُرْنَ سِوى كريمٍ وحَسْبُكَ أنْ يَزُرْنَ أبا سعَيدِ

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله: «مخضوب البَنان» كِنايةٌ عن موصوف، وهي المرأة؛ فَخِضاب البَنان من صِفاتها الخاصّة بها، هذه الكنايةُ من نوع الإيماء؛ لقلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٢ ـ في قوله: «آنسُ بالزّائرين من الأمّ بابنتها» كنايةٌ عن صِفة هي الكرَم؛ فاستئناسُ الكلب بالزّائرين يستلزم معرفةَ هؤلاء الزّائرين، وهذه المعرفةُ دليلُ اتّصال مشاهدته إيّاهم على نحوٍ متّصل، وهذا دليلٌ على

أنّ بيتَ الممدوح مزارُ الضّيفان وملتقى طُلّاب الحاجات. وهذا دليلُ ما قصد إليه الشّاعرُ من إحسان الممدوح وسَعة جُوده واتصال فضْله. ولِبُعْد المسافة بين أُنْس الكَلْب بالزائرين وكرَم الممدوح كانت هذه الكنايةُ من نوع «التلويح».

٣ ـ في قوله: «نشر كنانته... فرماكم بي» كنايةٌ عن صفة هي التّنقيب والتّفتيش عمّا هو أصلحُ حتّى العثور عليه ورميهم به، وهي من نوع «التّلويح»؛ لِبُعْد المسافة بين الأفعال التي ذكرها والمعنى المراد.

٤ ـ في هذا البيت كنايةٌ عن صِفة هي كرَم قوم الشاعر وعشيرته، إذ يستلزم الضَّحِكُ والبشاشةُ في وجه الضّيف الاحتفاءَ به، وهذا معْلَمُ كرَمٍ وجود. وهذه الكناية من نوع «الإيماء»؛ لِقِلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٥ ـ في قوله: «من بيتها خفّ مَحْمَلي» كنايةٌ عن موصوفٍ، هي امرأته؛ ذلك أنّ راحلةَ العربيّ إنما تخِفّ من بيته هو في العادة. وهذه الكناية من نوع «الإيماء»؛ لِقلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٦ ـ في قولهم: «لا يُشَقّ له غُبار» كنايةٌ عن صِفةٍ هي السّبْقُ والتّقدم؛ إذ يعني ذلك أنه يسْبِق منافسيه في حَلْبة السّباق إلى درجة أنّ الغُبار الّذي يثيره جوادُه يسْكُن ولا تبقى له بقية عندما يأتي الفارس الآخر فيشقّها، أي إنّ بينه وبين الفرسان الآخرين مسافة. وهي من نوع «الرّمز» لِقِلّة الوسائط وخفاء اللّزوم نسبيًا.

٧ ـ في قوله: «لا يَنْزِل المَجْدُ إلّا في منازلنا» كنايةٌ عن نِسْبةٍ، وهي إثباتُ المَجْد لهم؛ فإنّ عدمَ نزول المَجْد إلّا في منازلهم، وضرورةَ قيام المَجْد بأناسٍ، يستلزمان قيامَه بهم. وهي من نوع «الإيماء» لِقِلّة الوسائط ووضوح الدلالة.

٨ ـ في قوله: «سَعةُ صَدْرك» كنايةٌ عن صِفةٍ هي الحِلْم، فإنّ سَعَة الصّدر تستلزم أن يكون الإنسانُ غاضًا الطّرْفَ عن الزلاّت متجاهلاً الإساءات. وهي من نوع «الإيماء» لِقِلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٩ ـ في قوله: «بحيثُ يكونُ اللّبّ والرّعب والحِقْدُ» كنايةٌ عن موصوف هو «القَلْب»؛ فإنّ القلب هو موطنُ العقل والهَلَع والضّغينة.

١٠ ـ في عجُزِ البيت كنايةٌ عن صفة، هي كرم أبي سعيد، وهي من نوع «الإيماء».

أسئلة حول الكِناية تُطلَب الإجابة عنها على غرار ما تقدّم:

ـ حدّد نوعَ الكناية تبعًا للمكنيّ عنه وتبعًا للوسائط فيما يأتي:

١ ـ وأَقْبَلَتْ يومَ جَدَّ البَيْنُ في حُلَلٍ سُودٍ تعضّ بنانَ النّادمِ الحَصِرِ
٢ ـ فمَا جازهُ جُودٌ ولا حَلَّ دونَه ولكنْ يَصِيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ
٣ ـ أُريدُ بسْطةَ كَفٍّ أستعينُ بها على قَضاءِ حُقوقٍ للعُلا قِبَلي
٤ ـ أفنى تِلادي وما جمَّعْتُ من نَشَبٍ قَرْعُ القواقيزِ أفواهَ الأباريقِ
٥ ـ أشدُّ ما يزعِجُ المرءَ إساءةٌ أتته مِمّن وَلَدَتْه أُمّه.
٦ ـ فصبّحهُمْ وبُسْطُهُمُ حَريرٌ ومَسّاهم وبُسْطُهُمُ تُرابُ
٧ ـ ولَمّا شَرِبْناها ودَبَّ دَبيبُها إلى موطنِ الأسرارِ قلتُ لها قِفي
٨ ـ النّاسُ للنّاسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ، وإنْ لم يشعُروا خَدَمُ
٩ ـ تقول عن متوفًّى: «استوفى طعامَه وشرابَه».
١٠ ـ قال زهير يمدح:
تَراهُ إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلاً كأنّكَ تُعطيهِ الّذي أنتَ سائِلُهْ
١١ ـ تقولُ العامّةُ عن شخصٍ وَرِع: «لا يدوسُ النّملةَ».
١٢ ـ أحمدُ مِلْءُ إهابِه الكرَم. الإهاب: الجِلْد.

١٣ ـ قال ابنُ باقِلّاني (بائع فول):

أنا ابنُ الّذي لا تنزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُه وإنْ نَـزَلَـتْ يـومًـا فـسـوفَ تَـعُـودُ

١٤ ـ قال الشاعر يصف كلْبَ أحدهم:

يكاد إذا ما أبصرَ الضَّيْفَ مُقْبِلاً يُـكَـلِّـمُـه مِـنْ حُـبّـه وهْـوَ أعْـجَـمُ

١٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.